نسخة جديدة

Agatha Christie®

أجاثا كريستي

بوابة المصير

الرسالة الغامضة

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

بوابة المصير

الرسالة الغامضة

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... إستمتع بمكتبة

Agatha Christie®

Postern of Fate

للتعرف على فروعنا في
المملكة العربية السعودية - قطر - الكويت - الإمارات العربية المتحدة
نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**
للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **publications@jarirbookstore.com**

تحديد مسئولية / إخلاء مسئولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسب
القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والناتجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات
والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسئولية ونُخلي
مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته
لغرض معين. كما أننا لن نتحمّل أي مسئولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، به
في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

الطبعة الأولى ٢٠١٦

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.

لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها
نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية أو من خلال التصوير أو التسجيل أو بأية وسيلة أخرى .

إن المسح الضوئي أو التحميل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون
موافقة صريحة من الناشر هو عمل غير قانوني. رجاءً شراء النسخ الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا
العمل، وعدم المشاركة في قرصنة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف سواء بوسيلة إلكترونية
أو بأية وسيلة أخرى أو التشجيع على ذلك. ونحن نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

رجاءً عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك. نقد
دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

Translation entitled **بوابة المصير** © 2016 Agatha Christie Limited. All rights reserved.
Postern of Fate © 1973 Agatha Christie Limited. All rights reserved.
AGATHA CHRISTIE® and the Agatha Christie Signature are registered trademarks of
Agatha Christie Limited in the UK and elsewhere.
All rights reserved.

بوابة المصير

تُعد أجاثا كريستي أكثر الروائيات انتشارًا، حيث نُشرت أعمالها على نطاق واسع على مر العصور وبكل اللغات، ولم يتفوق عليها في المبيعات سوى مؤلفات شكسبير؛ فلقد بيعت أكثر من مليار نسخة من رواياتها باللغة الإنجليزية ومليار نسخة أخرى بمائة لغة أجنبية. كتبت أجاثا كريستي ثمانين رواية من أدب الجريمة ومجموعات قصصية قصيرة وتسع عشرة مسرحية وكتابَيْ سيرة ذاتية وست روايات أخرى كتبتها تحت اسم مستعار، هو "ماري ويستماكوت".

حاولت في البداية تأليف القصص البوليسية في أثناء عملها في مستوصف طبي في أثناء الحرب العالمية الأولى، مبتكرة الشخصية الأسطورية "المحقق هيركيول بوارو" في روايتها الأولى *القضية الغامضة في مدينة ستايلز**. وفي رواية *جريمة قتل في المعبد*** التي تم نشرها في عام ١٩٣٠، قدمت محققة محبوبة هي الآنسة جين ماربل. ومن بين شخصيات سلسلة الروايات فريق مكافحة الجريمة المكون من الزوج والزوجة تومي وتيوبنس بيريسفورد، والمحقق الخاص باركر باين، ومحققي إسكوتلانديارد: المراقب باتل والمفتش جاب.

والكثير من روايات كريستي وقصصها القصيرة تم تحويلها إلى مسرحيات وأفلام ومسلسلات تليفزيونية. ومن أشهر مسرحياتها على الإطلاق مسرحية *The Mousetrap* التي

---

* متوافرة لدى مكتبة جرير

** متوافرة لدى مكتبة جرير

www.liilas.com/vb3
uploaded and
scanned by :
THE GHOST 92

كانت بداية عرضها في عام ١٩٥٢، وقد استمر عرضها على خشبة المسرح لأطول فترة عرض في تاريخ المسرح. ومن بين أشهر الأفلام المأخوذة عن رواياتها جريمة في *قطار الشرق السريع*** (١٩٧٤) و*جريمة قتل على ضفاف النيل**** (١٩٧٨)؛ حيث لعب دور المحقق هيركيول بوارو الممثلان "ألبرت فيني" و"بيتر أوستينوف" في الفيلمين على التوالي. وعلى شاشة التليفزيون، لعب الممثل "ديفيد سوشيه" دور المحقق بوارو على نحو لا يمكن نسيانه أبدًا، ولعبت الممثلة "جوان هيكسون" دور الآنسة ماربل، ثم تبعتها في تأدية هذا الدور كل من الممثلة "جيرالدين ماكإيوان" و"جوليا ماكنزي".

تزوجت كريستي لأول مرة من أرشيبالد كريستي، ثم تزوجت من عالم الآثار السير ماكس مالوان، الذي رافقته في رحلاته الاستكشافية إلى البلدان التي استعانت بها في أحداث العديد من رواياتها. وفي عام ١٩٧١، تسلمت كريستي واحدًا من أرفع الأوسمة البريطانية حين حصلت على لقب سيدة الإمبراطورية البريطانية. توفيت كريستي في عام ١٩٧٦ عن عمر يناهز الخامسة والثمانين. وتم الاحتفال بعيد ميلادها المائة والعشرين في مختلف أنحاء العالم في عام ٢٠١٠.

www.AgathaChristie.com

*** متوافرة لدى مكتبة جرير

**** متوافرة لدى مكتبة جرير

مجموعة روايات لأجاثا كريستي

١. أبجدية القتلى
٢. الأصابع المتحركة
٣. الموعد الدامي
٤. تحريات بوارو
٥. تحريات باركرباين
٦. الجواد الأشهب
٧. خداع المرايا
٨. لغز الكاريبي
٩. الأربعة الكبار
١٠. السيانيد الساطع
١١. القتل السهل
١٢. جريمة وانتقام
١٣. محنة البريء
١٤. بيت الرجل الميت
١٥. جثة في المكتبة
١٦. واختفى كل شيء
١٧. شركاء في الجريمة
١٨. لغز القطار الأزرق
١٩. كلب الموت، أصوات الأرواح
٢٠. ساعة الصفر، الجريمة الكاملة
٢١. العدو الخفي، المهمة المشئومة
٢٢. ليلة لا تنتهي، المنزل الملعون
٢٣. من الذي قتل السيد روجر أكرويد
٢٤. المنزل الأعوج، جريمة قتل في منزل آل ليونيدز
٢٥. الجريمة النائمة، عندما يعود الماضي لينتقم
٢٦. قطة بين الحمام، جثة في صالة الألعاب
٢٧. القضية الغامضة في مدينة ستايلز
٢٨. ثلاثة فئران عمياء وقصص أخرى
٢٩. لماذا لم يسألوا إيفانز؟
٣٠. أوراق لعب على الطاولة، قصة لبوارو
٣١. المرآة المتصدعة من جانب لآخر، رواية للآنسة ماربل
٣٢. الشاهد الصامت، مقتل الآنسة إميلي أروندیل
٣٣. واحد اثنان اربط حذائي، جريمة غامضة تجمع بين أشخاص لا صلة لهم ببعض
٣٤. جريمة في شارع هيكوري دوك، انتشار هوس السرقة في بيت الشباب
٣٥. الستارة، القضية الأخيرة للمحقق بوارو، العودة إلى قضية سمايلز
٣٦. القهوة السوداء
٣٧. جريمة في قطار الشرق السريع
٣٨. الأجوف، جريمة قتل على المسبح، أسرار عائلية غامضة
٣٩. طالما استمر الضوء، قصص متنوعة
٤٠. مشكلة في خليج بولينسا، المكالمة الغامضة
٤١. ركوب التيار، انجرف مع الفيضان
٤٢. القضايا الأخيرة للآنسة ماربل، قضايا مثيرة
٤٣. اللورد إدجوير يموت، إطلاق النار في المكتبة
٤٤. قطار ٤:٥٠ من بادينجتون، ماذا رأت السيدة إلسبيث؟
٤٥. الساعات، جثة في منزل الآنسة العمياء
٤٦. الفتاة الثالثة، الجريمة المنسية
٤٧. أعمال هرقل، اثنتا عشرة قضية
٤٨. موت السيدة ماجنتي، المستأجر المراوغ
٤٩. بوابة المصير، الرسالة الغامضة
٥٠. لغز سيتافورد، جريمة قتل في منزل هازلمور
٥١. قضايا بوارو الأولى، الحنين للماضي
٥٢. احتفال هيركيول بوارو بالعام الجديد، جريمة قتل في يوم العطلة
٥٣. مغامرة كعكة العام الجديد، قضايا في المنزل الريفي
٥٤. الخمسة المشتبه بهم، القرود الخمسة الصغيرة

إهداء

إلى هانيبال وسيده

المحتويات

المجلد ١

١ فيما يتعلق بالكتب ٥
٢ السهم الأسود ١٥
٣ زيارة إلى المقابر ٢٩
٤ الكثير من آل باركنسون ٣٧
٥ مزاد المقتنيات المستعملة ٤٩
٦ مشكلات ٦٣
٧ المزيد من المشكلات ٧٥
٨ السيدة جريفين ٨٣

المجلد ٢

١ منذ زمن بعيد ٨٩
٢ التعرف على ماتيلدا، وعربة الحب الحقيقي، وكيه كيه ٩٧
٣ ستة أشياء مستحيلة قبل الإفطار ١١٣

٤ جولة استكشافية بعربة الحب الحقيقي؛ وأكسفورد وكامبريدج ١٢٧
٥ مناهج البحث ١٥٣
٦ السيد روبنسون ١٦٣

المجلد ٣

١ ماري جوردان ١٩١
٢ بحث توبينس ٢٠٩
٣ تومي وتوبينس يتبادلان الملاحظات ٢١٧
٤ احتمالية إجراء جراحة لماتيلدا ٢٢٧
٥ مقابلة مع الكولونيل بيكاواي ٢٤٧
٦ بوابة المصير ٢٦٥
٧ التحقيق ٢٧٣
٨ ذكريات عن العم ٢٨٣
٩ فرقة الصبية ٣٠١
١٠ الهجوم على توبينس ٣١٧
١١ هانيبال يتخذ إجراءً ٣٤٣
١٢ أكسفورد، وكامبريدج، ولوهينجرين ٣٥١
١٣ زيارة من السيدة مولينز ٣٥٩
١٤ حملة الحديقة ٣٦٧
١٥ هانيبال يعود إلى الخدمة مع السيد كريسبن ٣٧٥
١٦ الطيور تهاجر جنوبًا ٣٩١
١٧ الكلمات الأخيرة: عشاء مع السيد روبنسون ٣٩٩

لمدينة دمشق أربع بوابات مهيبة...

بوابة المصير، وبوابة الصحراء، وبوابة كهف الكوارث، وبوابة حصن الخوف...

فيا أيتها القافلة، لا تعبري من الأسفل، ولا تغني في أثناء العبور.

هل سمعتم...

ذاك الصمت حيث ماتت الطيور، ومع ذلك هناك شيء يشدو مثل الطائر؟

من قصيدة *Gates of Damascus* للشاعر جيمس إلروي فليكر

المجلد ١

الفصل ١

فيما يتعلق بالكتب

قالت توبينس: "كتب!".

وقد نطقت تلك الكلمة بثورة انفعال تعبر عن مزاج متعكر.

فقال تومي: "ماذا قلت؟".

فنظرت إليه من الناحية الأخرى للغرفة، وقالت: "لقد قلت: "كتب"".

فقال تومي: "أجل، أفهم ما تقصدينه".

كانت هناك ثلاثة صناديق كبيرة موضوعة أمام توبينس، وقد أخرجت منها كتبًا متنوعة، بينما لا يزال الجزء الأكبر منها مملوءًا بالكتب.

فقالت توبينس: "غير معقول".

"تقصدين المساحة التي ستأخذها الكتب، أليس كذلك؟".

"بلى".

"هل تريدين أن تضعيها جميعًا فوق الرفوف؟".

فقالت توبينس: "لا أعرف ما أريده، وهذا هو الغريب في الأمر؛ ألا يعرف المرء على الإطلاق ما الذي يريد القيام به على وجه التحديد!"، ثم تنهدت وأردفت: "يا إلهي!".

فقال لها زوجها: "حقًّا، كنت أظن أن ذلك ليس من صفاتك مطلقًا، فدوما ما كانت مشكلتك هي أنك تعرفين تمامًا ما تريدين فعله".

فقالت توبينس: "ما أعنيه هو أننا نتقدم في العمر قليلًا، حسنًا دعنا نواجه الأمر... نحن نعاني آلام الروماتيزم، وبالتحديد حينما نتمطى لنضع الكتب فوق الرفوف أو ننزل الأشياء من عليها أو عندما ننحني لنبحث عن شيء في الرفوف السفلية، ثم نجد بعض الصعوبة في أن ننهض مرة أخرى".

فقال تومي: "أجل، أجل، وهذا الوصف المسهب لأن كلًّا منا يعاني عجزًا صحيًّا. أليس هذا ما تقصدينه من حديثك؟".

"كلا، لم أقصد ذلك، بل أردت أن أقول إنه من الرائع أننا تمكنا من شراء منزل جديد، ووجدنا المكان الذي أردنا العيش به، والمنزل الذي حلمنا بامتلاكه دائمًا - مع إجراء بعض التعديلات البسيطة به، بالطبع".

فقال تومي: "دمج غرفة مع أخرى، وبناء ما تسمينه شرفة خارجية ويسميها بناؤك فارندة، في حين أنني أفضل أن أطلق عليها بلكونة".

فقالت توبينس في حزم: "وهذا سيكون جميلًا جدًّا".

فقال تومي: "وحينما تنتهين من هذا الأمر، لن أكون مقدرًا إذا أهذا ما تقصدينه؟".

"على الإطلاق، فكل ما أقوله هو أنك حين تراه وقد اكتمل سأسعد وتقول كم أن زوجتك عبقرية وذكية وفنانة".

فقال تومي: "حسنًا، سأتذكر حينها ما ينبغي عليَّ أن أقوله".

فقالت توبينس: "لن تكون بحاجة للتذكرة، ستنطق بالكلام تلقائيًا".

فقال تومي: "لكن ما علاقة هذا بالكتب؟".

"حسنًا، لقد جلبنا معنا بعض صناديق الكتب، بعد أن قمنا ببيع ما لم يرقنا منها، والاحتفاظ بما لم يسعنا الاستغناء عنه، ثم وجدنا أن... لا أتذكر أسماءهم الآن، على أية حال، وجدنا أن الأشخاص الذين باعوا لنا هذا المنزل لا يرغبون في أخذ الكثير من متعلقاتهم، وعرضوا علينا أن يتركوا لنا بعض الأشياء، بما في ذلك كتبهم الخاصة، في حال أردنا شراءها، فأتينا وألقينا نظرة على هذه الأشياء...".

فقال تومي: "وقد اشترينا بعضًا منها".

"أجل؛ لكني أظن أنه ليس بالقدر الذي كانوا يطمحون إليه، فقد كانت بعض قطع الأثاث والحلي الخاصة بهم سيئة للغاية. حسنًا، حمدًا لله أننا لم نضطر إلى شراء هذه الأشياء، لكني حين رأيت الكتب المتنوعة التي يمتلكونها - حيث كان من بينها عدد من كتب الأطفال التي كانت موجودة بالأسفل في غرفة الجلوس - إلى جانب بعض الكتب القديمة المفضلة، وجدت أنه

لا يزال هناك أشياء جيدة نستطيع أن نشتريها، وكان هناك أيضًا بعض الكتب المميزة والمحببة إلى قلبي؛ ولذلك رأيت أن من الرائع أن أقتني هذه الكتب؛ فقد كانت تضم قصة "*أندروكليس والأسد*" للمؤلف أندرو لانج، وأنا أتذكر أنني قرأتها في سن الثامنة".

"أخبريني يا توبينس، هل كنتِ ماهرة بما يكفي للقراءة في سن الثامنة؟".

قالت توبينس: "أجل، بل كنت أقرأ وأنا في سن الخامسة، فحينما كنت صغيرة، كان الجميع يستطيعون القراءة؛ فلم أكن أعرف أحدًا بحاجة إلى التعلم. أعني أن أحد الأشخاص كان يقرأ لنا القصص بصوت عال، وكنت تجد نفسك مغرمًا بها فتظل متذكرًا الرف الذي أعيد إليه الكتاب لترجع إليه فيما بعد، إذ كان يسمح لك دومًا بأخذه وإلقاء نظرة عليه بنفسك، وبذلك تصبح قادرًا أنت الآخر على قراءة الكتاب، دون عناء تعلم الهجاء أو ما شابه، لكني وجدت فيما بعد أن هذا الأمر ليس جيدًا على الإطلاق، لأنني ظللت غير قادرة على التهجي بطريقة صحيحة، فلو كان أحدهم علمني التهجي حينما اقتربت من سن الرابعة، لكان ذلك أمرًا جيدًا بالفعل. لقد علمني أبي بالطبع عمليات الجمع والطرح والضرب؛ لأنه كان يقول إن جدول الضرب هو أكثر الأشياء المفيدة التي يمكن للمرء أن يتعلمها في حياته، وتعلمت كذلك القسمة المطولة".

"كم كان رجلًا ماهرًا!".

فقالت توبينس: "لا أعتقد أنه كان ماهرًا على وجه التحديد، لكنه كان فحسب لطيفًا للغاية".

"ألا ترين أننا انحرفنا عن صلب الموضوع؟".

فقالت توبينس: "بلى! حسنًا، فكما قلت، حينما قررت قراءة قصة "*أندروكليس والأسد*" مرة أخرى كان ذلك في أحد الكتب التي تحوي قصصًا عن الحيوانات، أظن أنه كان أيضًا للمؤلف أندرو لانج... أوه، كم كنت أحب هذا الكتاب، وكان من بين هذه الكتب أيضًا كتاب "*يوم من حياتي في إيتون*" الذي ألفه أحد الطلاب بكلية إيتون. لا أتذكر لماذا أردت أن أقرأ هذا الكتاب، لكني قرأته؛ فقد كان أحد كتبي المفضلة، وكان هناك أيضًا بعض القصص الكلاسيكية، ومؤلفات للكاتبة موليسورث، مثل "*ساعة الوقواق*"، و"*مزرعة الرياح الأربعة*...".

فقال تومي: "حسنًا، هذا جيد، ليست هناك حاجة لأن تعطيني تقريرًا كاملًا عن انتصاراتك الأدبية في فترة الطفولة".

فقالت توبينس: "ما أعنيه هو أنك لا تستطيع أن تحصل على هذه الكتب حاليًا، فأحيانا ما تحصل على طبعات أخرى منها، لكنها دوما ما تكون معدلة وتحوي صورًا مختلفة. فقبل أيام، حينما رأيت قصة "*أليس في بلاد العجائب*" لم أستطع التعرف عليها؛ فكل شيء بها كان يبدو غريبًا للغاية، ومع ذلك هناك كتب استطعت الحصول عليها، مثل مؤلفات الآنسة موليسورث، وبعض الكتب الخيالية القديمة... مثل بينك، وبلو آند يلو...والكثير من الكتب اللاحقة زمنيًا التي استمتعت بها.

إلى جانب العديد من مؤلفات ستانلي ويمانز وما شابه؛ فهناك العديد منها هنا حيث تركها أصحاب المنزل السابقون".

قال تومي: "حسنًا، فوجدت أن العرض المقدم لكي تشتري هذه الكتب مغرٍ للغاية، وشعرت بأنها فرصة سعيدة".

"أجل. على الأقل - ماذا تقصد بـ "فرصة سعيدة"؟".

قال تومي: "أقصد صفقة جيدة".

"أوه، ظننت أنك ستترك الحجرة وتودعني".

فقال تومي: "على الإطلاق، لقد كنت مستمتعًا للغاية بحديثك. على أية حال، لقد *كانت* صفقة جيدة".

"ولقد أتممتها بثمن زهيد، كما أخبرتك، وهكذا أصبحت هذه الكتب جزءًا من كتبنا وغيرها من الكتب الأخرى؛ فالأمر فحسب هو أننا الآن لدينا كم كبير من الكتب، ولا أعتقد أن الرفوف التي صنعناها ستكون كافية. فماذا عن المعتكف الخاص بك؟ هل به مساحة لمزيد من الكتب؟".

قال تومي: "كلا، ليست به أية مساحة، فهو لا يتسع إلا لكتبي فحسب".

فقالت توبينس: "يا إلهي، يا إلهي، دائمًا ما تكون حالنا هكذا. هل تعتقد أننا بحاجة إلى بناء غرفة إضافية؟".

قال تومي: "كلا، نحن سنقتصد في المصروفات، لقد قلنا ذلك أول أمس. هل تتذكرين؟".

قالت توبينس: "هذا كان أول أمس؛ فالوقت يتغير. ما سأفعله الآن هو أنني سأضع فوق تلك الرفوف جميع الكتب التي

لا أستطيع الاستغناء عنها، وبعد ذلك، نستطيع إلقاء نظرة على الكتب الأخرى، وربما وجدنا مستشفى للأطفال أو أحد الأماكن التي ترحب باقتناء الكتب".

قال تومي: "أو بوسعنا بيعها".

"لا أظن أنها من النوع الذي يرغب الناس في شرائه؛ فلا أعتقد أن من بينها كتبًا ذات قيمة نادرة أو ما شابه".

قال تومي: "المرء لا يعرف ما يخفيه له القدر، فدعينا نأمل أن يكون من بينها ما توقفت طباعته، ويكون بعض بائعي الكتب بحاجة إليه".

فقالت توبينس: "حسنًا، في الوقت الحالي، سيكون علينا أن نضع الكتب فوق الرفوف، وننظر بداخلها لنرى إذا ما كانت من بينها كتب أرغب فيها وأستطيع تذكرها حقًا أم لا، فأنا سأحاول إلقاء نظرة سريعة عليها، أي سأجري لها نوعًا من الفرز... أقصد أنني سأضع الكتب ذات النوعية الواحدة معًا، كقصص المغامرات، والقصص الخيالية، وقصص الأطفال وتلك القصص الخاصة بالمدارس التي كان طلابها دائمًا شديدي الثراء... مثل مؤلفات إل تي ميد، كما أعتقد، وبعض الكتب أيضًا التي اعتدنا قراءتها للمؤلفة ديبورا عندما كانت لا تزال في بداية مشوارها الأدبي؛ فكم أحببنا جميعًا قصة "*ويني الدبدوب*" إلى جانب قصة *الدجاجة الرمادية الصغيرة*، لكنني لم أحبها كثيرًا".

فقال تومي: "أعتقد أنك تجهدين نفسك، وأرى أن تكتفي بما فعلته وتكملي فيما بعد".

فقالت توبينس: "حسنًا، ربما سأفعل ذلك، لكن أعتقد أن عليَّ الانتهاء فحسب من هذا الجانب من الحجرة، أريد أن أنقل الكتب هنا...".

فقال تومي: "حسنًا، سأساعدك".

فتقدم نحوها وأمال الصندوق حتى سقطت الكتب خارجه، ثم أخذ منها ملء ذراعيه، وذهب نحو الرفوف ليضعها فوقها.

وقال: "أنا أضع الكتب ذات الحجم الواحد معًا؛ فهي بذلك تبدو أكثر تنظيمًا".

فقالت توبينس: "أوه، لا أرى أن ذلك يعد فرزًا للكتب".

"لكنه يؤدي الغرض حاليًا، فيمكننا فيما بعد أن نجري مزيدًا من الفرز، فلنرتب الكتب هكذا، ثم نأتي لفرزها في إحدى الليالي الممطرة حينما لا يكون لدينا ما نفكر فيه لنفعله".

"المشكلة هي أننا دومًا ما يكون لدينا ما نفكر فيه لنفعله".

"حسنًا، هناك سبعة كتب أخرى، ولم يتبق فحسب إلا هذه الزاوية في الأعلى، فهلا أحضرت لي هذا المقعد الخشبي من هناك! هل هو قوي بما يكفي ليتحملني بينما أقف عليه؟ عندئذ أستطيع أن أضع بعضًا منها على الرف العلوي".

وبقدر من الحذر، صعد تومي على المقعد، ورفعت له توبينس كمية كبيرة من الكتب، ليضعها في الرف العلوي بشيء من الحرص، ولكن عند الثلاثة كتب الأخيرة حدث ما لا يحمد عقباه؛ إذ سقطت الكتب كالشلال على الأرض، وكادت تصيب توبينس إصابة مباشرة.

فقالت توبينس: "أوه، هذا كان مؤلمًا".

"حسنًا، لم تكن بيدي حيلة، فقد أعطيتني كتبًا كثيرة دفعة واحدة".

فقالت توبينس بعد أن اعتدلت قليلًا: "أوه، حسنًا، هذا يبدو رائعًا، والآن إذا وضعت تلك الكتب في الرف الثاني من الأسفل - فهناك مساحة لها - سنكون قد انتهينا من أمر هذا الصندوق الممتلئ، وهو الأمر الجيد؛ إذ إن تلك الكتب التي كنت أرتبها هذا الصباح لم تكن كتبنا، بل كانت تلك التي اشتريناها، فربما نجد بينها كنوزًا".

قال تومي: "ربما".

"أعتقد أننا سنجد بينها كنوزًا، أعتقد حقًا أننا سنجد شيئًا مهمًا وسط هذه الكتب... شيئًا يقدر بأموال كثيرة، ربما".

"وماذا سنفعل بعدئذ؟ هل سنبيع هذه الكنوز؟".

فقالت توبينس: "أجل، أرى أننا سيكون علينا بيعها".

"وبالطبع يمكننا أن نحتفظ بها ونطلع الآخرين عليها، ليس من أجل التباهي، ولكن لنقول لهم فحسب: "أوه، أجل، لقد عثرنا على بعض الكنوز"".

"وأعتقد أيضا أننا لا بد أن نعثر على شيء مثير للاهتمام".

"وما هذا الشيء... هل هو أحد الكتب القديمة المفضلة لديك والتي نسيت أمرها؟".

"ليس هكذا بالضبط؛ لكني أعني شيئًا مذهلًا، ومدهشا، شيئًا يغير حياتنا بأكملها".

فقال تومي : "آه يا توبينس، إن عقلك لمدهش، لكن الأرجح هو أننا سنجد شيئًا كارثيًا بكل معنى الكلمة".

فقالت توبينس: "هذا هراء، فعلى المرء أن يمتلك الأمل، فهو الشيء العظيم الذي عليك أن تملكه في حياتك. الأمل. هل تتذكر؟ فأنا دائمًا مليئة بالأمل".

فقال متنهدًا: "أعلم أنك كذلك، وكثيرًا ما يكون هذا هو لب المشكلة".

الفصل ٢

السهم الأسود

أعادت السيدة توبينس قصة "*ساعة الوقواق*" إلى الرف الثالث من الأسفل، حيث كانت قد اختارت مساحة به لتضم مؤلفات الكاتبة موليسورث، والتي من بينها تلك القصة، لتصبح معًا في ذاك المكان، ثم جذبت قصة "*حجرة الزخارف*"، وأمسكتها بين أصابعها وأخذت تفكر: أتقرؤها أم تقرأ قصة "*مزرعة الرياح الأربعة*"؛ فهي لم تكن تتذكرها بالقدر الذي تتذكر به قصتي "*ساعة الوقواق*" و"*حجرة الزخارف*"، فكانت أصابعها تجول بين الكتب... أوشك تومي على العودة.

لقد كانت تحقق تقدمًا في ترتيب الكتب. أجل، قطعًا كانت تحقق تقدمًا، لو أنها فحسب لم تتوقف وتسحب كتبها القديمة المفضلة لتقرأها. لقد كان ذلك أمرًا مقبولًا لكنه استغرق الكثير من الوقت، فحين سألها تومي في المساء عندما عاد إلى المنزل عن كيفية سير الأمور، قالت له: "إنها تسير على ما يرام الآن"، كان عليها أن تلجأ إلى قدر كبير من اللباقة والحيلة لتمنعه من الصعود إلى الطابق العلوي وإلقاء نظرة فاحصة على ما آلت

إليه حال رفوف الكتب؛ فالأمر برمته استغرق وقتًا طويلًا، فدائمًا ما يستغرق الانتقال إلى منزل جديد وقتًا طويلًا، أطول مما يظنه المرء، فدائمًا ما يكون هناك الكثير من الأشخاص المزعجين، مثل عمال الكهرباء الذين أتوا وبدوا مستائين من العمل الذي أنجزوه آخر مرة حضروا فيها؛ وقد شغلوا مزيدًا من المساحات الكبيرة من الأرضية، وبوجوه مبتهجة، خلفوا مزيدًا من العوائق أمام ربة المنزل الغافلة التي تخطئ في خطواتها وتتعرقل لينقذها في الوقت المناسب كهربائي كان يتلمس طريقه أسفل الأرضية.

فـ توبينس كانت قد قالت لزوجها في حوار سابق بينهما: "أحيانًا أتمنى لو أننا لم نرحل من بارتونز أكر".

فأجابها تومي قائلًا: "هل تتذكرين حجرة الطعام، أتتذكرين الحجرات العلوية، وما حدث للمرآب؛ فقد كاد يسقط ويحطم السيارة، أنت تعلمين ذلك".

فقالت توبينس: "أظن أنه كان من الممكن أن نصلح هذه الأشياء".

قال تومي: "كلا، كان سيتوجب علينا أن نستبدل المبنى المدمر، أو ننتقل منه إلى منزل آخر. سيكون هذا منزلًا جميلًا للغاية في أحد الأيام. إنني على يقين من ذلك، وستكون به مساحة من أجل كل الأشياء التي نريد أن نفعلها".

فكان جواب توبينس هو: "حينما تقول الأشياء التي نريد أن نفعلها، فأنت تقصد الأشياء التي نريد أن نجد لها أماكن لنحتفظ بها".

فقال تومي: "أعلم ذلك، فالمرء يحتفظ بالكثير من الأشياء. أنا أتفق معك للغاية".

في تلك اللحظة كانت توبينس تفكر في شيء ما... فيما إن كانا سيفعلان أي شيء في هذا المنزل بعد الانتقال إليه؛ فالأمر بدا بسيطًا في البداية، ولكن تبين فيما بعد أنه معقد، وبالطبع كانت كل تلك الكتب جزءًا من هذا التعقيد.

فقالت توبينس: "لو كنت طفلة عادية ولطيفة من أطفال هذه الأيام، ما كنت تعلمت القراءة بسهولة كبيرة حينما كنت صغيرة، فلا يبدو على أطفال هذا العصر - ما بين الأربعة أعوام إلى الستة - أنهم سيقدرون على القراءة حينما يبلغون سن العاشرة أو الحادية عشرة. لا أستطيع معرفة السبب الذي جعل أمر تعلم القراءة سهلًا للغاية علينا جميعًا، فكلنا كنا نستطيع القراءة، أنا ومارتن الذي كان يسكن بجوارنا وجنيفر التي كانت تمكث في آخر الشارع وسيريل وينيفرد، كلنا كنا نستطيع ذلك. لا أقصد أننا كلنا كنا قادرين على التهجي بطلاقة، لكننا كنا نستطيع قراءة أي شيء نريده، فلا أعرف كيف تعلمنا، عن طريق سؤال الآخرين، ربما، أو قد يكون ذلك عن طريق الملصقات وأقراص كارتر ليتل بيلز، فقد اعتدنا أن نقرأ كل شيء عنها بين الحقول حين كانت القطارات تقترب من لندن، فقد كان الأمر مثيرًا للغاية، ودائمًا ما كنت أتساءل عن ماهيتهم. يا إلهي، يجب أن أركز فيما أفعل".

فسحبت مزيدًا من الكتب الأخرى، وقد مرت ثلاثة أرباع ساعة وهي مستغرقة أولًا في قراءة قصة *"أليس من خلال*

The Book

المرآة"، ثم كتاب "*غير معروف للتاريخ*" للكاتبة تشارلوت يونج. ثم استقرت يداها على كتاب "*سلسلة زهرة الربيع*".

فقالت توبينس: "آه، يجب أن أقرأ هذا الكتاب مرة أخرى، لأفكر في الأعوام الكثيرة والعديدة التي مرت منذ أن قرأته. يا إلهي! كم كانت أحداثه مثيرة ومدهشة، كنت تتشوق لتعرف ما إذا كان سيسمح لـ نورمان بأن يكون عضوًا كاملًا في دار العبادة أم لا. وإثل و... ماذا كان اسم المكان؟ كوكسويل أو ما شابه... وفلورا التي كانت دنيوية. أتساءل عن السبب في أن الجميع "دنيويون" في تلك الأيام، وكم كانت النظرة إلى ذلك سيئة، أتساءل ماذا نحن الآن، هل تعتقدون أننا جميعا دنيويون أم لا؟".

"أستميحك عذرًا يا سيدتي؟".

فنظرت حولها إلى تابعها المخلص ألبرت الذي كان قد ظهر عند المدخل وقالت: "آه، لا شيء".

"ظننت أنك طلبت شيئًا يا سيدتي. لقد قرعت الجرس، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "ليس بالضبط، لكني اتكأت عليه فحسب بينما كنت أنهض من المقعد لأخرج كتابًا".

"هل هناك أي شيء أستطيع أن أنزله لك؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، ليتك تفعل هذا، إنني أسقط من تلك المقاعد؛ إذ إن بعضًا من أرجلها متأرجحة، وبعضها الآخر زلق قليلا".

"أي كتاب بالضبط؟".

"حسنًا، لم أتوغل كثيرًا في الرف الثالث العلوي، أسفل الرف الأعلى برفين؛ فأنا لا أعلم الكتب الموجودة به".

فصعد ألبرت على أحد المقاعد، وخبط بيده على كل كتاب لينفض عنه الغبار الذي تراكم عليه، ثم أنزل الكتب إلى توبينس التي تسلمتها بقدر كبير من النشوة.

وقالت: "يا إلهي! كل تلك الكتب، لقد نسيت حقًا الكثير منها. أوه، ها هو كتاب *التميمة* وكتاب *ذا بسامياد*، وأيضًا *الباحثون الجدد عن الكنز*. أوه، إنني أحب كل تلك الكتب. كلا، لا تضعها الآن فوق الرفوف يا ألبرت. أعتقد أنني سيكون عليَّ أن أقرأها أولًا، أعني سأقرأ بعضًا منها، ربما. ما هذا؟ دعني أره. إنه كتاب *الشارة الحمراء*، أوه أجل، هذا كان أحد الكتب التاريخية، لقد كان مثيرًا للغاية، وهنا أيضًا كتاب *أسفل الرداء الأحمر*، والكثير من مؤلفات ستانلي ويمان، الكثير والكثير. بالطبع اعتدت أن أقرأ تلك الكتب وأنا في نحو العاشرة أو الحادية عشرة. لا ينبغي أن أكون مندهشة إن لم أصادف كتاب *سجين زندا*"، وتنهدت بسرور بالغ وهي تسترجع الذكريات ثم أردفت: "هذا الأخير كان أول معرفتي بالرواية الرومانسية، رومانسية الأميرة فلافيا، وملك روريتانيا، ورودلف راسندل الذي كنت أحلم به ليلا".

فأنزل ألبرت مجموعة أخرى من الكتب.

فقالت توبينس: "آه أجل، هذه الكتب أفضل حقًا، إلى جانب أنها أسبق في الحقبة التي تعود إليها، فيجب أن أضع الكتب القديمة كلها معًا. دعني أر، ماذا لدينا هنا؟ كتاب *جزيرة الكنز*. حسنًا، إنه كتاب لطيف لكنني بالطبع قرأته كثيرًا، ورأيت، كما

أظن، فيلمين عنه. لا أحب أن أرى هذه القصة أفلامًا؛ لأنها لا تبدو أبدًا مطابقة للقصة، وها هي ذي رواية *اختطاف*. أجل، كنت أحبها دائمًا".

تمطى ألبرت نحو الأعلى، وأفرط في ملء ذراعه، فسقطت رواية *كاتريونا* على رأس توبينس.

"آه، معذرة يا سيدتي. أنا غاية في الأسف".

قالت توبينس: "كل شيء على ما يرام، لا بأس. إنها رواية *كاتريونا*، أجل. هل يوجد بالأعلى المزيد من مؤلفات ستيفنسون؟".

أنزل ألبرت الكتب بمزيد من الحذر الشديد، فأطلقت توبينس صيحة من البهجة المفرطة.

وقالت: "رواية *السهم الأسود*! رواية *السهم الأسود*! إنها إحدى الروايات الأولى التي أمسكت بها وقرأتها. أجل، لا أظن أنك قرأتها من قبل يا ألبرت. أقصد أنك لم تكن قد ولدت حينها، أليس كذلك؟ الآن دعني أفكر، دعني أفكر. رواية *السهم الأسود*، أجل، بالطبع، لقد كانت تلك الصورة المعلقة على الحائط وبها عينان ... عينان حقيقيتان... تنظران من خلال العينين المرسومتين بالصورة. لقد كانت رائعة، ومخيفة للغاية. آه أجل. رواية *السهم الأسود*. عم كانت تتحدث؟ كانت عن... آوه، أجل، *القط، والكلب؟ كلا. القط، والفأر، والكلب لوفيل، فقد كانت سائر إنجلترا تحت حكم الوغد*، وبالطبع كان ريتشارد الثالث هو ذلك الوغد، رغم أن الجميع في هذه الأيام يؤلفون كتبا تقول إنه ليس شريرًا على الإطلاق، لكني لا أصدق

هذا. ولم يصدقه شكسبير أيضًا؛ فقد بدأ مسرحية *ريتشارد الثالث* بأن جعل ريتشارد يقول: "إنني مصرٌ للغاية على إثبات أنني شرير". أوه أجل. *السهم الأسود*".

"هل أنزل مزيدًا من الكتب يا سيدتي؟".

"كلا، شكرًا يا ألبرت. أظن أنني متعبة للغاية ولا أقدر على المواصلة حاليًا".

"حسنًا. بالمناسبة، لقد اتصل سيدي وقال إنه سيتأخر نصف ساعة".

قالت توبينس: "لا بأس".

فجلست على المقعد، وأخذت رواية *السهم الأسود* لتغوص بين صفحاتها.

فقالت: "يا إلهي! كم أن الأمر رائع... لقد نسيت أحداثها بالفعل لدرجة تجعلني أشعر بالمتعة وأنا أقرؤها مرة أخرى، لقد كانت مثيرة للغاية".

حل الصمت، وعاد ألبرت إلى المطبخ، فاتكأت توبينس بظهرها في المقعد، وبدأ الوقت يمر، حيث بحثت - بينما كانت تتوقع في المقعد الرث بعض الشيء - عن بهجة الماضي من خلال قراءتها الدقيقة لرواية *السهم الأسود* لروبرت لويس ستيفنسون.

كان الوقت يمر أيضًا في المطبخ؛ إذ إن ألبرت كان مستغرقا في مناورته المختلفة مع الموقد، لتصل حينها سيارة فيذهب إلى الباب الجانبي.

ويقول: "هل أضع السيارة في المرآب يا سيدي؟".

قال تومي: "كلا، سأتولى أنا هذا الأمر، أعرف أنك مشغول بتحضير العشاء. هل تأخرت كثيرا؟".

"لا يا سيدي، لقد وصلت في التوقيت الذي ذكرته، بل مبكرًا عنه قليلًا في الحقيقة".

أدخل تومي السيارة إلى المرآب ودخل المطبخ وهو يفرك يديه وقال: "الجو بارد بالخارج. أين توبينس؟".

"آه سيدتي، إنها في الطابق العلوي مع الكتب".

"ماذا، هل لا تزال مع تلك الكتب البائسة؟".

"بالفعل، لقد رتبت جزءًا كبيرًا منها اليوم، وأمضت معظم وقتها في القراءة".

فقال تومي: "يا إلهي! حسنًا يا ألبرت. ماذا لدينا على العشاء؟".

"شرائح سمك موسى بالليمون يا سيدي، فلن أستغرق وقتًا طويلًا في طهيها".

"لا بأس، حسنًا، ليكن جاهزا في نحو ربع ساعة أو ما شابه، لأنني أريد أن أغتسل أولا".

في الطابق العلوي، كانت توبينس لا تزال تجلس في المقعد الرث بعض الشيء، منغمسة في قراءة رواية *السهم الأسود*، بينما كانت جبهتها متغضنة قليلًا؛ فقد صادفت ما بدا لها ظاهرة غريبة بعض الشيء، حيث كان هناك ما لا يمكن وصفه إلا كنوع من التشويش؛ فالصفحة التي وصلت إليها، وألقت

عليها نظرة سريعة، أكانت ٦٤ أم ٩٦؟ لم تكن تستطيع أن ترى. على أية حال، بدا أن أحدهم قد وضع خطًا تحت بعض الكلمات الموجودة في الصفحة، فأمضت توبينس آخر ربع ساعة في دراسة هذه الظاهرة، ولم تكن تفهم لماذا وضعت خطوط تحت هذه الكلمات، فهي لم تكن كلمات متتالية، ولم تكن أيضًا اقتباسًا من الكتاب، فبدا أنها كلمات منتقاة موضوع تحتها خط بالحبر الأحمر، فقرأت بصوت خافت: "ماتشام لم يستطع ردع سرخة صغيرة. ديك انتفض في دهشة وانفلتت النافذة من بين أصابعه. كانوا جميعهم يسيرون على أقدامهم، ينتزعون سيفًا وخنجرًا من غمديهما. رفع إليس يده، ولمع بياض عينيه. دعني، كبير..."، هزت توبينس رأسها، فلم يكن هناك معنى لما قرأته، لم يكن لأي منها أى معنى.

فذهبت نحو الطاولة حيث تحتفظ بأشيائها الخاصة بالكتابة، وأخذت بعض الأوراق التي أرسلت للتو من شركة لطابعات مذكرات الأوراق من أجل آل بيريسفورد لتختار الورق الذي سيطبع عليه عنوانها الجديد: ذا لوريلس.

فقالت توبينس: "اسم سخيف، لكن إذا اتبع المرء عادة تغيير اسم منزله طوال الوقت، ستضيع كل رسائله".

فَهَمَّتْ لتدون الكلمات على إحدى الورقات، لكنها أدركت شيئًا لم يرد إلى ذهنها من قبل.

فقالت توبينس: "هذا سيحدث فرقًا كبيرًا".

فقد تتبعت أثر حروف الكلمات التي وُضِعَ تحتها خط بالصفحة.

"إذن أنت هنا"، انطلق صوت تومي فجأة وأردف: "العشاء جاهز. كيف تسير الحال مع الكتب؟".

قالت توبينس: "الأمر محير لدرجة كبيرة، محير بشدة".

"ما المحير؟".

"حسنًا، هذه هي رواية *السهم الأسود* للكاتب ستيفنسون التي أردت أن أقرأها ثانية، وبالفعل كنت قد شرعت في ذلك، وكان كل شيء يسير على ما يرام حتى وجدت شيئًا غريبًا بدأ يظهر في جميع الصفحات، إذ إنني رأيت بها الكثير من الكلمات الموضوع تحتها خط بالحبر الأحمر".

فقال تومي: "آه حسنًا، لا بد أن أحدهم فعل ذلك، لا أعني الحبر الأحمر فحسب، لكني أعني أن أحدهم وضع خطًا تحت هذه الكلمات مثلما يفعل أي شخص يريد أن يتذكر شيئًا، أو يقتبس من شيء. أنت تعلمين ما أقصد".

فقالت توبينس: "أعلم ما تقصده، لكن الأمر مختلف هنا، إنها حروف".

"ماذا تقصدين بحروف؟".

فقالت توبينس: "تعال لترى".

دنا منها تومي وجلس على ذراع المقعد ليقرأ الآتي: "ماتشام لم يستطع ردع صرخة صغيرة وحتى ديك انخلع من مكانه في دهشة وانفلتت النافذة من بين أصابعه... الرجلان الضخمان على - هناك شيء لا أستطيع قراءته... المصادفة كانت إشارة متوقعة. كانوا جميعهم يسيرون على أقدامهم معًا

يزمون، ينتزعون سيفًا وخنجرًا" - ثم أضاف: إنه كلام جنوني لا معنى له".

فقالت توبينس: "أجل، هذا ما فكرت فيه في البداية، لكنه ليس جنونًا يا تومي".

سمعا دقات أجراس قادمة من الطابق السفلي.

فقال تومي: "إنه العشاء... لقد أصبح جاهزًا".

فقالت توبينس: "لا بأس، عليَّ أن أخبرك بهذا الأمر أولًا، وبوسعنا أن نركز على الأشياء المتعلقة به فيما بعد، لكنه حقًا غريب للغاية، فيجب أن أخبرك به في الحال".

"آه، حسنًا. هل هو أحد استكشافاتك العظيمة؟".

"كلا، ليس كذلك، كل ما في الأمر هو أنني دونت حروف الكلمات المخطط أسفلها كما ترى، فاستخرجت حرف الميم من كلمة "ماتشام"، وهي الكلمة الأولى، حيث كان هناك خط تحت حرف الميم وحرف الألف وبعد ذلك كانت هناك، ثلاث أو أربع كلمات أخرى، فهذه الكلمات لا تسير بشكل تتابعي في الكتاب، لكنها انتُقيت، كما أظن، ثم وضع تحتها خط...تحت حروفها...لأن من فعل ذلك يقصد الحروف الصحيحة والحرف التالي، كما ترى، هو حرف الراء من كلمة "ردع" وحرف الياء من كلمة "صغيرة"، وهناك حرف الجيم من "جاك"، وحرف الواو من "يشوط"، والراء من "يدمر"، وحرف الدال من "يدمر" والألف من "الموت" مرة أخرى، والنون من كلمة "طاعون الماشية".

فقال تومي: "بالله عليك، توقفي عن ذلك".

فقالت توبينس: "انتظر، لقد اكتشفت الأمر، فبعد أن دونت تلك الحروف، هل تعرف ماذا أصبحت؟ أعني أنك إذا جمعت تلك الحروف معًا ودونتها بالترتيب في تلك الورقة، هل تعرف ما ستحصل عليه بالحروف التي جمعتها بالبداية؟ م.ا.ر.ي... تلك هي الحروف التي كانت تحتها خط".

"وماذا تعني هذه الحروف؟".

"تعني ماري".

قال تومي: "حسنًا، إنها تعني ماري، شخصية اسمها ماري. أظن أنها طفلة تحاول أن تشير إلى أن هذا الكتاب ملك لها، ففعلت ذلك بطريقة مبتكرة؛ فدائمًا ما يكتب الأشخاص أسماءهم في الكتب وما شابه".

فقالت توبينس: "هذا صحيح، الكلمة الأولى هي ماري، لكن الحروف التالية التي وضعت تحتها خط تكون كلمة ج.و.ر.د.ا.ن".

فقال تومي: "أرأيت؟ ماري جوردان، إن الأمر طبيعي، والآن أنت تعرفين اسمها بالكامل. اسمها ماري جوردان".

"حسنًا، لكن هذا الكتاب لا يخصها؛ ففي البداية كُتب بخط بسيط وطفولي بعض الشيء اسم "ألكسندر"، ألكسندر باركينسون، كما أظن".

"حسنًا. هل هذا يهم حقًا؟".

فقالت توبينس: "بالطبع، يهم".

فقال تومي: "هيا، إنني جائع".

فقالت توبينس: "تحلَّ بالصبر، سأقرأ لك فحسب المقطع التالي حتى تنتهي الكتابة... التي ستتوقف على أية حال في الصفحات الأربع التالية؛ فالحروف منتقاة من أماكن غريبة في صفحات مختلفة، فهي غير متتالية، وليس هناك أي شيء في الكلمات من شأنه أن يثير الانتباه، فيبدو أن الحروف هي التي تعني شيئا، فنحن كونا اسم م.ا.ر.ي.ج.و.ر.د.ا.ن، فلا بأس في ذلك، لكن أما وقد جمعنا هذه الحروف هل تعرف ما هي الكلمات الأربع التالية؟ ل.م ت.م.ت ب.ص.و.ر.ة.ط.ب.ي.ع.ي.ة. هذا يقصد به "طبيعية". والآن تصبح الكلمة، *ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية*، أما الجملة التالية هي: "*إنه واحد منا. أظن أنني أعرفه*" - هذا كل شيء، فلم أجد أية إشارات أخرى، لكنه أمر مثير بعض الشيء، أليس كذلك؟".

قال تومي: "انظري يا توبينس، إنك لن تتخذي خطوات بشأن هذا الأمر، أليس كذلك؟".

"ماذا تقصد بخطوات بشأن هذا الأمر؟".

"حسنًا، أقصد أن تتعاملي معه على أنه قضية غامضة".

فقالت توبينس: "حسنًا، إنها قضية غامضة بالنسبة لي - "*ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية. إنه واحد منا. أظن أنني أعرفه*" - آه يا تومي، يجب أن تعترف بأنه لغز مثير".

الفصل ٣

زيارة إلى المقابر

دلف تومي إلى داخل المنزل مناديًا: "توبينس!".

لكن لم يجب عليه أحد، وبشيء من الضيق، صعد مسرعًا على الدرج ومنه إلى الممر بالطابق الأول، وبينما يتعجل في خطواته، كادت قدمه تسقط في حفرة كبيرة، ما جعله يطلق اللعنات على الفور.

ويقول: "مرة أخرى عامل كهرباء مهمل ولعين".

فقبل أيام كان قد واجه المشكلة ذاتها، حيث وصل عدد من عمال الكهرباء في حالة من التفاؤل والشعور بالكفاءة وشرعوا في العمل قائلين: "إن العمل يمضي قدمًا، ولم يتبق إلا القليل، سنعود عند الظهيرة"، لكنهم لم يعودوا عند الظهيرة؛ لم يكن تومي مندهشًا من ذلك بالتحديد؛ إذ إنه اعتاد النمط الشائع للعمل في مجال البناء، والكهرباء، وفنيي الغاز، وغيرهم؛ فهم يأتون ويظهرون الكفاءة، وينطقون بحديث تفاؤلي، ثم يذهبون ليجلبوا شيئًا، لكنهم لا يعودون، فيحاول المرء أن يتصل بهم

لكن الأرقام دائمًا ما تبدو غير صحيحة، وفي حال كان الرقم صحيحًا، يكون الشخص المطلوب لا يختص في هذه الشعبة من العمل، أيًّا كانت هي، وكل ما يتوجب على المرء فعله هو أن يكون حذرًا من ألا يلتوي كاحله، أو يسقط في حفرة، ويصاب بالضرر بطريقة أو بأخرى؛ فقد كان يخاف على توبينس من أن تلحق الضرر بنفسها أكثر من خوفه على نفسه، فهو يمتلك الخبرة أكثر من توبينس، ويرى أنها أكثر عرضة للخطر الناجم عن الحرق من الغلايات أو الكوارث التي تحدث جراء حرارة الموقد، لكن أين توبينس الآن؟

فنادى عليها مرة أخرى:

"توبينس! توبينس!".

كان قلقًا على توبينس، فهي من النساء اللاتي ينبغي أن تقلق بشأنهن، لكنه في حال غادر المنزل، كان يودعها ببعض الكلمات الحكيمة فتمنحه هي وعودًا بأنها ستفعل بالضبط ما نصحها به: كلا، هي لن تغادر المنزل إلا لشراء نصف رطل من الزبد، وفي النهاية لا يمكن أن نعتبر ذلك خطرًا، أليس كذلك؟

لكن تومي كان قد قال لها من قبل: "قد يكون الأمر خطيرًا إذا كنت *أنت* من ذهبت لشراء نصف رطل من الزبد".

فقالت له توبينس حينئذ: "أوه، لا تكن أحمق".

"لست أحمق، إنني فحسب زوج حكيم وحذر يعتني بشيء من ممتلكاته المفضلة. ولا أعرف لماذا ...".

فقاطعته توبينس قائلة: "لأنني جذابة للغاية، وفائقة الجمال، وخير رفيق، ولأنني أعتني بك كثيرًا".

قال تومي: "ربما يكون لهذه الأسباب أيضًا، لكن بوسعي أن أملي عليك قائمة أخرى من الأسباب".

فقالت توبينس: "لا أعتقد أنها ستروق لي، كلا لا أعتقد ذلك؛ فأنا أظن أنك تراكم بداخلك الكثير من المظالم، لكن لا تقلق، فكل شيء سيكون على ما يرام. ما عليك إلا أن تناديني عندما تدلف إلى داخل المنزل".

لكن أين توبينس؟

فقال تومي: "تلك المحتالة الصغيرة، لا بد أنها ذهبت إلى مكان ما".

فدخل الغرفة بالطابق العلوي حيث كان قد وجدها بها قبل ذلك. لقد افترض أنها تقرأ كتاب أطفال آخر، أو ربما تثيرها مرة أخرى بعض الكلمات التافهة التي قام طفل سخيف بتخطيطها بالحبر الأحمر، على غرار ماري جوردان، أيًّا كانت هويتها، ماري جوردان التي لم تمت بصورة طبيعية. لم يستطع منع نفسه من التساؤل، فمنذ زمن بعيد، من المفترض أن العائلة التي امتلكت هذا المنزل وباعته لهم تحمل اسم آل جونز، وهي لم تمكث به طويلًا، فالأمر لم يتخط الثلاثة أو الأربعة أعوام. كلا، هذا الطفل الذي يخصه كتاب روبرت لويس ستيفنسون يعود إلى ما قبل ذلك بكثير. على أية حال، توبينس لم تكن في هذه الحجرة، ولم يبد أن هناك كتبًا في غير موضعها تظهر أن أحدهم أثير اهتمامه بها.

فقال تومي: "آه، أين يمكن أن تكون بحق السماء؟".

فنزل إلى الطابق السفلي مرة أخرى، ونادى توبينس بضع مرات، فلم يجب أحد عليه، ففحص إحدى الشماعات في الردهة، لكن لم يكن هناك أثر لمعطف توبينس الواقي من المطر. إذن فقد خرجت من المنزل، لكن إلى أين؟ وأين هانيبال؟ فغير تومي من نبرة صوته ونادى هانيبال.

"هانيبال...هانيبال... تعال إليَّ يا هانيبال".

لكن هانيبال لم يكن موجوًدا.

فقال تومي لنفسه: "حسنًا، لقد أخذت هانيبال معها".

لم يكن يعرف إن كان وجود هانيبال معها يجعل الوضع أسوأ أم أفضل، فمن المؤكد أن هانيبال لن يسمح أن يمسها أحد بسوء، لكن السؤال الذي كان يراوده هو هل من الممكن أن يصيب هانيبال الآخرين بضرر؟ فهو عادة ما يكون ودودًا حينما يصطحب في الزيارات، لكن الناس الذين يتمنون زيارة هانيبال، ودخول أي منزل يسكن به، كانوا قطعًا في موضع شك بالنسبة له، فهو مستعد دائمًا أن ينبح ويعض أيضًا إذا لزم الأمر لمواجهة أي خطر. على أية حال، أين ذهب كلاهما؟

سار قليلًا في الشارع، لكنه لم ير على مرمى بصره أي أثر لكلب صغير أسود اللون في رفقة امرأة متوسطة الحجم، ترتدي معطفًا أحمر فاتحًا، وأخيرًا عاد إلى المنزل وهو أكثر غضبًا؛ لكنه حين دلف إلى الداخل قابلته رائحة شهية، فأسرع نحو

المطبخ، فإذا به يجد توبينس عند الموقد حيث التفتت إليه وقابلته بابتسامة ترحيب.

وقالت: "لقد تأخرت كثيرًا، انظر إلى هذا الحساء. إن رائحته شهية، أليس كذلك؟ لقد وضعت به هذه المرة بعض الأشياء غير المألوفة؛ فقد كان هناك بعض الأعشاب في الحديقة، ولو أنني أشك في أنها أعشاب".

فقال تومي: "إذا لم تكن أعشابًا، فأظن أنهم نباتات البلادونا السوداء، أو النباتات العشبية التي تبدو كأنها شيء آخر لكنها في الحقيقة نباتات قفاز الثعلب السامة. أين كنت بحق السماء؟".

"لقد اصطحبت هانيبال في نزهة".

في هذه اللحظة، أعلن هانيبال عن وجوده، إذ اندفع نحو تومي ورحب به بحفاوة كادت تسقطه على الأرض، فلقد كان هانيبال كلبًا صغيرًا أسود اللون وذا شعر براق، تميزه بقع بنية على مؤخرته ووجنتيه، وينحدر من سلالة نقية للغاية تنتمي إلى كلاب الصيد مانشستير، وكان يعتبر نفسه أكثر رقيًا وأرستقراطية من أي كلب قابله.

"آه، يا إلهي، لقد بحثت عنكما في كل مكان، أين كنتما؟ هل كان الطقس لطيفًا بما يكفي للتنزه؟".

"كلا، لم يكن كذلك، لقد كان غائمًا وضبابيًا، آه، إنني أشعر بتعب شديد".

"أين ذهبت؟ هل كنت تتسوقين؟".

"كلا، إنه اليوم الذي تغلق به المتاجر مبكرًا. كلا... كلا، لقد ذهبت إلى المقابر".

فقال تومي: "يا لها من كآبة، ما الذي كنت تريدينه من زيارتك إلى المقابر؟".

"ذهبت لألقي نظرة على بعض الأضرحة".

فقال تومي: "ما زلت أرى الأمر كئيبًا، هل استمتع هانيبال بذلك؟".

"حسنًا، لقد اضطررت أن أربط هانيبال في طوقه؛ إذ كان هناك شخص بدا أنه أحد رجال الدين، وقد ظل يدخل ويخرج من دار العبادة، ورأيت أنه قلق من هانيبال لسبب ما... ولعل هانيبال نفسه لم يطمئن إليه، ولم أحب أن يستبق الناس في الحكم علينا فور وصولنا".

"إذن ما الذي كنت تريدين أن تريه في المقابر؟".

"آه، لأرى من هم الأشخاص المدفونون هناك. لقد وجدت الكثير من الأشخاص، أعني أن المكان كان متخمًا بالكثير من المقابر التي يرجع تاريخها إلى زمن بعيد؛ فهي ترجع إلى عام ١٨٠٠، بل أظن أن هناك بعض المقابر التي تعود إلى أكثر من ذلك، فالشواهد ممحوة لدرجة لا تجعلك تقرأ ما عليها".

"ما زلت لا أفهم السبب الذي جعلك تذهبين إلى المقابر".

فقالت توبينس: "كنت أجري تحرياتي".

"تحريات عن ماذا؟".

"أردت أن أرى إذا ما كان هناك أي شخص من آل جوردان مدفون هناك".

فقال تومي: "يا إلهي، هل ما زلت تفكرين في هذا الأمر؟ هل كنت تبحثين عن...".

"حسنًا، ماري جوردان ماتت، نحن نعلم ذلك، ونعلمه لأن لدينا كتابًا يقول إنها لم تمت بصورة طبيعية، لكن لا بد أن تكون دفنت في أحد الأماكن، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "بلا شك، ما لم تكن مدفونة في هذه الحديقة".

فقالت توبينس: "لا أعتقد ذلك، لأنني أظن أن الأمر مقتصر على هذا الصبي أو الفتاة...لابد أنه صبي، أعتقد ذلك... بالطبع كان صبيًا، فاسمه ألكسندر... وكان ماهرًا بما يكفي لمعرفة أنها لم تمت بصورة طبيعية؛ لكن إن كان هو الشخص الوحيد الذي قرر أنها لم تمت بصورة طبيعية أو اكتشف ذلك... فهذا يعني أنه وحده من يعلم بالأمر، أي أنها ماتت ودفنت ولم يقل أحد...".

فقال تومي مكملا: "لم يقل أحد إن الوفاة كانت مدبرة".

"أجل، شيء من هذا القبيل؛ فالمرء يمكن أن يقتل الآخر بدس السم له أو بضربه فوق رأسه أو بدفعه من فوق منحدر أو بدهسه بالسيارة؛ فهناك الكثير من الطرق التي يمكنني التفكير فيها".

فقال تومي: "أنا على يقين بأن لديك طرقًا كثيرة للقتل، لكن الشيء الوحيد الجيد بشأنك يا توبينس هو أن قلبك طيب، فلا يمكن أن تنفذي تلك الطرق من أجل المرح فحسب ".

"لكن لم يكن هناك أي شخصية تدعى ماري جوردان مدفونة في المقابر، لم يكن هناك أي شخص من عائلة جوردان مدفون هناك".

فقال تومي: "وقد سبب لك هذا نوعًا من الإحباط، هل الشيء الذي تطهينه أصبح جاهزًا، فأنا أتضور جوعا، وأشم رائحته الطيبة".

فقالت توبينس: "بالطبع جاهز، فبمجرد أن تغتسل، سنأكل على الفور".

الفصل ٤

الكثير من آل باركنسون

قالت توبينس وهى تتناول الطعام مع زوجها: "هناك عدد كبير من عائلة باركنسون مدفونون هنا؛ فالمقابر تعود إلى زمن بعيد ومع ذلك فعددهم بها كبير. يوجد منهم كبار السن، والشباب، والأزواج؛ فالمقابر تعج بأفراد هذه العائلة، وتوجد أيضًا عائلات أخرى مثل آل كابس، وآل جريفين، وآل أندروود، وآل أوفروود. من الغريب أن يكون هناك من يحمل أحد الاسمين الأخيرين، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "كان لي صديق يسمى جورج أندروود".

فأجابته توبينس: "أجل، فأنا عرفت أيضًا أشخاصًا يحملون هذا الاسم؛ لكنني لم أقابل أحدًا يدعى أوفروود".

فسألها تومي بشيء من الاهتمام: "الشخص الذي رأيت قبره يحمل هذا الاسم، أكان ذكرًا أم أنثى؟".

" كانت فتاة- حسبما أذكر - وتدعى روز أوفروود".

فقال تومي وهو يستمع إلى وقع الاسم: "روز أوفروود"، ثم أردف: "لا أعتقد أن الاسمين يتماشيان معًا. يجب أن أتصل بعمال الكهرباء بعد الغداء. توخي الحذر يا توبينس، وإلا انزلقت قدماك عند منبسط الدرج بالطابق العلوي".

"وحينها ستتأرجح أسباب وفاتي بين السبب الطبيعي، وغير الطبيعي، فلا بد أن تؤول الوفاة إلى أحد السببين".

فقال تومي: "بل ستؤول إلى الفضول... الفضول الذي يقتل صاحبه".

فسألته توبينس: "ألا تشعر بالفضول مطلقا؟".

"لا أجد سببًا يدفعني لأن أكون فضوليًا. ماذا لدينا من أجل التحلية؟".

"كعكة دبس السكر".

"حسنًا، لا بد أن أعترف يا توبينس بأن الطعام كان لذيذًا".

فقالت توبينس: "يسرني للغاية أنه أعجبك".

"ما هذا الطرد الموجود خارج الباب الخلفي؟ هل هي زجاجات الشراب التي طلبناها؟".

فقالت توبينس: "كلا، إنها شتلات".

فقال تومي: "أوه، شتلات".

فقالت توبينس: "إنها شتلات نبات التيوليب، سأذهب لأستشير إيزاك العجوز بشأنها".

"أين ستزرعينها؟".

"أظن بطول الممر الرئيسي في الحديقة".

"إن إيزاك رجل عجوز ومسكين، ويبدو كأنه سيسقط ميتًا في أية لحظة".

فقالت توبينس: "على الإطلاق، إنه رجل قوي للغاية. أتعلم، لقد اكتشفت أن البستانيين دائمًا ما يكونون كذلك، فإذا كانوا من البستانيين شديدي المهرة، فسيبدون كأنهم في ريعان شبابهم عندما يتجاوزون سن الثمانين، لكنك إذا أحضرت شابًا قويًا وضخمًا في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره ويقول: "لطالما أردت العمل في بستنة الحدائق"، تأكد تمامًا أنه من الأرجح ألا يكون ماهرًا على الإطلاق، فأمثال هؤلاء مستعدون فحسب لتشذيب عدد قليل من الأوراق بين الحين والآخر، وأي شيء تريد أن يفعلوه سيقولون لك دومًا إن التوقيت غير مناسب، وبما أن المرء لا يعرف أبدًا متى يحين الوقت المناسب من العام - وأنا هنا أتحدث عن نفسي - ستجدهم ينتصرون عليك دومًا؛ لكن إيزاك شخص رائع، فهو يعرف كل شيء". ثم أردفت توبينس: "يجب أن يكون هناك أيضًا بعض الزعفران. لا أعرف إذا ما كان موجودًا في الطرد أم لا. حسنًا، سأخرج وألقي نظرة. إن اليوم هو موعد مجيء إيزاك وسوف يخبرني بكل شيء عن هذه الشتلات".

فقال تومي: "حسنًا، سوف ألحق بك في الحال".

قضت توبينس مع إيزاك جلسة ودية؛ فقد أخرجا الشتلات من الطرد، ودارت مناقشات بينهما حول المكان الأنسب لزرعها حتى تتحقق الاستفادة القصوى منها، وتأتي في المقدمة زهور

التيوليب التي تتفتح مبكرًا؛ حيث من المتوقع أن تبهج الأنظار والقلوب في نهاية شهر فبراير، ثم تليها تيوليب الببغاء الأنيق والمهدب، وبعض التيوليب الذي يدعى - وفقًا لطريقة نطق توبينس - *فيريديفلورا*، والذي من المتوقع أن يزدهر بسيقانه الطويلة في شهر مايو وأوائل شهر يونيو، وبما أن لون هذه الزهور هو الأخضر المثير للانتباه، فقد اتفق توبينس وإيزاك على غرزها معا في جزء هادئ من الحديقة، حيث يمكن قطفها وتنسيقها في باقة جميلة توضع في غرفة الجلوس، أو بجانب الممر القصير المؤدي إلى المنزل عبر البوابة الأمامية حيث ستثير الحسد والغيرة في نفوس الزائرين، ولا بد أنها ستزيد الحس الفني لدى التجار الذين يوصلون اللحم وأقفاص الخضراوات.

عند الساعة الرابعة، أعدت توبينس إبريقًا من الشاي المركز بني اللون، ووضعت معه سكرية مليئة بقطع السكر وإلى جانبها إناء الحليب، ثم نادت على إيزاك ليحتسي كوبًا يجدد نشاطه قبل أن يغادر؛ وبعد ذلك ذهبت للبحث عن تومي.

وبينما تفتش عنه حجرة تلو أخرى، قالت توبينس في نفسها: أظن أنه نائم في أحد الأماكن. انفرجت أساريرها عندما رأت رأسًا يطل من الحفرة اللعينة الموجودة بأرضية منبسط الدرج.

وقال لها عامل الكهرباء وهو يطل برأسه من الحفرة: "كل شيء على ما يرام الآن يا سيدتي، لست بحاجة لأن تتوخي الحذر بعد الآن، فقد أصلحت كل شيء"، ثم قال إنه سيستأنف العمل في جزء آخر من المنزل في الصباح التالي.

فقالت توبينس: "أتمنى أن تأتي حقًا"، ثم أردفت: "هل رأيت السيد تومي بيريسفورد في أي مكان؟".

"هل تقصدين زوجك المحترم؟ أجل، أظن أنه في الطابق العلوي حيث كانت تسقط منه بعض الأشياء. تبدو أنها أشياء ثقيلة، فلا بد أنها بعض الكتب كما أظن".

فقالت توبينس: "كتب! أهذا معقول؟".

فعاد عامل الكهرباء إلى عالمه أسفل منبسط الدرج وصعدت توبينس إلى العلية التي تحولت إلى مكتبة إضافية مخصصة لكتب الأطفال.

كان تومي يجلس أعلى سلم ذي درجين، وتحيط به العديد من الكتب الملقاة على الأرض بينما توجد فراغات واضحة في الرفوف.

فقالت توبينس: "إذن فأنت هنا بعد أن كنت تتظاهر بأنك غير مهتم تمامًا لأمر الكتب. أراك تصفحت الكثير منها، أليس كذلك؟ كما أنك بعثرت كثيرًا من الكتب التي كنتُ قد وضعتها على نحو مرتب للغاية".

فقال تومي: "حسنًا، أعتذر عن ذلك، لكني فكرت في إلقاء نظرة عليها".

"هل وجدت أية كتب أخرى بها كلمات وُضع تحتها خط بالحبر الأحمر؟".

"كلا، لا توجد أية كتب بهذا الشكل".

فقالت توبينس: "يا له من أمر مزعج!".

فقال تومي: "لا بد أن من فعل ذلك هو ألكسندر... السيد ألكسندر باركنسون".

فقالت توبينس: "هذا صحيح، لا بد أن يكون أحد آل باركنسون الكثيرين".

فقال تومي: "حسنًا، أظن أنه كان صبيًا كسولًا بعض الشيء، وإن كان، وضع هذه الخطوط أمرًا يثير الضجر قليلا؛ لكن ليس هناك مزيد من المعلومات بشأن ماري جوردان".

"لقد سألت إيزاك عن هذا الأمر؛ فهو يعرف كثيرًا من الناس في هذه الأنحاء، لكنه قال بأنه لا يذكر أية أفراد يحملون هذا الاسم".

فسألها تومي بينما يهبط من السلم: "ما الذي ستفعلينه مع هذا المصباح النحاسي الذي وضعته بجوار الباب الأمامي؟".

قالت توبينس: "سآخذه إلى مزاد المقتنيات المستعملة".

"لماذا؟".

"أوه، لأنه دائمًا ما يسبب متاعب كبيرة. لقد اشتريناه من أحد البلاد الأجنبية، أليس كذلك؟".

"أجل، لا بد أننا لم نكن في وعينا حين اشتريناه؛ فهو لم يَرُقْ لك تماما، وقلت إنك تكرهينه. حسنًا، إنني أتفق معك في الرأي، كما أنه ثقيل جدًا".

"ومع ذلك أبدت الآنسة ساندرسون سعادة بالغة عندما أخبرتها بأنه بوسعها الحصول عليه. لقد عرضت أن تأتي

وتأخذه لكنني قلت لها إنني سأحضره لها بالسيارة، واليوم هو موعد تسليمه".

"سأقوم بتوصيله إذا أردت ذلك".

"كلا، أفضل أن أذهب أنا".

فقال تومي: "حسنًا، ولو أنني أفضل أن أرافقك إلى الخارج حتى أحمله لك داخل السيارة".

قالت توبينس: "أوه، أعتقد أنني سأجد من يحمله لي".

"حسنًا، ربما تجدينه وربما لا. لا داعي لأن تجهدي نفسك".

قالت توبينس: "كما تشاء".

"يبدو أن لديك أسبابًا أخرى تدفعك إلى الذهاب إلى هناك، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، وددت فحسب أن أتحدث قليلًا مع الآخرين".

"لا أعرف مطلقًا ما الذي تخططين لفعله يا توبينس، لكني أعلم النظرة التي تلوح بعينيك حينما تعتزمين فعل شيء معين".

فقالت توبينس: "هلا أخذت هانيبال في جولة؛ فأنا لا أستطيع أن أصحبه معي إلى مزاد المقتنيات المستعملة، فلا أريد أن أدخل في عراك كلاب".

"حسنًا، هل تريد أن تذهب في جولة يا هانيبال؟".

وكعادته دائمًا، سرعان ما رد هانيبال بالإيجاب، فمن المستحيل دائمًا وأبدا أن تخطئ في فهم ردوده سواء أكانت

بالإيجاب أم بالسلب، فقد لوى جسده، وهز ذيله، ورفع إحدى قدميه ثم أنزلها مرة أخرى، وفرك رأسه بشدة بساق تومي.

كأنه يقول: "هذا صحيح، فهذا ما تعيش من أجله يا رفيقي العزيز. سنذهب في نزهة ممتعة ونستنشق الكثير من الروائح، كما أتمنى".

فقال تومي: "هيا، سآخذ حزامك معي، فلا تجر على الطريق كما فعلت في المرة الأخيرة، فحينها كادت تنهي حياتك إحدى المركبات الطويلة والعملاقة".

فنظر إليه هانيبال وقد ارتسم على وجهه تعبير "أنا دائمًا كلب جيد للغاية وأفعل كل ما يقال لي"؛ لكن ذلك غير صحيح، فهو كثيرًا ما ينجح في خداع حتى هؤلاء المقربين منه.

وضع تومي المصباح النحاسي داخل السيارة، مشتكيًا من كونه ثقيلاً للغاية، ثم انطلقت توبينس بالسيارة. وما إن انعطفت نحو الزاوية، حتى ربط تومي الحزام بعنق هانيبال وسار به في الشارع. بعد ذلك انعطف نحو دار العبادة، وحل الحزام الذي حول عنق هانيبال نظرًا لندرة السيارات التي تمر من هذا الطريق. فعبَّر هانيبال عن امتنانه لذلك من خلال النباح واستنشاق العشب الذي كان يزين الرصيف المجاور للحائط، فلو أنه يستطيع أن يتحدث بلغة البشر، لكان قال: "لذيذ! عشب لذيذ للغاية. هناك كلب كبير، أظن أنه ذاك الكلب الوحشي المنحدر من السلالة الفرنسية"، ثم يصدر زمجرة خفيضة ويقول: "لا أحب هذا النوع من الكلاب. إن رأيت مرة أخرى ذاك الذي عضني فسأعضه في الحال. آه! حلو، طيب. ها

هي ذي كلبة صغيرة ولطيفة للغاية، أجل - أجل - أود مقابلتها. أتساءل عما إذا كانت تعيش بعيدًا عن هنا، أظن أنها تسكن هذا المنزل".

فقال تومي: "اخرج من هذه البوابة حالاً، لا تدخل منزلاً غريبًا".

فتظاهر هانيبال بأنه لم يسمعه.

"هانيبال!".

فضاعف هانيبال من سرعته واتجه نحو المنعطف المؤدي إلى المطبخ.

فصرخ تومي به قائلاً: "هانيبال! هل تسمعني؟".

فكان من الواضح أن هانيبال يقول: "أسمعك يا سيدي! هل كنت تناديني؟ أوه نعم، بالطبع".

ترامى إلى مسامع الكلب نباح حاد قادم من داخل المطبخ، فركض نحو تومي، ووقف خلف كعبه ببضعة سنتيمترات.

فقال له تومي: "غلام مطيع".

فقال هانيبال: "نعم، أنا غلام مطيع، وإذا احتجت إليَّ في أية لحظة لأدافع عنك، فأنا هنا على بعد أقل من سنتيمترات".

وصل تومي وهانيبال إلى بوابة جانبية تؤدي إلى فناء دار العبادة، فقد كان هانيبال يمتلك قدرة استثنائية على أن يغير من حجمه وقتما شاء ذلك، فبدلاً من أن يظهر عريض المنكبين بعض الشيء، وربما ممتلئ الجسم قليلاً، كان بوسعه في أية لحظة أن يجعل نفسه أشبه بخيط رفيع أسود؛ فقد ضغط نفسه

ومر عبر قضبان البوابة الحديدية لدار العبادة دون أية صعوبة على الإطلاق.

فنادى عليه: "عد يا هانيبال، ليس مسموحًا لك أن تدخل إلى فناء دار العبادة".

فلو كان لـ هانيبال أن يجيب، لكان رد عليه قائلاً: "إنني بالفعل داخل الفناء يا سيدي". كان هانيبال يركض مبتهجًا في الفناء بروح كلب أطلق سراحه في حديقة جميلة ومزدهرة.

فقال تومي له: "يا لك من كلب مزعج!".

وبعد ذلك فتح البوابة، عابرًا إياها ولاحق هانيبال والحزام بيده، فقد كان هانيبال يقف بالزاوية البعيدة من الفناء، وبدا أن لديه نية قوية لمحاولة التسلل عبر باب دار العبادة الذي كان مفتوحًا جزئيًا، لكن تومي لحق به في الوقت المناسب ووضع أنشوطة الحزام حول عنقه، فنظر هانيبال إليه بلسان حال من كان يتوقع أن يحدث ذلك طيلة الوقت.

ونظر إليه قائلاً: "تضع الحزام بعنقي، أليس كذلك؟ بلى، بالطبع، أعلم أنه يمنحني نوعًا من الهيبة؛ فهو يظهر أنني كلب ذو قيمة غالية"، وبعد ذلك هز ذيله؛ ونظرا لأنه لم يكن هناك من يعترض هانيبال وهو يسير في الفناء مع سيده وأنشوطة الحزام تحيط بعنقه القوي بإحكام، بدأ تومي يتجول في الفناء، متبعًا آثار البحث الذي أجرته توبينس في اليوم السابق.

فألقى نظرة في البداية على نصب حجري رث خلف باب جانبي صغير يؤدي إلى داخل دار العبادة، فقال في نفسه: ربما

يكون أحد أقدم الأشياء الموجودة بالمكان؛ فالمكان كان يحوي العديد من تلك النصب الحجرية التي كان معظمها يحمل تواريخ ترجع إلى عام ١٨٠٠، لكن ظل تومي ينظر إلى واحد من تلك النصب لفترة طويلة.

وقال: "غريب... غريب للغاية".

فرفع هانيبال نظره إلى تومي؛ لم يكن يفهم حديث سيده، فلم ير شيئًا بالضريح يمكنه أن يلفت انتباه كلب. وهكذا جلس، ناظرًا إليه في استفسار.

الفصل ٥

مزاد المقتنيات المستعملة

كانت توبينس مندهشة بسعادة حينما وجدت أن المصباح النحاسي - الذي كانت هي وتومي ينظران إليه باشمئزاز - يلقى مثل هذا الترحيب والحماسة الشديدين.

"إنه للطف منك يا سيدة توبينس أن تحضري إلينا شيئًا جميلاً مثل هذا المصباح. إنه لبديع ولطيف للغاية. أظن أنك اشتريته من الخارج خلال إحدى رحلاتك".

فقالت توبينس: "أجل، اشتريته من مصر".

في هذا الوقت لم تكن توبينس متيقنة تمامًا من اسم البلد الذي اشترت منه هذا المصباح؛ فقد مر على ذلك ثمانية أو عشرة أعوام، فقالت في نفسها إنها ربما اشترته من دمشق، أو من بغداد، أو قد يكون من طهران؛ لكنها رأت أن ذكرها لمصر سيكون أكثر إثارة للاهتمام، خاصة أن اسم مصر كان له وقع أكبر آنذاك، كما أنه يبدو عليه الطابع المصري، وحتى إن كانت

قد اشترته من بلد آخر، فإن تاريخ صنعه يعود إلى فترة كانوا يقلدون بها الصناعة المصرية.

فقالت: "إن حجمه في الواقع كبير جدًا بالنسبة لمنزلنا، لذلك فكرت...".

فقالت الآنسة ليتل: "في الواقع، أعتقد أن علينا عرضه في اليانصيب".

كانت الآنسة ليتل تمسك بزمام الأمور بطريقة أو بأخرى، فكنيتها المحلية كانت "عمدة البلدة"، والسبب الرئيسي في ذلك هو أنها كانت على علم بكل الأشياء التي تحدث في البلدة، أما لقبها فكان على غير مسمى - فهي امرأة ضخمة وعريضة وتدعى دوروثي، لكنهم دائمًا ما ينادونها باسم دوتي.

"أتمنى أن تحضري إلى المزاد يا سيدة توبينس!".

فأكدت لها أنها ستأتي إلى هناك.

ثم قالت من قبيل الهذر: "لا أطيق صبرًا لشراء مقتنيات من المزاد".

"أوه، يسرني للغاية أن يكون هذا هو شعورك".

فقالت توبينس: "أظن أنه شيء جيد للغاية، أقصد فكرة وجود مكان لبيع المقتنيات المستعملة، لأنه... لأنه أمر واقعي للغاية، أليس كذلك؟ أقصد أن ما يعتبره المرء شيئًا مستعملًا، قد يجده الآخر لؤلؤة لا تقدر بثمن".

قالت الآنسة برايس ريدلي، وهي امرأة شديدة النحافة وذات أسنان ضخمة: "آه، في الواقع *علينا* أن نقول ذلك لرجل الدين

الخاص بالقرية؛ فأنا متيقنة من أنه سيكون مهتمًا بالأمر للغاية".

فقالت توبينس وهي ترفع إناءً من نوع خاص: "قد ابتاع، على سبيل المثال، هذا الإناء المصنوع من الورق المعجن".

"حقًا! هل تظنين أن أحدًا سيشتريه؟".

"أنا مستعدة لأن أشتريه حين أحضر إلى هنا غدا، في حال كان معروضًا للبيع".

"لكن في هذه الأيام، يفضل الناس تلك الأواني البلاستيكية الجميلة".

فقالت توبينس: "لست مولعة بالأشياء البلاستيكية؛ فهذا الوعاء المصنوع من الورق المعجن جيد للغاية. أعني أنك إذا وضعت به عدة أشياء من الخزف الصيني، فلن تنكسر، وهناك أيضا فاتحة العلب ذات الطراز القديم، تلك التي لها رأس ثور، ولم يعد المرء يراها في هذه الأيام".

"أوه، لكنها تستلزم جهدًا شاقًا. ألا تعتقدين أن تلك التي تعمل بالكهرباء أفضل منها؟".

لم يدم الحديث طويلًا بهذا الشأن، لتسأل توبينس بعدها عما إذا كانت هناك أية خدمة يمكن أن تسديها لهم.

"آه، عزيزتي توبينس، ربما يمكنك أن ترتبي قاعة عرض التحف؛ فأنا على يقين من أنك تملكين حسًا فنيًا رائعًا".

فقالت توبينس: "في الواقع، لا أملك حسًّا فنيًّا على الإطلاق"، ثم أردفت: "لكني أرحب بالطبع بترتيب القاعة من أجلك، ولك أن تخبريني إذا أخطأت في شيء".

"أوه، من الرائع أن يحصل المرء على مساعدة إضافية. نحن سعداء للغاية بمقابلتك، وأظن أنك حاليًّا مستقرة في منزلك إلى حد بعيد؟".

فقالت توبينس: "كنت أظن أنه من المفترض أن الحال قد استقرت بنا الآن، لكن يبدو أنه لا يزال هناك وقت طويل أمامنا. فالأمر شاق للغاية مع وجود عمال الكهرباء والنجارين والناس الآخرين؛ فهم دائمًا ما ينجزون أعمالهم على عدة مراحل".

نشأ جدال بسيط بين الحاضرين يؤيد مطالب اتحاد عمال الكهرباء والغاز.

فقالت الآنسة ليتل بحزم: "الأسوأ هم عمال الغاز؛ لأنهم، كما تعلمين، يأتون من لور ستامفورد، وهي تبعد بمسافة كبيرة، على عكس عمال الكهرباء الذين يأتون من قرية ويلبنك القريبة من هنا".

تغير مجرى الحديث عند مجيء رجل الدين الخاص بالقرية ليقول بعض الكلمات التشجيعية لمساعديه ويرفع من معنوياتهم، وأعرب أيضًا عن سعادته البالغة لمقابلة السيدة توبينس، كأحد الأبناء الجدد للمجتمع الديني للقرية.

فقال: "نحن نعرف كل شيء عنك وعن زوجك أيضًا. لقد دار عنكما حديث مثير قبل أيام. يا لها من حياة رائعة تلك التي

اعتدتما! أستطيع القول إنه ليس من المفترض أن أخوض بمعاناتكما الخاصة؛ لذا لن أتحدث عنها. أقصد خلال الحرب الأخيرة. يا له من أداء رائع ذلك الذي أظهرتماه أنت وزوجك".

فقالت إحدى السيدات، وهي تطل من القاعة بينما كانت ترتب علب المربى: "أوه، هلا تروي لنا القصة أيها المبجل!".

فقال رجل الدين: "لقد قيل لي الأمر في سرية تامة؛ ولذا لن أبوح بشيء، وأظن أنني رأيتك تتجولين حول فناء دار العبادة بالأمس، يا سيدة توبينس".

فقالت توبينس: "أجل، لقد تفحصت مظهر دار العبادة بالبداية، ورأيت أن بها بعض النوافذ الجذابة للغاية".

"أجل، أجل، فالنوافذ ترجع إلى القرن الرابع عشر... تلك التي توجد بالممر الشمالي، لكن معظم هذه النوافذ تعود بالطبع إلى العصر الفيكتوري".

فقالت توبينس: "بينما كنت أتجول حول فناء دار العبادة، بدا لي أنه يوجد عدد كبير من آل باركنسون مدفونين هناك".

"أجل، هذا صحيح. فقد كان عدد كبير من آل باركنسون يقطنون هذه المنطقة، إلا أنني بالطبع لا أتذكر أيًّا منهم بشكل شخصي، لكن أظن أنك تتذكرين بعضًا منهم يا سيدة أبتون".

فبدت السعادة على وجه السيدة أبتون، وهي امرأة متقدمة في العمر تتكئ على عصوين.

فقالت: "أجل، أجل، أتذكر حينما كانت السيدة باركنسون على قيد الحياة... تلك *السيدة* العجوز التي كانت تقيم في مانور هاوس، لقد كانت سيدة رائعة، رائعة للغاية".

"وكان هناك أيضًا بعض من آل سومر، وآل شاترتون".

"آه، أرى أنك على معرفة جيدة بجغرافية هذا المكان منذ زمن بعيد".

"أظن أنني سمعت عن فتاة تدعى جوردان... آني أو ماري جوردان، أليس كذلك؟".

نظرت توبينس حولها في استفسار، لكن بدا لها أن اسم جوردان لم يُثر أي اهتمام.

"كان لدى أحدهم طاهية تدعى جوردان، وأظن أنها كانت تعمل لدى السيدة بلاكويل، وكان اسمها سوزان جوردان، لكنها لم تمكث إلا ستة أشهر كما أظن. لا بد أنها لم تكن تقوم بمهامها على نحو مرضٍ".

"هل كان ذلك منذ زمن بعيد؟".

"أوه، كلا. أظن أنه لم يمر على الأمر أكثر من حوالي ثمانية أو عشرة أعوام".

"هل لا يزال أحد من آل باركنسون يعيش هنا حاليًا؟".

"أوه، كلا. لقد رحلوا جميعًا منذ فترة طويلة. أظن أن أحدهم تزوج من ابنة عمه الأولى وذهب ليعيش في كينيا".

فقالت توبينس وقد نجحت في أن تلفت إليها انتباه السيدة أبتون، التي كانت تعلم أنها على صلة بمستشفى الأطفال المحلي:

"أتساءل إن كنت ترغبين في الحصول على كتب أطفال إضافية؛ فجميعها كتب قديمة، حيث حصلت عليها عندما عرضنا شراء بعض من الأثاث الذي عرضه ملاك منزلنا السابقون للبيع".

"حسنًا، لا شك أن هذا لطف كبير منك يا سيدة توبينس، لكننا نحصل بالطبع كما تعلمين على بعض من الكتب الجيدة للغاية، وعادة ما تكون إصدارات خاصة تتناسب مع أطفال هذا العصر؛ فالمرء منا يشعر بالشفقة من أن يكون على الأطفال قراءة كل تلك الكتب القديمة".

فقالت توبينس: "أوه، هل هذا رأيك، إنني كنت أحب الكتب التي كنت أقتنيها وأنا طفلة، فبعضها كان يخص جدتي وهي صغيرة. أظن أنني أحببتها عن أية كتب أخرى؛ فلم أنس مطلقًا قراءتي قصة *جزيرة الكنز*، وقصة *مزرعة الرياح الأربعة* للكاتبة موليسورث، وبعضًا من مؤلفات ستانلي ويمانز".

فنظرت حولها في شيء من الاستفسار - وفي النهاية صاحت عندما نظرت إلى ساعة يدها، ووجدت أن الوقت قد تأخر فاستأذنت بالرحيل.

٢

عادت توبينس إلى المنزل ووضعت السيارة في المرآب، ثم انعطفت نحو الباب الأمامي، ووجدته مفتوحًا، فدخلت منه، وفي ذلك الحين أتى ألبرت من خلف المنزل وانحنى تحية لها.

وقال: "هل تودين احتساء بعض الشاي يا سيدتي؟ لا بد أنك تشعرين بالإرهاق الشديد".

فقالت توبينس: "لا أظن ذلك، لقد احتسيت الشاي بجمعية المقتنيات المستعملة، كما أنهم قدموا لي كعكًا شهي المذاق، لكن الكعك المحلى كان سيئًا للغاية".

"إن الكعك المحلى صعب في إعداده؛ فهو يعادل دائمًا صعوبة صنع الكعك المقلي"، ثم تنهد قائلاً: "آه، كانت إيمي دائمًا ما تعد كعكًا مقليًا حلو المذاق".

فقالت توبينس: "أعلم ذلك، فلم يكن هناك مثيل لكعكها".

إيمي كانت زوجة ألبرت، وقد توفيت منذ بضعة أعوام، وكانت توبينس ترى أن إيمي كانت تجيد إعداد كعكة دبس السكر، لكنها لم تكن قط تصنع كعكًا مقليًا ذا مذاق شهي.

فقالت توبينس: "أعتقد أن صنع الكعك المقلي صعب جدًا، فأنا لم أتمكن قط من إجادة إعداده".

"حسنًا، إنها موهبة".

"أين السيد تومي، هل هو بالخارج؟".

"كلا، إنه بالطابق العلوي، في تلك الحجرة التي تسمى حجرة الكتب، أو أيًا ما كان الاسم الذي تودين إطلاقه عليها. فأنا لا أزال أرى أنها العلية".

فقالت توبينس بشيء من الدهشة: "ما الذي يفعله هناك؟".

"حسنًا، أظن أنه لا يزال يلقي نظرة على الكتب. أعتقد أنه ينتهي من ترتيبها - إذا جاز القول".

فقالت توبينس: "لا أزال مندهشة جدًا من تصرفه هذا، فلقد كان فظًا معنا بشأن هذه الكتب".

فقال ألبرت: "حسنًا، هكذا هم الرجال النبلاء، أليس كذلك؟ إنهم يعشقون الكتب الكبيرة، ويفضلون الكتب العلمية التي يمكنهم الاستغراق بها".

فقالت توبينس: "سأصعد إليه وأرى ماذا يفعل، أين هانيبال؟".

"أظن أنه مع سيدي بالطابق العلوي".

في تلك اللحظة ظهر هانيبال، وبعد أن نبح بضراوة وشراسة يظنها ضرورية لكلب حراسة ماهر، أدرك أنها سيدته العزيزة التي عادت إلى المنزل وليس شخصًا أتى لسرقة ملاعق الشاي الصغيرة أو للهجوم على سيده وسيدته؛ فهبط الدرج وهو يتلوى بجسمه ويهز ذيله، ويتدلى لسانه الوردي من فمه.

فقالت توبينس: "آه، هل أنت سعيد لرؤية سيدتك؟".

فقال هانيبال إنه في قمة سعادته لرؤية سيدته؛ إذ إنه قفز عليها بقوة كادت تطرحها أرضًا.

فقالت توبينس: "برفق، برفق يا هانيبال، أنت لا ترغب في قتلي، أليس كذلك؟".

فأظهر هانيبال أن الشيء الوحيد الذي يرغب فيه هو أكلها لأنه يحبها كثيرًا.

"أين سيدك؟ أين سيدك؟ أهو بالطابق العلوي؟".

أدرك هانيبال حديث توبينس، فسبقها إلى درجات السلم، والتفت نحوها منتظرًا إياها لتنضم إليه.

وحينما دخلت غرفة الكتب وهي تلهث بعض الشيء، قالت توبينس: "حسنًا، إنك دائمًا تفاجئني"، فقد وجدت تومي يقف منفرج الساقين فوق سلم قصير بينما ينزل الكتب ويرفعها، فقالت له: "ماذا تفعل؟ كنت أظن أنك أخذت هانيبال في نزهة".

فقال تومي: "لقد ذهبنا بالفعل في نزهة، ذهبنا إلى فناء دار العبادة".

"لماذا أخذت هانيبال إلى فناء دار العبادة؟ أنا على يقين أنهم لا يحبون الكلاب هناك".

فقال تومي: "لقد كنت أربطه في حزامه، وعلى أية حال لم أكن أنا الذي أخذته إلى هناك، بل كان باديًا أن الفناء راقه".

فقالت توبينس: "أرجو ألا يعتاد ذلك؛ فأنت تعلم أن هانيبال من الكلاب التي تحب الروتين دائمًا، فإذا اعتاد أن يذهب إلى فناء دار العبادة كل يوم، فسيكون الأمر صعبًا للغاية بالنسبة لنا".

فقال تومي: "لقد كان ذكيًا للغاية فيما يتعلق بالأمر برمته".

فقالت توبينس: "عندما تقول ذكيًا، تقصد أنه عنيد".

فاستدار هانيبال وتقدم نحو توبينس وفرك أنفه في ربلة ساقها.

فقال تومي: "إنه يخبرك بأنه كلب ذكي للغاية، بل أذكى مني ومنك حتى الآن".

فسألته توبينس: "وماذا تقصد بذلك؟".

فسألها تومي مغيرًا مجرى الحديث: "هل استمتعت بوقتك؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، ما كنت لأصف الأمر على هذا النحو".

"كان الناس ودودين ولطافًا معي جدًا، وأرى أنني سرعان ما سأتوقف عن الخلط بينهم كثيرًا كما أفعل حاليًا؛ فالأمر شديد الصعوبة في بدايته كما تعلم؛ إذ إن الناس يشبهون كثيرا بعضهم البعض ويرتدون النوع ذاته من الملابس فلا تعرف في البداية من هذا ومن ذاك. أقصد أنك لا تفرق بينهم إلا إذا كان أحدهم شديد الجمال والآخر غاية في القبح، وهذا لا يحدث على نحو ملحوظ في الريف، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "كنت أقول لك إنني وهانيبال كنا ذكيين جدًا".

"أظن أنك قلت إن هانيبال هو الذي كان ذكيًا".

فمد تومي يده وأخذ أحد الكتب الموجودة في الرف المواجه له.

وبعد ذلك قال: "*المخطوف*، آه أجل، إنها رواية أخرى للكاتب روبرت لويس ستيفنسون، فلا بد أن أحدهم كان مولعًا بأعمال هذا الكاتب، فنحن لدينا في المكتبة رواية *السهم الأسود*، و*المخطوف*، و*كاتريونا*، وأظن أن له هنا روايتين آخريين أيضًا، ولقد حصل ألكسندر باركنسون على هذه الروايات من جدته

العزيزة، في حين أنه حصل على رواية واحدة من إحدى عماته الكريمات".

فقالت توبينس: "حسنًا، وماذا عن ذلك؟".

فقال تومي: "ولقد وجدت قبره".

"وجدت ماذا؟".

"حسنًا، هانيبال هو من وجده؛ إنه في الزاوية المقابلة لأحد الأبواب الصغيرة المؤدية إلى داخل دار العبادة، أظن أنه الباب الآخر المؤدي إلى صحن الدار أو ما شابه. الكلام المنقوش على شاهد القبر غير واضح ويكاد يكون ممحوًا، ورغم ذلك تمكنت بصعوبة من قراءته عندما أبعدت هانيبال عنه بينما كان يتشمم المكان. اسمه ألكسندر ريتشارد باركنسون، وتوفي في الأربعين من عمره".

فقالت توبينس: "الأربعون، يا له من شاب مسكين".

فقال تومي: "أجل، إن الأمر محزن و...".

فقالت توبينس: "هناك شيء يجول بذهنك ولا أفهمه".

"حسنًا، كنت أتساءل... أظن يا توبينس أنك نقلت العدوى لي، وهذا أسوأ ما بك. فعندما تتحمسين لشيء، لا تتابعينه وحدك، بل تجعلين شخصًا آخر ينغمس به أيضًا".

فقالت توبينس: "لا أدري ماذا تقصد".

"كنت أتساءل عما إذا كانت المسألة عبارة عن سبب ونتيجة".

فقالت توبينس: "ماذا تقصد يا تومي؟".

"كنت أتساءل عن ألكسندر باركنسون الذي واجه الكثير من المشكلات، رغم أنه بلا شك كان مستمتعًا بما يفعله، وبالشفرة التي اخترعها عن طريق رسالة سرية في أحد الكتب تقول: "*ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية*"، فإن افترضنا أن ذلك حقيقي، وأن ماري جوردان - أيًا من كانت هي - لم تكن وفاتها طبيعية، ألا ترين حينها أن الشيء التالي الذي حدث من الأرجح أن تكون وفاة ألكسندر باركنسون هي الأخرى...".

"أنت لا تعني أن ...أتظن أن...".

فقال تومي: "حسنًا، كنت أتساءل، جعلني ذلك أتساءل... لقد توفي في سن الأربعين، ولم يذكر سبب وفاته. أظن أن ذلك لا يدون على شواهد القبور، فكل ما كان منقوشًا هو جملة تقول: *في حضورك يكتمل الفرح*. لكن... ربما لم يذكر سبب الوفاة لأن ألكسندر علم بشيء خطير عن شخص آخر، ومن ثم... ومن ثم مات".

فقالت توبينس: "هل تقصد أنه قُتل؟ إنه مجرد خيالك وحسب".

"أنت من بدأت الأمر. تخيل الأمور، أو التساؤل عن الأشياء، إنه الشيء ذاته، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أظن أننا سنستمر في التساؤل".

"ولن نكون قادرين على اكتشاف أي شيء؛ لأن الأمر برمته وقع منذ سنوات طويلة".

فنظر أحدهما إلى الآخر.

وقال تومي: "وقع الأمر بالتزامن تقريبًا مع تحقيقنا في قضية جين فين".

فنظر كل منهما إلى الآخر ثانية؛ وعادت أذهانهما إلى الماضي.

الفصل ٦

مشكلات

كثيرًا ما يظن الناس أن الانتقال إلى منزل جديد هو تمرين لطيف سيستمتع به المنتقلون إلى هذا المنزل، لكن الأمر يخالف دائمًا التوقعات.

فلا بد أن يعاد فتح العلاقات أو تسويتها مع عمال الكهرباء، والبنائين، والنجارين، وعمال الطلاء، ولاصقي ورق الحائط، إلى جانب أصحاب محلات الثلاجات، ومواقد الغاز، والأجهزة الكهربائية، وكذلك عمال التنجيد، وصانعي الستائر، ومعلقي الستائر، ولاصقي مشمع الأرضيات، وموردي السجاجيد، فلا تكون لكل يوم مهمته المحددة فحسب، بل دائمًا ما تكون هناك من أربع إلى اثنتى عشرة زيارة إضافية تتراوح بين الزيارات المنتظرة منذ فترة طويلة وتلك التي طواها النسيان.

غير أن توبينس كانت أحيانًا تعلن وهي تتنفس الصعداء عن انتهائها من مهام متنوعة في مجالات مختلفة.

فتقول: "أعتقد حقًا أن مطبخنا أصبح حاليًا شبه مكتمل، بقي فحسب أن أجد الوعاء المناسب لحفظ الطحين".

فيجيبها تومي: "أوه، أهو أمر مهم لهذه الدرجة؟".

"حسنًا، إنه مهم للغاية. ما أقصده هو أننا كثيرًا ما نشتري الطحين في أكياس تزن ثلاثة أرطال، ومن ثم لن يتسع له هذه الأنواع من الأوعية، إذ إن جميعها صغيرة الحجم، كما أن أحدهما به زهرة جميلة والآخر يحوي زهرة لدوار الشمس وهما لا يتسعان لأكثر من رطل، إلى جانب أنهما غير عمليين".

وبين الحين والآخر كانت توبينس تبدي ملاحظات أخرى.

فتقول: "ذا لوريلس (نبات الغار)، أظن أنه اسم سخيف لمنزل، فلا أفهم السبب في أنه سمي بهذا الاسم، فأنا لا أرى به حتى أية نباتات غار، فقد كان من الأفضل أن يطلقوا عليه اسم الأشجار، فهو اسم لطيف للغاية".

فيقول تومي: "قبل ذلك كان المنزل يسمى لونج سكوفيلد، هكذا علمت".

فقالت توبينس: "وهذا الاسم أيضًا لا يبدو أنه يعني أي شيء".

وأردفت: "ما هو سكوفيلد، ومن الذي كان يعيش به آنذاك؟".

"أظن أنهم آل وادينجتون".

فقالت توبينس: "إنني مشوشة الذهن، هناك آل وادينجتون، وبعد ذلك آل جونز، ثم الأشخاص الذين باعوا لنا المنزل، وقبل ذلك كان هناك آل بلاك مور، وأظن أن آل باركنسون كانوا

يسكنون هذا المنزل في يوم من الأيام، أو بالأحرى، الكثير من آل باركنسون؛ فأنا دائمًا ما أصطدم بالمزيد منهم".

"ماذا تقصدين بالمزيد منهم؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، أظن أن هذا ما أتساءل عنه دائمًا، أقصد أنني إذا استطعت أن أعثر على معلومات أكثر تخص آل باركنسون، فسيكون بوسعنا التعامل مع... مع مشكلتنا".

"هذا ما يطلقه الناس على كل شيء في هذه الأيام. تقصدين مشكلة ماري جوردان، أليس كذلك؟".

"حسنًا، الأمر لا يتعلق بها فحسب؛ فهناك مشكلة آل باركنسون ومشكلة ماري جوردان، ولا بد أن هناك الكثير من المشكلات الأخرى. إن وفاة ماري جوردان لم تكن طبيعية، والجملة الأخرى التي أفادت بها الرسالة هي "أنه كان واحدًا منا"، ومن ثم هل يعني ذلك أن الشخص المقصود هنا هو أحد عائلة باركنسون أم أنه يعني فحسب أحد الذين كانوا يسكنون هذا المنزل؟ لنقل إنه كان يسكن هذا المنزل فردان أو ثلاثة أفراد من آل باركنسون، إلى جانب بعض كبار السن من العائلة، وكذلك العمات أو أولاد وبنات العم الذين يحملون أسماء مختلفة، كما أفترض أن العائلة كان لها خادمة لشئون المنزل وخادمة استقبال وطاهية وربما مربية، أو - حسنًا، لا أظن أن *الجليسة* كانت وظيفة متعارفًا عليها في ذلك الزمان - لكن لابد وأن جملة "واحد منا" تعني أحد سكان المنزل؛ فآنذاك كان عدد الأسرة أكبر من الآن. حسنًا، قد تكون ماري جوردان هي الخادمة أو خادمة الاستقبال أو حتى الطاهية، وما الدافع الذي

جعل الفاعل يرغب في قتلها؟ أعني أنه لا بد أن أحدهم أرداها قتيلة، وإلا ما كانت وفاتها غير طبيعية، أليس كذلك؟ سأذهب في صباح بعد غد لتناول القهوة مع أحد الجيران".

"يبدو أنك ستقومين دائمًا بمثل هذه الزيارات".

"حسنًا، إنها طريقة رائعة للغاية ليتعرف المرء على جيرانه وكل سكان قريته. وعلى أية حال، فهذه القرية ليست بالكبيرة، ودائمًا ما يتحدث الناس بها عن عماتهم المسنات أو عن الأشخاص الذين تربطهم بهم صلة ما، فينبغي أن أبدأ بالسيدة جريفين، التي تبدو بوضوح أنها شخصية ذات مكانة بارزة بين الجيران، كانت تحكم الجميع بقبضة حديدية؛ فقد كانت تتنمر على زوج الدين وعلى الطبيب وأظن أنها أيضًا كانت تتنمر على ممرضة المقاطعة وجميع من يسكن القرية".

"أليس من الممكن أن تفيدك الممرضة في هذا الأمر؟".

"لا أظن ذلك، لأنها ماتت. أقصد أن الممرضة التي عاصرت عائلة باركنسون قضت نحبها، والممرضة الحالية لم يمر على وجودها هنا فترة طويلة. كما أنها لا تبدي اهتمامًا بالمكان، حتى إنني لا أظن أنها تعرف شخصًا اسمه باركنسون".

قال تومي في يأس: "تمنيت، أوه كم تمنيت لو أننا ننسى أمر *كل* آل باركنسون".

"هل تقصد أنه حينها لن تكون لدينا مشكلة؟".

فقال تومي: "آه يا عزيزتي، مشكلات مرة أخرى".

فقالت توبينس: "إنها بياترس".

"ماذا عن بياترس؟".

"بياترس هي التي كانت تستخدم هذه الكلمة لوصف الأشياء. في الواقع، كانت إليزابيث هي من بدأت ذلك، وهي خادمة التنظيف التي كانت تعمل لدينا قبل بياترس. لقد كانت دائمًا تأتي لي وتقول: "أوه سيدتي، هل لي أن أتحدث معك لبرهة؟ لديَّ مشكلة"، وبعد ذلك، بدأت بياترس تأتي في أيام الخميس ولا بد أنها التقطت هذه الكلمة منها كما أظن، ومن ثم أصبحت أيضًا لديها مشكلات. إنها طريقة فحسب لقول شيء ما، لكن المرء دائمًا ما يصفها بالمشكلة".

قال تومي: "حسنًا، دعينا نعترف بأنه توجد بالفعل مشكلة. أنت لديك مشكلة... وأنا لديَّ مشكلة - كلانا لديه مشكلات".

ثم تنهد وغادر المكان.

وببطء هبطت توبينس الدرج، وهي تهز رأسها، فصعد هانيبال إليها في حالة من البهجة، وهو يهز ذيله ويتلوى آملًا أن تتفضل عليه بنزهة.

فقالت توبينس: "كلا يا هانيبال، حصلت على نزهتك، لقد حصلت على نزهتك الصباحية".

فألمح هانيبال إلى أنها مخطئة تمامًا، وأنه لم يحصل على نزهته.

فقالت توبينس له: "أنت أحد أسوأ الكلاب الكاذبين الذين عرفتهم في حياتي، لقد ذهبت في نزهة برفقة سيدك تومي".

lilas.com/bh3

فحاول هانيبال مرة أخرى، ساعيًا أن يظهر بشتى الطرق أن أي كلب يمكن أن يحصل على نزهة ثانية في حال كان صاحبه يرى الأمور في هذا السياق؛ ولكن بعد أن شعر بخيبة الأمل في مسعاه هذا، هبط درجات السلم وبدأ ينبح عاليًا ويبذل قصارى جهده ليتظاهر بأنه على وشك أن يباغت الفتاة ذات الشعر الأشعث بعضة شرسة، وهي تمسك بالمكنسة الكهربائية التي لم يكن يحبها، ثم احتج على توبينس بينما كانت تدير حديثًا مطولًا مع بياترس.

فقالت بياترس: "أوه، لا تدعيه يعضني يا سيدتي".

فقالت توبينس: "لن يعضك، إنه يتظاهر بذلك فحسب".

فقالت بياترس: "حسنًا، أظن أنه سيعضني بالفعل ذات يوم، بالمناسبة يا سيدتي، أتساءل إذا كان بوسعي أن أتحدث إليك قليلا".

فقالت توبينس: "أوه، تعنين أنك...".

"حسنًا، إنني أواجه مشكلة يا سيدتي".

فقالت توبينس: "كنت أعلم أنك ستقولين ذلك، ما نوع هذه المشكلة؟ بالمناسبة، هل تعرفين إذا كان هناك أية عائلة أو أي فرد كان يعيش هنا في يوم من الأيام ويدعى جوردان؟".

"جوردان. حسنًا، لا أستطيع الجزم بذلك، لكن كان يوجد بالطبع عائلة تدعى جونسون، وكان هناك... أو، أجل، كان هناك شرطي يدعى جونسون، وكذلك أحد سعاة البريد كان يدعى جورج جونسون"، ثم ضحكت وقالت: "لقد كان صديقًا لي".

"ألم تسمعي من قبل عن ماري جوردان؟".

بدت بياترس مرتبكة بعض الشيء - فهزت رأسها ثم قلبت دفة الحوار وعاودت الحديث عن طلبها السابق.

فقالت: "ماذا عن مشكلتي يا سيدتي؟".

"آه أجل، مشكلتك".

"أستميحك عذرًا يا سيدتي على سؤالي لك، لكنني في موقف محرج، وأنا لا أود...".

فقالت توبينس: "حسنًا، هلا أخبرتني سريعًا بالأمر، فأنا اليوم سأتناول القهوة بالخارج".

"أوه، أجل. عند السيدة باربر، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "هذا صحيح، ما مشكلتك؟".

"حسنًا، إن الأمر يتعلق بمعطف.. معطف لم أر في جماله مثيلًا، وجدته معروضًا في متجر سيموند، فذهبت لأقيسه وبدا عليَّ مدهشًا للغاية، لكن بالجزء الأسفل منه كانت هناك بقعة صغيرة قرب الحاشية، ومع ذلك بدا لي أن الأمر لا يهم كثيرًا، وبالتالي، حسنًا، أدركت...آه...".

فقالت توبينس: "أجل، أدركت ماذا؟".

"أدركت السبب في أن ثمنه كان رخيصًا للغاية، وهكذا اشتريته، وحتى تلك اللحظة كانت الأمور تسير على ما يرام؛ لكنني حين عدت إلى البيت اكتشفت أن هناك بطاقة معلقة بالمعطف تشير إلى أن ثمنه ٦ جنيهات وليس ٣,٧ جنيه، ولم أكن أود أن يسير الأمر على هذا النحو، وكذلك لم أكن أعرف

ما يجب عليَّ أن أفعله، فعدت إلى المحل ومعي المعطف؛ إذ إنني رأيت أنه من الأفضل أن آخذه معي وأشرح سوء الفهم الذي حدث، لأنني لم أقصد أن أدفع ثمنًا أقل من ثمنه الحقيقي، فما كان من الفتاة التي باعته لي - وهي فتاة شديدة الجمال وتدعى جلاديس، أجل، لا أعرف اسمها الثاني - لكن على أية حال، ما كان منها إلا أن غضبت بشدة حينما علمت بالأمر، فقلت لها: "حسنًا، ليست هناك مشكلة، سأدفع فرق الثمن"، فقالت لي: "كلا، ليس بوسعك أن تفعلي ذلك لأن الأموال تم توريدها"، هل تفهمين ما أقصده يا سيدتي؟".

فقالت توبينس: "أجل، أظن أنني أفهم ما تقصدينه".

وهكذا قالت: "أوه، ليس بوسعك أن تفعلي ذلك؛ لأنه *سيسبب* لي مشكلة".

"وما المشكلة؟".

"حسنًا، هذا ما شعرت به حينها... أقصد أن الأمر فحسب هو أنني اشتريت معطفًا بأقل من ثمنه الحقيقي ثم أعدته، فلم أفهم لماذا *يعرضها* ذلك للوقوع في مشكلات؛ لكنها قالت إنه في حال حدث هذا النوع من الإغفال وإذا لم تكتشف الثمن الحقيقي للشيء في توه وباعته بالثمن الخطأ، فهي معرضة للفصل من العمل".

فقالت توبينس: "أوه، لا أظن أنه قد يحدث ذلك، أرى أنك كنت على حق، ولا أجد ما يمكن أن تفعليه أكثر من ذلك".

"حسنًا، لكن هذا ما حدث. كما أنها احتدت عليَّ وبدأت تصرخ في وجهي، لذلك أخذت المعطف ورحلت، وأنا حاليًا لا أعرف إذا ما كنت قد خدعت المحل أم لا ... و لا أعرف ماذا يجب أن أفعل".

فقالت توبينس: "حسنًا، في الواقع أعتقد أن سني المتقدمة لا تسمح لي أن أعلم ما يتوجب على المرء فعله في هذه الأيام مع المتاجر لأن كل شيء بها بات غريبًا للغاية؛ فالأسعار غريبة وكل شيء أصبح صعبًا؛ لكنني لو كنت في مكانك وأردت أن أدفع فرق ثمن المعطف، لربما رأيت أن من الأفضل أن أدفع الأموال إلى ما تسمى... جلاديس أو ما شابه؛ فهي تستطيع أن تضعها في درج الخزينة أو شيء من هذا القبيل".

"أوه، حسنًا، لا أعلم إن كنت أود أن أفعل ذلك، لأنها قد تحتفظ بالأموال لنفسها. أقصد أنها إذا أخذت النقود، أوه، أعني أنه لن يكون صعبًا عليها أن تحتفظ بالنقود لنفسها، أليس كذلك؛ إذ إنه سيفترض حينها أنني سرقت النقود والحقيقة هي أنني لم أفعل ذلك. أقصد أن جلاديس قد تسرق النقود، أليس كذلك، وأنا لا أرى أنني أثق بها إلى هذا الحد، يا إلهي".

فقالت توبينس: "أجل، فالحياة صعبة للغاية! إنني غاية في الأسف يا بياترس، لكنني أعتقد في الواقع أن عليك أن تتخذي قرارك بنفسك في هذا الشأن. إن كنت لا تثقين بصديقتك..."

"أوه، إنها ليست صديقتي بالمعنى الحرفي، فكل ما في الأمر أنني أشتري أغراضًا من هذا المتجر، وأجد دائمًا أن الحديث مع هذه الفتاة ممتع، لكنني لا أعتبرها صديقتي بمعنى

الكلمة. أظن أنها واجهت مشكلة في المكان الذي كانت تعمل به من قبل، فقيل إنها احتفظت بأموال شيء باعته".

فقالت توبينس في شيء من القنوط: "حسنًا، في هذه الحالة، ما باليد حيلة".

صرامة نبرتها كانت كافية لأن تستدعي هانيبال إلى جلسة المشاورة، فقد نبح عاليًا على بياترس وقفز سريعًا على المكنسة التي كان يعتبرها أحد أعدائه الرئيسيين، ثم قال: "لا أثق بهذه المكنسة، وأود أن أعضها".

فقالت له توبينس: "أوه، كفى يا هانيبال، توقف عن النباح. لا تعض أي شيء أو أي أحد، سوف أتأخر كثيرًا على موعدي".

وبعد ذلك خرجت مسرعة من المنزل.

٢

قالت توبينس بينما تهبط من التل لتسير بطول طريق البستان: "هناك"، وفي أثناء سيرها، تساءلت، كما فعلت سابقًا، عما إذا كانت هناك مشكلات منازل ملحق بها بساتين أم أن هذا الطراز من المنازل لم يعد موجودًا؛ لكن يبدو أن الأمر ليس كذلك في هذه الأيام.

استقبلتها السيدة باربر بحفاوة بالغة، وقدمت لها بعضًا من المعجنات اللذيذة.

فقالت توبينس: "يا لها من معجنات شهية! هل اشتريتها من محل بيتربي؟".

كان بيتربي متجر المعجنات المحلي.

"أوه كلا، خالتي هي من أعدت هذه المعجنات. إنها طاهية رائعة، فهي تعد أطعمة لذيذة".

فقالت توبينس: "المعجنات من الأشياء التي يصعب إعدادها، فأنا لم أنجح مطلقًا في صنعها".

"حسنًا، كل ما عليك فعله هو شراء نوع محدد من الطحين، وأظن أن هذا هو السر".

احتست السيدتان القهوة وتحدثتا عن صعوبات بعض أنواع الطهي المنزلي.

"الآنسة بولاند كانت تتحدث عنك قبل أيام يا سيدة توبينس".

فقالت توبينس: "أوه، حقًا؟ بولاند؟".

"إنها تسكن بجوار أحد رجال الدين، وعائلتها تعيش هنا منذ زمن طويل، وكانت تروي لنا قصة مجيئها إلى هذه القرية والاستقرار بها عندما كانت صغيرة، وقالت إنها كانت تتطلع دائمًا إلى العيش بأحد المنازل هنا؛ لأن الحدائق كانت تحوي نباتات رائعة من عنب الثعلب، وكذلك أشجار البرقوق الأخضر، وهو ما لم يعد المرء يراه في هذه الأيام، فلا يوجد حاليًا أشجار برقوق أخضر حقيقية، لكنه شيء آخر يدعى مسبار برقوق أو ما شابه، لكنه ليس بالمذاق ذاته".

وهكذا تحدثت السيدتان عن أشياء تتعلق بالفواكه التي لم يعد لها المذاق ذاته الذي اعتادتا عليه في مرحلة طفولتهما.

فقالت توبينس: "عمي الأكبر كانت لديه أشجار البرقوق الأخضر".

"أوه أجل، أهو رجل الدين الخاص بمدينة مانسشتر؟ فرجل الدين هندرسون كان يعيش هناك مع أخته كما أظن، فلقد لقيت مصيرًا سيئًا؛ فذات يوم كانت تأكل كعكة البذور، ثم وقف في حلقها أحد هذه البذور أو ما شابه فظلت تختنق إلى أن ماتت. يا إلهي، إنه لأمر مؤسف، أليس كذلك؟". ثم أردفت: "إنه لأمر محزن في الواقع، فأحد أبناء عمومتي مات مخنوقًا بسبب قطعة من لحم الضأن، أظن أن من السهل كثيرًا أن يحدث ذلك، وهناك أيضا من يموت بسبب الفواق لأنه لا يستطيع إيقافه. ثم استطردت: "فهؤلاء لا يعرفون الأنشودة القديمة التي تقول: احبس أنفاسك قليلًا، احبس أنفاسك كثيرًا، احبس أنفاسك حتى المدينة القادمة، احبس أنفاسك ثلاث مرات ثم أطلق زفيرًا، وسيزول الفواق. عليك أن تحبسي أنفاسك بينما تقولينها".

الفصل ٧

المزيد من المشكلات

"هل لي أن أتحدث إليك للحظة يا سيدتي؟".

فقالت توبينس: "يا إلهي، أتمنى ألا يكون هناك مزيد من المشكلات؟".

كانت توبينس تهبط الدرج قادمة من حجرة الكتب، بينما تنفض الغبار عنها؛ إذ كانت ترتدي أفضل ثيابها ومعاطفها، اللذين كانت تفكر أن تضيف إليهما قبعة ريشية لتتوجه بعدها إلى جلسة الشاي التي دعتها لحضورها صديقة جديدة كانت قد قابلتها في مزاد المقتنيات المستعملة، فشعرت بأنها لا تطيق أن تستمع مجددًا إلى الصعوبات التي تواجه بياترس.

فقالت بياترس: "حسنًا، كلا، كلا، إنها ليست مشكلة بالمعنى الحرفي، بل أمر ظننت أنك قد تودين معرفته".

فقالت توبينس التي ظلت تشعر بأنه ثمة مشكلة قد تكون خلف الستار: "آه"، ثم هبطت الدرج بحرص وأردفت: "أنا في عجلة من أمري؛ فلديَّ موعد لاحتساء الشاي بالخارج".

"حسنًا، إن الأمر يتعلق بشخص كنت تسألين عنه، وهو اسم ماري جوردان، أليس كذلك؟ إلا أن من سألتهم في البداية ظنوا أن اسمها هو ماري جونسون؛ إذ كانت هناك فتاة تدعى بليندا جونسون تعمل في مكتب البريد، لكن منذ فترة طويلة جدًّا".

فقالت توبينس: "أجل، وكان يوجد أيضًا شرطي يدعى جونسون، هكذا قال لي أحدهم".

"أجل، حسنًا، على أية حال، هناك صديقة لي تدعى جويندا تعمل في أحد المتاجر... أتعرفين المتجر الموجود بداخله مكتب بريد؛ فهو يخصص جانبًا منه لعرض الأظرف وبطاقات المعايدة الرديئة وأغراض أخرى، وبعض الأشياء الخزفية أيضًا عند حلول الأعياد، و...".

قالت توبينس: "أعرفه، إنه يدعى متجر السيدة جاريسون أو ما شابه".

"أجل، لكنه لم يعد يحمل هذا الاسم حاليًا، بل له اسم مختلف تمامًا، لكن على أية حال، كانت صديقتي جويندا التي تعمل هناك تفكر في أنك قد تكونين مهتمة بمعرفة الأمر؛ إذ تقول إنها سمعت عن إحدى الشخصيات التي كانت تدعى ماري جوردان والتي عاشت هنا منذ فترة طويلة، فترة طويلة جدًّا، فقد كانت تعيش هنا، أعني في هذا المنزل".

"أوه، أكانت تعيش في منزل ذا لوريس؟".

"حسنًا، لم يكن اسمه هكذا حينها. على أية حال، قالت صديقتي جويندا إنها سمعت بعض المعلومات عن ماري

جوردان، ومن ثم ظنت أنك قد تبدين اهتمامًا بالأمر؛ فهناك قصة مأساوية حولها؛ إذ إنها تعرضت لحادث أو ما شابه أدى إلى وفاتها".

"هل تعنين أنها كانت تعيش في هذا المنزل عندما ماتت؟ هل كانت واحدة من العائلة التي كانت تسكن هنا؟".

"كلا، أظن أن تلك العائلة كانت تدعى باركر، أو ما شابه؛ فهناك عدد كبير من أفراد العائلة كانوا يعيشون بهذا المنزل. أظن أن اسمها عائلة باركر أو باركنسون... شيء من هذا القبيل، وأعتقد أن ماري جوردان لم تكن واحدة من العائلة بل كانت تمكث معهم فحسب، وأظن أن السيدة جريفين تعرف بالأمر. هل تعرفين السيدة جريفين؟".

فقالت توبينس: "أوه، معرفة سطحية، في الواقع إنني ذاهبة إليها هذه الظهيرة لاحتساء الشاي، ولقد تحدثت إليها قبل أيام في المزاد، وكانت هي المرة الأولى التي أقابلها بها".

"إنها سيدة مسنة للغاية، فهي أكبر مما يبدو عليها، لكنني أعتقد أنها تملك ذاكرة قوية للغاية، وأظن أن أحد أبناء آل باركنسون كان ابنها الروحي".

"ماذا كان لقبه؟".

"أوه، أليك كما أظن، أليك أو أليكس".

"وماذا حدث له؟ هل بلغ أشده... رحل... أصبح جنديًا أو بحارًا أو شيئًا من هذا القبيل؟".

"أوه كلا، لقد مات. أجل، أعتقد أنه مدفون هنا، وأظن أنه مات إثر إصابته بأحد هذه الأشياء التي لم يعتد الناس المعرفة بها كثيرًا آنذاك؛ إنه أحد الأمراض الذي له اسم يشبه أحد الأسماء الأوروبية".

"هل تعنين مرضًا سمي تيمنا بأحد الأشخاص؟".

"تقصدين داء هودجكين أو ما شابه. كلا، إنه اسم أوروبي من نوع ما. لا أعرف، لكنه يقال إن دم المصاب بهذا المرض يتغير لونه، وأظن أن الأطباء في هذه الأيام يسحبون دم المريض ويبدلون به دمًا جديدًا ونقيًا، أو ما شابه؛ لكن يقال إنهم حتى حين يفعلون ذلك، عادة ما يموت المريض. السيدة بيلينجز - صاحبة متجر الكعك - كانت لديها فتاة صغيرة ماتت بسبب هذا المرض وعمرها لم يكن يتجاوز السابعة، فيقال إن هذا المرض يقتل المصابين به في سن صغيرة".

"أهو مرض اللوكيميا؟".

"أوه، أجل، هذا هو اسمه، إنني متأكدة من ذلك، لكن يقال حاليًا إنه ذات يوم قد يكتشفون له علاجا، كما هي الحال مع مرض التيفود أو أيًا كان ما هو، ففي هذه الأيام، يعطي الأطباء مريض التيفود لقاحات وتطعيمات لمعالجته".

فقالت توبينس: "حسنًا، هذا يثير الاهتمام للغاية، إنه لصبي مسكين".

"أوه، لم يكن في سن صغيرة للغاية، أظن أنه كان ملتحقًا بالمدرسة، فلا بد أنه كان يبلغ ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا".

فقالت توبينس: "حسنًا، إن الأمر برمته محزن جدًا"، وصمتت لبرهة ثم أردفت: "يا إلهي، لقد تأخرت كثيرًا على موعدي، لابد أن أغادر في الحال".

"أتوقع أن تخبرك السيدة جريفين ببعض الأشياء، لا أقصد الأشياء التي تتذكرها هي، لكنها نشأت هنا وسمعت الكثير من الأشياء، وأحيانًا ما تخبر الناس بالكثير من المعلومات المتعلقة بالعائلات التي كانت تسكن هنا، كما أن بعضًا من الأشياء التي تعرفها هي في الواقع فضائح حقيقية، كتلك الأحداث غير المألوفة أو التي تثير الشكوك حولها كما تعرفين، وكل ذلك حدث بالتأكيد فيما يسمونه العصر الإدواردي أو العصر الفيكتوري، لا أعلم أيهما بالتحديد. أعتقد أنه العصر الفيكتوري لأنها كانت لا تزال على قيد الحياة، تلك الملكة الأم، وهكذا لا بد أن ذلك كان في العصر الفيكتوري، فهناك من يتحدثون عن أن تلك الأحداث والفضائح وقعت في العصر الإدواردي وعن أنه كان هناك شيء يدعى "جماعة منزل ماربوروج"، وهي إحدى جماعات المجتمع الراقي، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "بلى، بلى، إنها شكل من أشكال جماعات من المجتمع الراقي".

فقالت بياترس بشيء من الحماسة: "ولابد أنه حدث بهذا العصر أحداث غير مألوفة ومثيرة للشكوك".

فقالت توبينس: "الكثير من الأحداث".

فقالت بياترس وهي كارهة لأن تغادرها سيدتها في وقت من الممكن أن يقال به شيء مثير للاهتمام: "وكانت الفتيات الصغيرات يفعلن أشياء كريهة".

فقالت توبينس: "كلا، أظن أن الفتيات حينها كن يعشن حياة مجردة ومتشددة، ويتزوجن في سن صغيرة رغم أن زيجاتهن كانت من طبقة النبلاء".

فقالت بياترس: "يا إلهي، يا لها من حياة رغدة تلك التي كن يعشنها، فأظن أنهن كن يمتلكن الكثير من الملابس الجميلة، ويقمن حفلات سباق الخيل، ويذهبن إلى الحفلات الفنية".

فقالت توبينس: "أجل، كان هناك الكثير من الحفلات الفنية".

"حسنًا، كنت أعرف إحدى الشخصيات التي كانت جدتها تعمل خادمة في أحد تلك المنازل الراقية التي كان يحضر بها جميع النبلاء، بمن في ذلك أمير ويلز آنذاك، والذي أصبح فيما بعد إدوارد السابع... فقد كان يأتي إلى هناك وكان لطيفًا جدًا. كان يتعامل بود شديد مع الخدم بشكل عام وجميع من حوله، وحينما تركت هذه الجدة العمل بالمنزل، أخذت معها قطعة الصابون التي كانت تغسل بها يديها، واحتفظت بها للأبد؛ فدائمًا ما كانت ترينا إياها ونحن أطفال".

فقالت توبينس: "لا بد أنه كان أمرًا مثيرًا جدًا بالنسبة لك، وأنك عشت أوقاتًا مثيرة، وربما كان أمير ويلز يأتي إلى هذا المنزل".

"كلا، لا أظن أنني سمعت بذلك من قبل، فلو كان حدث ذلك لكنت سمعت به. كلا، كانت عائلة باركنسون هي من سكنت هنا فحسب خلال تلك الفترة، فلم يسكن المنزل أية كونتيسات أو ماركيزات أو لوردات أو سيدات مجتمع، وأظن أن الجزء الأكبر من عمل آل باركنسون كان في التجارة؛ فقد كانت عائلة ثرية للغاية، لكن ليس هناك شيء مثير في التجارة، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "هذا يعتمد على بعض الأشياء"، ثم أردفت: "أعتقد أنني يجب...".

"أجل، من الأفضل أن تغادري إلى موعدك يا سيدتي".

"أجل، حسنًا، شكرًا جزيلًا يا بياترس، لا أعتقد أنني أحتاج إلى ارتداء قبعة؛ فشعري أصبح فوضويًا للغاية".

"حسنًا، لقد وضعت رأسك في تلك الزاوية التي ينسج العنكبوت بها بيته، سأنظفها كي لا يحدث لك ذلك ثانية".

هبطت توبينس الدرج.

وقالت: "كان ألكسندر يهبط هذا الدرج، أظن أنه فعل ذلك لمرات كثيرة، وكان يعرف أن الفاعل "واحد منهم". إنني أتساءل... أتساءل أكثر من أي وقت مضى".

الفصل ٨

السيدة جريفين

قالت السيدة جريفين وهي تصب الشاي: "إنني سعيدة للغاية أنك وزوجك جئتما لتعيشا هنا يا سيدة توبينس"، ثم أردفت: "أتريدين سكرًا؟ هل أضيف بعض الحليب؟".

قدمت السيدة جريفين طبقًا من الشطائر، وتناولت منه توبينس ما شاءت.

وقالت السيدة جريفين "الأمر يختلف هنا كثيرًا حين يكون للمرء جيران لطفاء يشتركون معه في أمور كثيرة. هل كنت تعرفين هذه البلدة من قبل؟".

قالت توبينس: "كلا، على الإطلاق. لقد عاينا منازل كثيرة ومختلفة، وكان وكلاء العقارات هم من يرسلون لنا التفاصيل، ومعظم هذه المنازل كانت بالطبع متهالكة للغاية، فأحدها كان يسمى سحر العالم القديم".

فقالت السيدة جريفين: "أعلم، أعلم جيدًا ما تقصدينه، فهذا الاسم عادة ما يعني أنه يجب عليك أن تغيري السقف وأن

الرطوبة بالمكان شديدة للغاية، وأعلم أيضًا ما تعنيه كلمة "تحديث شامل"؛ أي الكثير من الأجهزة التي لا يكون المرء بحاجة إليها وعادة ما تكون لنوافذ تلك المنازل البشعة للغاية إطلالة شديدة السوء، لكن منزل ذا لوريس ساحر للغاية، رغم توقعي بأنك أجريت عليه الكثير من التغييرات، وكذلك فعل كل من توافد ليسكن هذا المنزل".

فقالت توبينس: "أظن أن هناك أناسًا كثيرين ومختلفين عاشوا هنا".

"أوه، أجل، لكن في هذه الأيام لا يبدو أن الناس يمكثون طويلًا في مكان واحد، أليس كذلك؟ فقد عاش هنا آل كوثبيرتسون، ثم آل ريدلاندس، وقبلهم آل سيمور، ثم آل جونز".

فقالت توبينس: "لقد كنا نتساءل عن سبب تسمية المنزل بذا لوريس (نبات الغار)".

"أوه، كانت هذه هي الأسماء التي يود الناس أن يطلقوها على المنازل آنذاك، فإذا عدت بالزمن كثيرًا، ربما حين كان آل باركنسون يسكنون المنزل، أظن أننا سنجد أن نباتات الغار كانت موجودة به، وربما كان هناك ممر ملتف مغروس على جانبيه الكثير من نباتات الغار، بما في ذلك الأنواع المزركشة؛ فأنا لم أحب قط نباتات الغار المزركشة".

فقالت توبينس: "أجل، إنني أتفق معك في الرأي، فأنا لا أحبها أيضًا؛ ويبدو أن عددًا كبيرًا من آل باركنسون كان يسكن هنا".

"أوه أجل، أظن أنهم مكثوا بالمنزل أطول من أية عائلة أخرى سكنت به".

"يبدو أن لا أحد يعرف الكثير عنهم".

"حسنًا، لقد مر على ذلك زمن طويل يا عزيزتي. وبعد... أظن بعد... الأزمة التي حدثت، كان هناك بعض المشاعر التي تعتمل بالأنفس، وبالطبع لا عجب من أنهم باعوا المنزل".

فاغتنمت توبينس الفرصة وقالت: "واكتسب المنزل حينها سمعة سيئة، أليس كذلك؟ أتعنين أنه ربما لم يكن صحيًا أو ما شابه؟".

"أوه كلا، ليس المنزل في الواقع بل الناس. حسنًا، كان هناك... وصمة لحقت بعائلة باركنسون نوعًا ما، وكان ذلك خلال الحرب العالمية الأولى، فلم يكن باستطاعة أحد حينها أن يصدق الأمر؛ فجدتي كانت دائمة الحديث عن ذلك، ويقال إن الأمر كان يتعلق بأسرار سلاح البحرية؛ بشأن غواصة جديدة. فكانت تعيش مع آل باركنسون فتاة يقال إنها كانت متورطة في الأمر برمته".

فقالت توبينس: "هل هي ماري جوردان؟".

"أجل، أجل، هذا صحيح. فبعد ذلك ساورهم الشك في أن ماري جوردان ليس اسمها الحقيقي، وأظن أن أحدهم شك بها لبعض الوقت، أعتقد أنه كان ذلك الصبي الذي يسمى ألكسندر، ... لقد كان صبيًا لطيفًا وحاد الذكاء أيضا".

المجلد ٢

الفصل ١

منذ زمن بعيد

في ظهيرة يوم ممطر كاد مكتب البريد فيه يكون خاليًا، ذهبت توبينس لتختار بعض بطاقات المعايدة. لم يكن هناك إلا حفنة من الناس يضعون الخطابات داخل صندوق البريد الموجود بالخارج أو يشترون سريعًا من حين لآخر طوابع بريدية من داخل المكتب، ليغادروا بعدها مسرعين إلى منازلهم، فلم يكن يومًا من أيام الظهيرة التي تنشط بها حركة التسوق. في الواقع، كانت توبينس ترى أنها أصابت حين اختارت ذلك اليوم بالتحديد.

ومن الأوصاف التي أعطتها بياترس لها، نجحت توبينس في التعرف بسهولة على جويندا، التي انتابتها حالة من السعادة البالغة لكونها ستقدم المساعدة لـ توبينس. كانت جويندا مسئولة عن جانب التسوق المنزلي بمكتب البريد، وكانت هناك سيدة مسنة دب الشيب في رأسها ترأس الأعمال الحكومية المتعلقة برسائل جلالة الملكة، وكانت السعادة ترتسم على وجه جويندا، الفتاة الثرثارة التي تهتم دائمًا بالوافدين الجدد

إلى القرية، وهي تقف وسط بطاقات المعايدة، وأعياد الميلاد، والبطاقات البريدية المصورة، وأوراق الملاحظات، والأدوات المكتبية، والأنواع المختلفة من الشيكولاتة، والأغراض الخزفية المتعددة التي تصلح للاستخدام المنزلي، وسرعان ما نشأ بين توبينس وجويندا نوع من الود.

"إنني سعيدة للغاية أن المنزل فتح مرة أخرى، أقصد منزل برنسيز لودج".

"كنت أعتقد أنه دائمًا ما كان يحمل اسم ذا لوريس".

"كلا، لا أظن أنه سمي بذلك من قبل؛ فأسماء المنازل تتغير كثيرًا في هذه القرية؛ فالناس يحبون أن تمنح المنازل أسماءً جديدة كما تعلمين".

فقالت توبينس بتأمل: "أجل، يبدو أن الأمر كذلك، فحتى نحن كنا نفكر في أن نغير اسمه. بالمناسبة، كانت بياترس قد أخبرتني بأنك كنت تعرفين فتاة كانت تعيش هنا وتدعى ماري جوردان".

"لم أكن أعرفها، لكنني سمعت عنها، لقد كان ذلك خلال الحرب، ولكن ليست الحرب الأخيرة، بل تلك الحرب التي نشبت منذ زمن بعيد عندما كانت تستخدم مناطيد زبلين".

فقالت توبينس: "أتذكر أنني سمعت عن تلك المناطيد".

رددت جويندا: "لقد حلقت فوق لندن في عام ١٩١٥ أو ١٩١٦".

"أتذكر أنني ذهبت ذات يوم إلى مخازن الجيش والبحرية بصحبة إحدى عماتي الكبريات وكانت هناك حالة من الرعب".

"أحيانًا ما كانت هذه المناطيد تحلق في الليل، أليس كذلك؟ فلا بد أنها كانت تثير الذعر".

فقالت توبينس: "حسنًا، لا أعتقد ذلك، فعادة ما كان الناس يشعرون بالحماسة الشديدة، فتلك المناطيد لم تكن تثير الذعر بالقدر الذي كانت تحدثه القاذفات... في هذه الحرب الأخيرة؛ فالمرء منا كان يشعر دائمًا كما لو *أنها* تطارده حيثما ذهب؛ تطارده في الشوارع، أو شيء من هذا القبيل!".

"كنتم تقضون الليل في أنفاق القطارات، أليس كذلك؟ فقد كانت لي صديقة تعيش في لندن، وكانت عادة ما تمضي ليلها داخل الأنفاق. أظن أنها كانت تسكن في شارع وارين، وكان كل شخص له محطة أنفاق محددة".

فقالت توبينس: "لم أكن متواجدة في لندن في أثناء الحرب الأخيرة، ولا أعتقد أنني كنت سأحب أن أقضي طوال الليل داخل نفق".

"حسنًا، لكن صديقتي هذه التي تدعى جيني كانت تحب المكوث داخل النفق؛ فكانت تقول إن الأمر ممتع للغاية، حيث كان لكل فرد درجة محددة من السلم داخل النفق، تظل دائمًا له، فينام عليها، ويحمل معه الشطائر والأشياء الأخرى، ويتبادل مع الآخرين أطراف الحديث ويقضي معهم وقتًا ممتعًا، وهكذا يستمر الأمر طوال الليل دون توقف. إنه لشيء رائع، وكانت حركة القطارات تتواصل حتى الصباح، حتى إنها أخبرتني بأن الوضع لم يكن محتملاً بالنسبة لها حين انتهت الحرب

واضطرت للعودة إلى بيتها مرة أخرى، إذ شعرت حينها بملل شديد".

فقالت توبينس: "على أية حال، لم تكن هناك أية قاذفات في عام ١٩١٤، بل كانت مناطيد زبلين هي ما تستخدم فحسب".

كان من الواضح أن التحدث عن مناطيد زبلين لم يعد يروق لـ جويندا.

فقالت توبينس: "كنت أسأل عن فتاة تدعى ماري جوردان، وأخبرتني بياترس بأنك تعرفين بأمرها".

"ليس تمامًا - كل ما في الأمر أنني سمعت اسمها يذكر أمامي مرة أو مرتين، لكن ذلك كان منذ زمن طويل؛ فجدتي قالت لي إنها كانت فتاة ذات شعر ذهبي جميل؛ فهي فتاة ألمانية الجنسية... ممن كان يطلقون عليهن فراولينز، وكانت تعتني بالأطفال - أي مربية أطفال أو ما شابه، وقد عملت لدى عائلة من البحارة في أحد الأماكن، أظن أنه كان أسكتلندا، وبعد ذلك أتت إلى القرية هنا، وعملت لدى عائلة تدعى باركز... أو بيركينز، واعتادت دائمًا أن تحصل على يوم راحة في الأسبوع كانت تذهب فيه إلى لندن، وكانت دائمًا تأخذ معها تلك الأشياء إلى هناك".

فقالت توبينس: "أي نوع من الأشياء؟".

"لا أعرف... لم يتحدث أحد عن ذلك من قبل، أظن أنها أشياء كانت تسرقها".

"هل ضبطها أحدهم وهي تسرق؟".

"كلا، لا أعتقد ذلك. كانت الشكوك قد بدأت تثار حولها، لكنها مرضت وماتت قبل أن يكشف أمرها".

"ماذا كان سبب وفاتها؟ هل ماتت هنا؟ أظن أنها نقلت إلى المستشفى".

"كلا... لا أعتقد أنه كانت هناك حينها أية مستشفيات لتذهب إليها؛ فلم تكن الخدمات الاجتماعية تتوافر للمواطنين في تلك الأيام، ولقد أخبرني أحدهم بأن الأمر كان يتعلق بخطأ ساذج اقترفته الطاهية، حيث إنها جلبت نباتات قفاز الثعلب بالخطأ عوضًا عن السبانخ... أو الخس. كلا، أظن أنه كان شخصًا آخر؛ فأحدهم قال لي إنها كانت نباتات قاتلة من فصيلة الباذنجانيات، لكنني لا أصدق *ذلك* تمامًا؛ لأن الجميع يعرفون شكل هذه النباتات، أليس كذلك؟ على أية حال، هي نوع من العليق. حسنًا، أعتقد أنها كانت نباتات قفاز الثعلب تلك التي جلبت من الحديقة إلى المنزل عن طريق الخطأ؛ فنباتات قفاز الثعلب هي الديجوكسين أو الديجيت كما أظن... فهي شيء يشبه الأصابع ويحتوي على مادة قاتلة... وعندما حدث ذلك أتى الطبيب إلى ماري وفعل ما في وسعه، لكنني أعتقد أن الأوان كان قد فات حينها".

"هل كان هناك عدد كبير من الأشخاص بالمنزل حين حدث ذلك؟".

"أوه، أعتقد أن المنزل كان مليئًا بالكثير من الأشخاص... أجل؛ لأنه دائمًا ما كان هناك أناس يمكثون بالمنزل، هكذا سمعت، وكان هناك أيضًا الأطفال، وزوار عطلة نهاية الأسبوع، ومربية

الأطفال، والخادمة، والمعلمة، إلى جانب الحفلات التي كانت تقام بالمنزل. أنا لم أعرف هذه المعلومات بنفسي، لكن هذا هو ما كانت تخبرني به دائمًا جدتي لأمي، كما أن السيد بودليكوت يتحدث عن الأمر من حين لآخر. أتعلمين؟ إن البستاني المسن الذي يعمل هنا من آن لآخر، كان يعمل لدى هذه العائلة، وقد ألقوا عليه اللوم في البداية لجلبه أوراق النبات الخطأ، لكنه لم يكن هو من فعلها، بل شخص آخر خرج من المنزل يرغب في تقديم المساعدة فقطف الخضراوات من الحديقة، وجلبها إلى الطاهية. تعرفين السبانخ والخس والأشياء المشابهة لذلك وأظن أنهم أخطأوا بعدم معرفتهم أشياء كثيرة عن زراعة الخضراوات. أعتقد أنهم قالوا في التحقيق - أو أيًا ما كان الشيء الذي أجري بعد الحادثة - أنه خطأ يمكن لأي شخص أن يقع به لأن أوراق السبانخ كانت تزرع بالقرب من الديجي... أو الديجيت، لذلك أفترض أنهم قطفوا قدرًا كبيرًا من أوراق النباتين، أي دفعة واحدة. على أية حال، كان الأمر محزنًا للغاية لأن جدتي قالت إنها كانت فتاة شديدة الجمال ذات شعر ذهبي، وعينين زرقاوين واسعتين".

"أتقولين إنها كانت معتادة الذهاب إلى لندن كل أسبوع؟ إذن فبطبيعة الحال كان لا بد لها أن تحصل على يوم راحة".

"أجل، كانت تقول إن لديها أصدقاء هناك، فقد كانت غريبة عن المكان... وتقول جدتي إن ثمة أقاويل كانت تشير إلى أنها جاسوسة ألمانية".

"وهل كانت كذلك بالفعل؟".

"لا أعتقد ذلك، فكان يبدو أن الرجال يعجبون بها كثيرًا، مثل ضباط البحرية والعاملين بمعسكر شيلتون أيضًا؛ فكان لديها أصدقاء هناك، بالمعسكر الحربي".

"هل كانت حقًا جاسوسة؟".

"لا أعتقد ذلك، أعني أن جدتي قالت إن هذا هو ما كان الناس يقولونه عنها. لم تقع تلك الأحداث خلال الحرب الأخيرة، بل كانت قبل ذلك بفترة طويلة".

قالت توبينس: "إنه لشيء يثير السخرية؛ فكم من السهل أن يلتبس عليك الأمر بشأن الحروب. كنت أعرف رجلًا مسنًا كان لديه صديق شارك في معركة ووترلو".

"أوه، تصوري ذلك، كان هذا قبل سنوات من عام ١٩١٤، حينما كان الأشخاص يستأجرون مربيات أجنبيات... ممن كان يطلق عليهن مدموازيل أو فراولين، أيًا كان ما تعنيه هذه الألقاب؛ فقد قالت جدتي إن ماري كانت لطيفة مع الأطفال، وإن الجميع كانوا مسرورين منها ويحبونها كثيرا".

"أكان ذلك عندما كانت تعيش هنا، في منزل ذا لوريس؟".

فقالت جويندا: "لم يكن حينها يسمى هكذا... على الأقل هذا ما أظنه؛ حيث كانت ماري تعيش مع آل باركنسون أو بيركين، شيء من هذا القبيل، وكانت تعمل ما نطلق عليه هذه الأيام جليسة للأطفال، وقد أتت من البلدة التي نشأت بها صناعة الفطائر التي لا تزال تعدها محلات فورتنوم آند ماسون... تلك الفطائر باهظة الثمن التي تجلب إلى الحفلات؛

فكان لها أصول فرنسية إلى جانب أصولها الألمانية، هكذا قال لي أحدهم".

فقالت توبينس: "تقصدين أنها أتت من مدينة ستراسبورج؟".

"أجل، هكذا كان اسمها، وقد اعتادت ماري أن ترسم لوحات، فقد رسمت واحدة لإحدى عماتي الكبريات، بدت فيها طاعنة في السن جدًّا، هكذا كانت تقول عمتي فاني، كما أنها رسمت لوحة لأحد فتيان عائلة باركنسون، ولا تزال السيدة جريفين تحتفظ بها. أظن أن فتى عائلة باركنسون اكتشف شيئًا بشأنها... أعني الفتى الذي رسمت له الصورة، وأعتقد أنه كان الابن الروحي للسيدة جريفين".

"هل كان اسمه ألكسندر باركنسون؟".

"أجل، هذا هو الفتى الذي أقصده، فهو مدفون هنا بالقرب من دار العبادة".

الفصل ٢

التعرف على ماتيلدا، وعربة الحب الحقيقي، وكيه كيه

في الصباح التالي، ذهبت توبينس لتبحث عن تلك الشخصية المشهورة والمعروفة في القرية عادة بلقب إيزاك العجوز، أو كما يطلق عليه في المناسبات الرسمية - إذا كان باستطاعة المرء أن يتذكر - بودليكوت. كان إيزاك بودليكوت واحدًا من "الشخصيات" المحلية الفريدة من نوعها، ويرجع هذا التفرد إلى عمره الذي يدعي أنه تسعون عامًا (وهو ما لا يصدقه الكثيرون)، وإلى قدرته على إصلاح أشياء كثيرة ومتنوعة، فإذا باءت جهودك في الاتصال بالسباك بالفشل، فعليك الذهاب إلى إيزاك بودليكوت المسن؛ فهو - سواء أكان مؤهلاً لتلك الإصلاحات التي يتولاها أم لا - قد استطاع على مدار أعوام كثيرة من حياته المديدة أن يكتسب خبرة بكل أنواع المشكلات المتعلقة بالصرف الصحي، ومشاكل مياه الحمام، ومتاعب السخانات، ومشاكل الكهرباء المختلفة في المنطقة، فكان

أجره يضاهي ما يتقاضاه سباك ماهر ومتمرس في عمله، أما إصلاحاته فهي تنجح في كثير من الأحيان بصورة تثير الدهشة، فبوسعه أن يتولى أعمال النجارة، وفي استطاعته أن يصلح الأقفال، ويمكنه أيضًا أن يعلق الصور، التي أحيانًا ما تكون مائلة بعض الشيء - ولديه معرفة بمعالجة شروخ المقاعد المتهالكة. كان العيب الرئيسي في شخصية السيد بودليكوت هو ميله إلى الثرثرة وإجراء الأحاديث المتواصلة التي يعوقها قليلا صعوبة تمكُّنه من ضبط أسنانه الصناعية بطريقة تجعل نطقه لما يقوله واضحًا، فبدا أن ذكرياته عن سكان الحي السابقين غير محدودة، إلا أنه كان من الصعب بشكل عام التأكد من مدى مصداقيتها، ولم يكن السيد بودليكوت يتردد في أن يمنح نفسه متعة بسرد بعض قصص الماضي المثيرة من حين لآخر، فكانت شطحاته الخيالية تلك، والتي كان يدعي عادة أنها رحلات في الذاكرة، تبدأ دائمًا بالاستهلال ذاته:

"ستندهشين إذا أخبرتك بما أعرفه عن ذلك الشخص، أجل بكل تأكيد. ظن الجميع أنه يعرف كل شيء عن الأمر، لكنهم كانوا مخطئين، مخطئين تمامًا. كانت تلك هي الأخت الكبرى، أجل، هذه هي الحقيقة. وبدا أنها كانت فتاة لطيفة للغاية، وكان كلب الجزار هو من لفت انتباههم إلى مفتاح اللغز، فقد تبعها إلى بيتها، أجل، لكنه لم يكن بيتها، إذا جاز القول. آه، بوسعي أن أخبرك بالمزيد عن هذا الأمر، وبعد ذلك كانت هناك السيدة آتكينز، فلم يكن أحد يعرف أنها تحتفظ بمسدس في منزلها، لكنني كنت أعلم ذلك، فقد عرفت بالأمر عندما ذهبت إليها

لأصلح خزانتها- هذا ما يطلقونه على تلك الدواليب المرتفعة ذات الأدراج، أليس كذلك؟ أجل، هذا هو اسمها، وهناك وجدت سيدة تبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا، أما الدرج ... درج الخزانة التي ذهبت، كما قلت لك، لأصلحها - فكانت مفصلاته تالفة، وكذلك القفل - كان هذا هو الدرج الذي تحتفظ فيه بالمسدس؛ فكان ملفوفًا وبجانبه زوج حذاء نسائي من الستان الأبيض مقاس ٣، أو، ربما ٢، فكان مقاس قدم صغيرة للغاية، وقد قالت إنه حذاء الزفاف الخاص بجدتها لأمها، ربما كان هذا حقيقيًا؛ لكن أحدهم قال إنها اشترته من متجر قديم للتحف، لكنني لا أعرف بهذا الأمر. أما عن المسدس المفلوف فقد قيل إن ابنها هو من أتى به من شرق إفريقيا؛ فقد ذهب إلى هناك لاصطياد الفيلة أو شيء من هذا القبيل، وحين عاد إلى البلاد أحضر معه هذا المسدس. أتعلمين ما الذي اعتادت أن تفعله تلك السيدة المسنة بهذا المسدس؟ كان ابنها قد علمها إطلاق النار، وعلى إثره كانت تطل من نافذة حجرة الاستقبال وفي يدها المسدس، وعندما يقترب أحد من الممر كانت تطلق النار بجواره. أجل، كانت تبث الرعب في قلبه فيفر بعيدًا، وكانت تبرر تصرفها هذا بأنها لا ترغب في أن يقترب أي شخص من المنزل ويزعج الطيور؛ فقد كانت مولعة بالطيور، ولم تطلق النار قط على طائر واحد. كلا، لم يكن يروقها أن تفعل ذلك، وهناك أيضًا قصص السيدة ليثربي التي كاد يُقبض عليها، أجل؛ إذ إنها كانت تسرق الأغراض من المتاجر بينما تتظاهر بالتسوق، وكانت

ماهرة جدًا في ذلك، هكذا يقال عنها، رغم أنها كانت شديدة الثراء".

بعد أن أقنعت توبينس السيد بودليكوت بتغيير كوة الحمام، تساءلت إذا ما كان بوسعها أن توجه دفة حديثه نحو ذكريات أخرى من شأنها أن تفيدها هي وتومي في حل لغز إخفاء كنز ثمين أو سر مثير في منزلهما لم يعلما طبيعته من قبل.

لم يكن إيزاك بودليكوت يجد غضاضة في الحضور لإجراء إصلاحات للمستأجرين الجدد للمكان، بل كان أحد الأمور التي تمنحه قدرًا من السعادة في الحياة هو الالتقاء بأكبر عدد ممكن من الوافدين الجدد إلى القرية؛ فكان أحد الأحداث الرئيسية في حياته هي تمكُّنه من الالتقاء بأناس لم يسمعوا بعد عن ذكرياته وقصصه الرائعة، إذ إن هؤلاء الذين تربطهم به معرفة وطيدة كانوا في كثير من الأحيان لا يشجعونه على إعادة سرد تلك الحكايات. أما أن يكون هناك جمهور جديد مستعد أن يستمع إليه! فكان هذا دائمًا حدثًا سعيدًا، كما أنه يتقن قدرًا رائعًا من المهارات التي يظهرها بينما يسدي خدماته المختلفة إلى المجتمع الذي يعيش به.

"من حسن الحظ أن جو المسن لم يجرح نفسه، فكان من الممكن أن يشوه وجهه".

"أجل، كان من الممكن أن يحدث ذلك حقًا".

"لا يزال على الأرض يا سيدتي بعض قطع الزجاج المتناثرة التي تجب إزالتها".

قالت توبينس: "أعلم، لم يعد لدينا وقت".

"آه، لكن لا يمكنك أن تجازفي بالتعامل مع هذا الزجاج. أتعلمين أي نوع من الزجاج هذا... فشظية منه كافية لأن تصيبك بضرر بالغ؛ فإذا دخل في الأوعية الدموية، فقد يؤدي إلى الوفاة، فأنا أتذكر ما حدث للسيدة لافينيا شوتاكوم. فلن تصدقي...".

لم يرق لـ توبينس التحدث عن السيدة لافينيا شوتاكوم، فكانت قد سمعت أحد السكان المحليين وهو يتحدث عنها، وبدا أنها كانت سيدة صماء وشبه عمياء ما بين السبعين والثمانين من عمرها.

فقاطعته توبينس قبل أن يشرع في سرد ذكريات السيدة لافينيا وقالت: "أظن أنك لا بد أن تعرف الكثير عن كل الشخصيات المختلفة والأشياء غير العادية التي حدثت في هذا المكان في الماضي".

"آه، حسنًا، أنا لم أعد صغيرًا في السن كما كنت في السابق، فقد تجاوزت الخامسة والثمانين، وقاربت على التسعين، لكن ذاكرتي دائمًا ما كانت جيدة؛ فهناك أشياء لا يمكن للمرء أن ينساها مطلقًا، فمهما كانت الفترة التي مرت عليها، يظل هناك شيء يذكره بها، ويعيدها إلى ذهنه مرة أخرى؛ فالأشياء التي أستطيع أن أخبرك بها، لن تصدقيها".

فقالت توبينس: "حسنًا، إن الأمر رائع حقا، أليس كذلك؟

أن تفكر في كم الأشياء التي تعرفها عن الكثير من الناس الاستثنائيين".

"كلا، فليست هناك أداة يمكن أن نصنف بها الناس، أليس كذلك؟ فقد يكون هناك أناس لديك نحوهم نظرة محددة لكنك تكتشفين بعد ذلك أن حقيقة شخصياتهم تخالف هذه النظرة".

قالت توبينس: "أظن أننا نكتشف أحيانًا أنهم جواسيس، أو مجرمون".

ونظرت إليه آملة في أن يقول شيئًا... لكن إيزاك المسن انحنى والتقط شظية زجاج.

وقال: "كيف سيكون شعورك إذا دخلت هذه الشظية في باطن قدمك؟".

فبدأت توبينس تشعر أن استكمال تركيب زجاج الكوة لن يؤتي ثماره في حث إيزاك على سرد مزيد من ذكريات الماضي الأكثر تشويقًا، ولاحظت أن تلك الصوبة الزجاجية الصغيرة الملاصقة لجدار المنزل بالقرب من نافذة حجرة الطعام بحاجة أيضا إلى إصلاح زجاجها واستبداله. هل تستحق الإصلاح أم أنه من الأفضل هدمها؟ كان إيزاك سعيدًا للغاية بالانتقال إلى هذه المشكلة الجديدة، فهبطا الدرج معًا، وخرجا من المنزل ثم سارا حول جدرانه حتى وصلا إلى الصوبة الزجاجية.

"آه، تقصدين تلك الموجودة هناك، أليس كذلك؟".

فردت توبينس بالإيجاب.

فقال إيزاك: "كيه... كيه".

فنظرت توبينس إليه؛ لم تكن تفهم ماذا تعني هاتان الكلمتان.

فقالت له: "ماذا قلت؟".

"لقد قلت كيه كيه، هكذا كانت تسمى حينما كانت السيدة لوتي جونز تسكن هنا".

"أوه، لماذا كانت تسميها هكذا؟".

"لا أعرف، أظن أنه كان نوعًا من الأسماء... نوعًا من الأسماء التي اعتادوا أن يطلقوها على مثل هذه الأماكن. أتعلمين؟ لم تكن فاخرة حينها، فالمنازل الأكبر حجمًا تكون بها صوبة زجاجية حقيقية، حيث يزرعون سرخس كزبرة البئر في أوان".

فقالت توبينس وقد استرجعت بسهولة ذكرياتها عن مثل هذه الأشياء: "أجل".

"وكذلك يمكنك أن تسميها صوبة زجاجية، لكن تلك التي توجد هنا اعتادت السيدة لوتي جونز أن تسميها كيه كيه، ولا أعرف السبب في هذا".

"هل كانوا يزرعون بالصوبة سرخس كزبرة البئر؟".

"كلا، لم تكن تستخدم لهذا الغرض، كلا، بل كان الأطفال يخزنون بها لعبهم معظم الوقت. حسنًا، أظن أن هذه اللعب لا تزال موجودة بها إن لم يكن أحد أخرجها من المكان، وكما هو واضح فإن نصفها متهاو، أليس كذلك؟ فقد ثبتوها قليلًا ثم وضعوا فوقها ما يمكن أن يسمى سقفًا ولم أكن أظن أن أحدًا سيستخدمها مرة أخرى؛ فقد اعتادوا أن يضعوا بها اللعب المكسورة، أو المقاعد وأشياء من هذا القبيل. وكما ترين،

فإنهم تركوا بها بالفعل الحصان الخشبي الهزاز وعربة الحب الحقيقي في تلك الزاوية البعيدة".

فسألته توبينس وهي تحاول النظر إلى جانب من النافذة أكثر وضوحًا بعض الشيء: "هل لنا أن ندخل بها؟ فلا بد أن بداخلها الكثير من الأشياء المختلفة".

قال إيزاك: "حسنًا، ها هو ذا المفتاح هناك، أظن أنه معلق في المكان ذاته".

"أين هذا المكان؟".

"آه، هناك بالسقيفة القريبة من هنا".

فذهبا إلى الممر المجاور؛ كانت السقيفة لا ترقى لأن يطلق عليها هذا المسمى، فضرب إيزاك بابها بقدمه وفتحه مزيلًا بعض أغصان الأشجار، وراكلًا بعض ثمرات التفاح المتعفنة، وما إن أزاح ممسحة أرجل قديمة كانت معلقة على الحائط حتى ظهر مسمار معلق عليه ثلاثة أو أربعة مفاتيح طالها الصدأ.

فقال: "هذه هي مفاتيح ليندوب، البستاني قبل الأخير الذي كان يعمل هنا، فقد كان صانع سلال متقاعدًا، ولم يكن يبدي مهارة في أي شيء يفعله. هل تودين أن تلقي نظرة داخل كيه كيه...؟".

فقالت توبينس في رجاء: "آه أجل، أود أن ألقي نظرة على كيه كيه، كيف تتهجى اسمها؟".

"كيف أتهجى ماذا؟".

"أعني كيه كيه؟".

"كلا، أعتقد أنها شيء مختلف، أظن أنها ترمز إلى كلمتين أجنبيتين. أتذكر أنهما ك -ي - هـ وك -ي - هـ، أو كيه - كيه كما أظن، فأعتقد أنها كلمة يابانية".

فقالت توبينس: "أوه، هل كان هناك يابانيون يعيشون هنا؟".

"كلا، لم يحدث شيء من هذا، كلا، لم يكن سكان هذا المنزل يابانيين".

بدا أن لكمية الزيت القليلة التي استخدمها إيزاك لتنظيف المفاتيح الصدئة أثرًا رائعًا عليها؛ إذ إنه حين أدخلها بمقبض الباب وبعد أن أحدثت بعض الضوضاء، انفتح الباب، ودخلت توبينس بصحبة مرشدها إيزاك.

قال إيزاك وهو لا يبدي أي نوع من الفخر نحو الأشياء الموجودة بداخل الصوبة: "هأنتذا بداخلها، فليس بها إلا أغراض قديمة، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "إن هذا لحصان جميل للغاية".

فقال إيزاك: "إنه ماتيلدا".

فقالت توبينس في تردد: "مات...يلدا".

"أجل، إنه اسم امرأة من نوع ما، أظن أنها كانت ملكة؛ فقد قال أحدهم إنها كانت زوجة وليام الفاتح لكنني أعتقد أن ذلك كان نوعًا من التباهي. جاء هذا الحصان من أمريكا، فقد أحضره أب روحي أمريكي الجنسية لأحد الأطفال".

"أطفال من...؟".

"أحضره لأحد أطفال آل باسينجتون، العائلة التي سكنت المنزل قبل المستأجرين الآخرين، لا أعرف، لكنني أعتقد أنه أصبح صدئا تمامًا".

كان ماتيلدا حصانًا رائع المظهر حتى في حالته المتهرئة تلك، فكان طوله يعادل طول أي حصان أو فرس موجود في هذه الأيام، أما اللبدة التي بدت أنها كانت غزيرة فيما سبق فلم يكن يتبقى منها إلا عدد قليل من الشعر. كانت إحدى أذنيه مكسورة، وبدا أنه مطلي باللون الرمادي، وكانت ساقاه الأماميتان ممتدتين إلى الأمام؛ وساقاه الخلفيتان ممتدتين إلى الخلف؛ ولم يكن شعر ذيله كثيفًا.

فقالت توبينس في اهتمام: "إنه لا يعمل كأي حصان هزاز رأيته من قبل".

قال إيزاك: "نعم، فأي حصان هزاز، كما تعلمين، يتحرك للأعلى وللأسفل، للأعلى وللأسفل، ومن الأمام للخلف، لكن هذا الحصان، كما ترين... ينطلق إلى الأمام، ففي البداية تتحرك ساقاه الأماميتان... ثم تتبعهما ساقاه الخلفيتان، إنه يؤدي حركة جيدة للغاية، ويمكنني أن أمتطيه وأريك...".

فقالت توبينس: "كن حذرًا، قد...قد يكون به مسامير أو شيء يمكنه أن يغرز في جسدك، أو ربما تسقط من فوقه".

"آه، لقد كنت أمتطي هذا الحصان منذ خمسين أو ستين عاما، لا بد أنها تلك الفترة، لكنني أتذكر ذلك، وهو لا يزال صلبًا جدًا، فلا يزال متماسكاً ببعضه البعض".

وبحركة بهلوانية مفاجئة وغير متوقعة، قفز إيزاك من فوق الحصان ماتيلدا، فمال الحصان إلى الأمام ثم إلى الخلف.

"إن حركته تثير الحماسة، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أجل، إنه مثير للحماسة".

"آه، لقد كانوا يحبونه؛ ودائمًا ما كانت الآنسة جيني تمتطيه يومًا بعد يوم".

"من الآنسة جيني؟".

"كانت الفتاة الكبرى التي جلب لها أبوها الروحي هذا الحصان"، ثم أضاف: "كما أنه جلب لها عربة الحب الحقيقي".

فنظرت إليه توبينس في استفسار؛ إذ لم يبد لها أن هذا الاسم ينطبق على أي من المحتويات الأخرى لـ كيه كيه.

"هذا ما كانوا يطلقونه على هذا الحصان الصغير والعربة الموجودة هناك في الزاوية. اعتادت الآنسة باميلا أن تهبط بعربة الحب الحقيقي من التل؛ فقد كانت شخصية جادة للغاية، وكانت تركب هذه العربة عند قمة التل، ثم تضع قدميها على دواستها - فمن المفترض أن لها دواسات لكنها لم تكن تعمل، لذا كانت تجرها إلى قمة التل وبعد ذلك تركبها وتتركها تنزلق هبوطًا من التل، ثم توقفها بقدميها، وكثيرًا ما كانت تسقط بين الأشجار الصنوبرية الشائكة".

فقالت توبينس: "إنه لشيء مؤلم للغاية، أقصد السقوط بين أشواك الأشجار".

"آه حسنًا، كانت تستطيع أن توقف العربة قبل سقوطها بقليل. لقد كانت شخصية جادة للغاية، وقد اعتادت أن تفعل ذلك لثلاث أو أربع ساعات وكنت أراقبها بينما أعتني بأواني الورد والحشائش، ولم أكن أتحدث إليها لأنها كانت لا تحب أن تتحدث بينما تركب عربة الحب الحقيقي. لقد كانت تود أن تركز فيما تفعله أو ما تعتقد أنها تفعله".

بدأت توبينس فجأة تظهر اهتمامًا بالآنسة باميلا أكثر من اهتمامها بالآنسة جيني، فقالت: "ما الذي كانت تعتقد أنها تفعله؟".

"حسنًا، لا أعرف، لكنها أحيانًا ما كانت تقول إنها أميرة هاربة، أو إنها ماري، تلك الملكة التي كانت تحكم ما تسمى... أيرلندا أو أسكتلندا؟".

فقالت توبينس: "ماري ملكة أسكتلندا".

"أجل، هذا صحيح. فقد غادرت المملكة، أو هربت إلى إحدى القلاع، ثم أغلقت شيئًا، ليس إغلاقًا بالمعنى الحرفي، لكنها سدت مجرى مائيًا".

"آه أجل، أتفهم الأمر، وكانت باميلا تعتقد أنها الملكة ماري الهاربة من أعدائها، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح، والتي سافرت إلى إنجلترا لاستجداء عطف الملكة إليزابيث، هكذا قالت، لكنني لا أعتقد أن قلب الملكة إليزابيث كان يعرف العطف".

فقالت توبينس وهي تخفي شعورها بخيبة الأمل: "حسنًا، إن الأمر برمته مثير للاهتمام بكل تأكيد، من أية عائلة كانت هذه الفتاة؟".

"أوه، من عائلة ليستر".

"هل عرفت من قبل فتاة تدعى ماري جوردان؟".

"آه، أعلم من تقصدين، كلا، أظن أنها كانت تسكن المنزل قبل فترة قليلة من مجيئي للعمل هنا. تقصدين الجاسوسة الألمانية، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "يبدو أن الجميع هنا يعرف بأمرها".

"أجل، لقد كانوا يطلقون عليها فراولين، أو شيئًا من هذا القبيل، اسمًا مستوحى من قطارات السكة الحديد".

فقالت توبينس: "يبدو كذلك".

ضحك إيزاك فجأة ثم قال: "إذا كان هذا هو المقصود، فهذا القطار لم يكن يسير مستقيمًا، أليس كذلك؟"، ثم ضحك ثانية وقال: "نعم، حقا".

فقالت توبينس بلطف: "يا لها من مزحة رائعة!".

فضحك إيزاك مرة أخرى.

ثم قال: "حان أوان زراعة الخضراوات، تفكرين بزراعة بعض منها بالدفيئة، أليس كذلك؟ فإذا أردت زراعة الفول الأخضر في توقيت جيد، فهذا هو التوقيت المناسب له، ثم عليك بعد ذلك أن تعد لزراعة البازلاء، وماذا عن الخس الذي ينمو مبكرًا؟ فما

رأيك في توماثامبس؟ إنه نوع جميل من الخس، صحيح أنه صغير لكنه هش".

"أظن أنك مارست هنا الكثير من أعمال البستنة؛ لا أقصد هذا المنزل فحسب، بل الأماكن الكثيرة الأخرى التي عملت بها".

"آه أجل، لقد نفذت كثيرًا من الأعمال لأناس مختلفين، فاعتدت الذهاب إلى معظم المنازل؛ إذ إن بعض البستانيين لم يكونوا يبدون مهارة في أي شيء، فكنت دوما آتي إلى هنا وأقدم المساعدة من حين لآخر، وذات مرة وقع حادث هنا بالمنزل يتعلق بخطأ في الخضراوات، كان ذلك قبل أن أعمل هنا - لكنني سمعت عنه".

فقالت توبينس: "خطأ يتعلق بأوراق نبات قفاز الثعلب، أليس كذلك؟".

"آه، أتصور أنك سمعت بالفعل عن هذا الأمر؛ فقد وقع هذا الحادث منذ زمن بعيد، وقد مرض العديد من الأشخاص بسبب ذلك، حتى أن أحدهم مات، على الأقل هكذا سمعت من أحد أصدقائي القدامى".

فقالت توبينس: "أظن أن من ماتت هي فراولين".

"ماذا، فراولين؟ لم أسمع بذلك من قبل".

فقالت توبينس: "حسنًا، ربما أكون مخطئة! أيمكنك أن تأخذ عربة الحب الحقيقي، أو أيًا كان اسم هذا الشيء، وتضعه فوق التل حيث كانت تلك الطفلة التي تدعى باميلا تهبط به من فوقه - إن كان التل لا يزال موجودًا".

"حسنًا، لا يزال التل موجودًا بالطبع؛ فهو لا يزال مكسوًا بالعشب، لكن كوني حذرة، فأنا لا أعرف كم الصدأ الذي طال هذه العربة، سأنظفها أولا".

فقالت توبينس: "حسنًا، وبعد ذلك يمكن لك أن تفكر في قائمة الخضراوات التي علينا أن نزرعها".

"آه حسنًا، سأكون حذرًا ألا تزرعي قفاز الثعلب إلى جانب السبانخ؛ فأنا لا أود أن يصيبك ضرر بينما لم تمر على شرائك للمنزل فترة كبيرة، فالمنزل هنا جميل لكنه بحاجة إلى أن ينفق عليه القليل من المال".

فقالت توبينس: "شكرًا جزيلًا لك".

"وسأتفحص العربة حتى لا تنكسر من تحتك، إنها قديمة للغاية لكنك ستدهشين من الطريقة التي تعمل بها الأشياء القديمة؛ فأحد أبناء عمومتي أخرج قبل أيام دراجة قديمة ليستخدمها من جديد، كان يبدو عليها أنها لا تعمل، فلم يركبها أحد منذ أربعين عامًا، لكن بقليل من الزيت أصبحت على ما يرام. آه، كم كان رائعًا ما يفعله قليل من الزيت بالأشياء".

الفصل ٣

ستة أشياء مستحيلة قبل الإفطار

قال تومي: "ما هذا بحق السماء...؟".

اعتاد تومي أن يجد توبينس في أماكن غير مألوفة حين يعود إلى المنزل، لكنه في هذه المرة كان أكثر اندهاشًا من المعتاد.

فلم يكن لـ توبينس أثر داخل المنزل، رغم أنها كانت تمطر قليلاً بالخارج، فخطر بباله أن تكون منهمكة في فعل شيء ما بأحد أجزاء الحديقة، فذهب للخارج ليرى إذا ما كان تخمينه صائبًا، وحينئذ قال: "ما هذا بحق السماء...؟".

فقالت توبينس: "مرحبًا يا تومي، لقد بكَّرت في عودتك أكثر مما توقعت".

"ما هذا الشيء؟".

"أتقصد الحب الحقيقي؟".

"ماذا قلتِ؟".

فقالت توبينس: "لقد قلت الحب الحقيقي، هذا هو اسم هذه العربة".

"هل كنت تحاولين ركوب هذا الشيء والتجول به، إن حجمه صغير جدًا بالنسبة لك".

"حسنًا، أعلم أنه لا يناسبني، إنه لطفلة، أظن أنه شيء يسبق الدراجات الصغيرة المخصصة للأطفال، أو تلك الأشياء التي كان يملكها المرء في صباه".

فقال تومي: "إنها لا تعمل، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، ليس بالضبط، لكنك في حال أخذتها إلى قمة التل ستجد حينها أن عجلاتها تدور من تلقاء نفسها نظرًا لانحدار التل ومن ثم ستهبط بك من فوقه".

"ثم أسقط بالأسفل، أهذا ما كنت تفعلينه؟".

فقالت توبينس: "على الإطلاق؛ لأنك ستكون قد أوقفتها بقدميك قبل أن يحدث ذلك. هل تود أن أريك؟".

قال تومي: "لا أعتقد ذلك؛ فالأمطار بدأت تزداد حدتها. أردت فحسب أن أعرف لماذا... لماذا تفعلين هذا؟ فلا أظن أنه ممتع على الإطلاق، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "هذا صحيح، إنه لشيء مخيف تمامًا، لكنني أردت فحسب أن أستكشف الأمر و...".

"وكنت تسألين عن هذه الشجرة، صحيح؟ الشجرة الصنبورية الشائكة، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "بالفعل، كم أنت ذكي لتعرف بذلك".

فقال تومي: "بالطبع أعرفها، كما أنني أعرف اسمها الآخر".

فقالت توبينس: "وأنا كذلك".

فنظر كل منهما إلى الآخر.

وقال تومي: "لكنني لا أتذكره حاليًا، إن اسمها هو أرتي..."

فقالت توبينس: "حسنًا، إنه شيء من هذا القبيل، أعتقد أن هذا كافٍ تماما، أليس كذلك؟".

"ما الذي ستفعلينه داخل أشجار مليئة بالأشواك كهذه؟".

"حسنًا، لأنك حينما تبلغ نهاية التل، أقصد إذا لم تضع قدميك على الأرض لتوقف العربة تمامًا، فقد تسقط بين أشجار الأرتي...أو أيًا كان اسمها".

فقال تومي: "هل قلت أرتي...؟ ماذا عن أرتيكاريا؟ كلا، إنه اسم نبات القراص، أليس كذلك؟ أوه حسنًا، فليتسل كل منا حسب طريقته".

"كنت أجري بحثًا فحسب بشأن مشكلتنا الأخيرة".

"أتقصدين مشكلتك؟ أم مشكلتي؟ مشكلة من؟".

فقالت توبينس: "لا أعرف، أرجو أن تكون مشكلتنا على حد السواء".

"لكنها ليست واحدة من مشكلات بياترس، أو شيء من هذا القبيل؟".

"أوه كلا، الأمر وما باختصار أنني كنت أتساءل عن الأشياء الأخرى التي قد تكون مخبأة في هذا المنزل، ولذلك ذهبت لألقي نظرة على الألعاب الكثيرة التي بدت أنها مخزنة داخل صوبة زجاجية غريبة وقديمة، ربما تكون قد مرت عليها أعوام وأعوام، فوجدت عربة الحب الحقيقي، وكذلك ماتيلدا، الحصان الهزاز المثقوب عند معدته".

"مثقوب عند معدته؟".

"حسنًا، أجل، أظن أن سكان المنزل السابقين اعتادوا أن يدخلوا أشياء بداخله، فكان الأطفال، على سبيل المرح، يحشرون به بعض الأشياء، وكذلك كان به الكثير من أوراق الأشجار الجافة والأوراق المتسخة وأجزاء من منافض غريبة الأطوار، وقطع من الأقمشة الخفيفة والمزيتة التي كانت تستخدم لتنظيف الأشياء".

فقال تومي: "هيا، دعينا ندخل إلى المنزل".

٢

قالت توبينس وهي تمد قدميها نحو المدفأة التي كانت قد أشعلت نيرانها في غرفة الاستقبال انتظارًا لعودة تومي: "حدثني عن أخبارك، هل ذهبت إلى المعرض المقام بفندق ريتس لحضور العرض؟".

"كلا، في الواقع لم يكن لديَّ متسع من الوقت".

"ماذا تقصد بأنه لم يكن لديك وقت؟ ظننتك ذهبت من أجل ذلك".

"حسنًا، لا يفعل المرء دائمًا ما خطط للذهاب من أجله".

فقالت توبينس: "لا بد أنك ذهبت إلى أحد الأماكن وفعلت شيئًا ما".

"لقد وجدت مكانًا جديدًا بوسعي أن أضع فيه السيارة".

فقالت توبينس: "هذا جيد تمامًا، وأين ذلك المكان؟".

"بالقرب من هونسلو".

"ما الذي جعلك تذهب إلى هونسلو بحق السماء؟".

"حسنًا، لم أذهب في الواقع إلى هونسلو، لكن هناك يوجد مرآب للسيارات، فوضعت السيارة به ثم استقللت القطار".

"أي قطار، هل تقصد قطار لندن؟".

"أجل، أجل، فبدا أنه الوسيلة الأيسر للمجيء إلى هنا".

فقالت توبينس: "يلوح على وجهك إحساس بالذنب، لا تقل لي إن لدي منافسة تعيش في هونسلو؟".

فقال تومي: "كلا، ينبغي أن تسعدي بما كنت أفعله".

"أوه، هل كنت تشتري لي هدية؟".

قال تومي: "كلا، كلا، لم أكن أفعل ذلك للأسف. في الواقع، أنا لا أعرف أبدًا ما يمكنني أن أهديه إليك".

فقالت توبينس وهي مفعمة بالأمل: "حسنًا، أحيانا ما تكون تخميناتك صائبة. ما الذي كنت تفعله يا تومي، ولماذا عليَّ أن أسعد به؟".

فقال تومي: "لأنني أيضا كنت أجري بعض الأبحاث والتحريات".

فقالت توبينس: "يجري الجميع أبحاثًا في هذه الأيام، بما في ذلك المراهقون وأبناء الأخ والعم أو أبناء وبنات الآخرين، فجميعهم يجرون أبحاثًا. لا أعرف في الواقع ما هي الأمور التي يجرون فيها الأبحاث في هذه الأيام، ولكن أيًا كانت هي، فهم لا ينجزون هذه الأبحاث، بل كل ما في الأمر هو أنهم يشرعون بها، ويقضون الوقت في إجرائها، فيسعدون بأنفسهم، و... ولا أعرف ما النتيجة التي يصلون إليها بعد ذلك".

فقال تومي: "لقد ذهبت بيتي، البنت التي نكفلها، إلى شرق إفريقيا. هل سمعت أخبارًا عنها؟".

"أجل، إنها تحب المكان هناك، فهي مولعة بإجراء استقصاءات عن العائلات الإفريقية وكتابة المقالات عنهم".

فقال تومي: "هل تعتقدين أن هذه العائلات تقدر اهتمامها بشأنهم؟".

فقالت توبينس: "لا أعتقد ذلك؛ ففي القرية التي كان أبي مسئولًا عنها دينيًا أتذكر أن الجميع كانوا يكرهون هذا النوع من الزوار، وكانوا يطلقون عليهم "الفضوليون"".

فقال تومي: "هذا حقيقي بالفعل؛ فحديثك يشير إلى الصعوبات التي أتصدى لها، أو أحاول ذلك".

"ما الذي تجري فيه بحثًا؟ أرجو ألا يكون الأمر متعلقًا بماكينات جز العشب".

"لا أفهم لماذا خطر ببالك أن يكون بحثي متعلقًا بماكينات جز العشب".

فقالت توبينس: "لأنك دومًا ما تشاهد الكتالوجات الخاصة بها، ولطالما أردت شراء واحدة".

"في منزلنا هذا لا نجري إلا أبحاثًا تاريخية تتعلق بجرائم وأمور أخرى يبدو أنها وقعت منذ ستين أو سبعين عامًا على الأقل".

"على أية حال، هيا أخبرني بالمزيد عن مشروعاتك البحثية يا تومي".

فقال تومي: "لقد ذهبت إلى لندن، وفعلت بعض الأمور".

فقالت توبينس: "آه، كنت تجري بحثًا هناك تمامًا كما كنت أفعل أنا هنا، مع الاختلاف في أسلوب البحث، إلى جانب أن بحثي يختص بأمر يرجع إلى زمن بعيد".

فقال تومي: "هل تقصدين أنك بدأت تهتمين بمشكلة ماري جوردان؟ وهكذا تضعينها ضمن جدول أعمالك في هذه الأيام".

"لا شك أن الملامح بدأت تتكشف؟ أقصد ملامح اللغز، أو مشكلة ماري جوردان".

فقالت توبينس: "من المستحيل أن يكون هذا الاسم العادي هو اسمها الحقيقي، إن كانت ألمانية الجنسية - فيقال إنها كانت جاسوسة ألمانية أو شيئًا من هذا القبيل، لكنني أظن أنها كانت إنجليزية".

"أظن أن رواية الجنسية الألمانية لا تتعدى كونها خرافة".

"هيا يا تومي، أنت لم تخبرني بأي شيء فيما يخص بحثك".

"حسنًا، لقد حددت... حددت... حددت..."

فقالت توبينس: "هل ستظل تكرر هذه الكلمة كثيرًا؟ فأنا حقًا لا أفهم شيئًا".

"حسنًا، يصعب على المرء أحيانًا تفسير الأمور، لكني أقصد أن هناك طرقًا محددة لإجراء التحريات والأبحاث".

"أتقصد أمورًا تتعلق بالماضي؟".

"أجل، إلى حد ما، أقصد أن هناك أمورًا بوسعك اكتشافها، أمورًا يمكنك أن تستنبطي منها بعض المعلومات... فاستقصاء المعلومات لا يقتصر فحسب على ركوب الألعاب القديمة واستنطاق السيدات المسنات ليتذكرن بعض الأمور، واستجواب بستاني مسن ربما يخبرك بأشياء خاطئة تمامًا أو الذهاب إلى مكتب البريد وإزعاج الموظفين من خلال سؤال الفتيات هناك عن ذكرياتهن بشأن ما روته جداتهن لهن ذات يوم".

فقالت توبينس: "لقد حصلت منهم على بعض المعلومات".

فقال تومي: "وكذلك أبحاثي وتحرياتي ستثمر عن بعض المعلومات".

"كنت تجري تحريات إذن! ما الذى ذهبت لتطرح عليه أسئلتك؟".

"حسنًا، الأمر ليس هكذا بالضبط، لكن عليك أن تتذكري يا توبينس أنني من حين لآخر تربطني علاقات بأناس يعرفون كيف تسير هذه الأمور، فبوسعك أن تدفعي قدرًا من المال لأناس يجرون لك بعض التحريات من مصادر موثوق بها، تستطيعين الحصول منها على معلومات صحيحة".

"ما نوع هذه الأمور؟ وما نوع هذه الأماكن؟".

"حسنًا، هناك الكثير من الأمور. أولًا، يمكنك أن تكلفي شخصًا بفحص قوائم الوفيات، والمواليد، والزيجات، وهذه النوعية من البيانات".

"أوه، أظن أنك أرسلت أحدهم إلى سومرست هوس، هل يختصون هناك بشئون الوفيات مثلما الحال مع الزيجات؟".

"وكذلك المواليد، وليست هناك حاجة لأن يذهب المرء بنفسه؛ فيمكنك أن ترسلي أحدهم إلى هناك ليتقصى لك عن تاريخ وفاة أحد الأشخاص أو ليقرأ وصية آخر، أو ليتفحص سجل الزيجات أو شهادات ميلاد؛ فكل هذه الأشياء يمكنك التحري بشأنها".

فقالت توبينس: "هل أنفقت الكثير من الأموال؟ ظننت أننا سنرشد في الإنفاق بعد أن سددنا نفقات الانتقال إلى هنا".

"حسنًا، إذا أخذنا في الاعتبار الاهتمام الذي تولينه للمشكلات، فأنا أرى أن هذه الأموال أنفقت في موضعها".

"حسنًا، هل اكتشفت أي شيء؟".

"الأمر ليس بهذه السرعة، عليك أن تنتظري حتى ينتهوا من تحرياتهم، وبعد ذلك في حال حصولهم على إجابات لأسئلتك...".

"هل تقصد أن يأتي أحدهم ويخبرك بأن فتاة تدعى ماري جوردان وُلدت في ليتلد شيفيلد أو ما شابه لتذهب أنت بعد ذلك إلى هناك وتجري تحرياتك عنها. هل الأمر كذلك؟".

"ليس بالضبط، فهناك أيضًا تعداد السكان وشهادات الوفيات وأسباب الوفاة، وكثير من الأشياء التي يمكنك معرفتها".

فقالت توبينس: "حسنًا، يبدو ذلك مثيرًا للاهتمام، وهو ما يعني دائمًا أن ثمة شيئًا في الأفق".

"وهناك أيضًا ملفات في مقار الصحف بوسعك قراءتها وتفحصها".

"أتقصد تقارير عن أحداث ما... مثل جرائم القتل وقضايا المحاكم؟".

"ليس بالضرورة، لكن المرء يتصل ببعض الأشخاص من حين لآخر، أشخاص يعرفون بعض المعلومات، ومن ثم يمكنه أن يفتش عنهم، ويطرح عليهم بعض الأسئلة، ويوصل حبال الصداقات القديمة. تمامًا حينما كنا محققين خاصين في لندن، فأظن أن هناك من يستطيع إفادتنا ببعض المعلومات أو يخبرنا بالمسار الذي ينبغي أن نتبعه؛ فأمور كهذه تعتمد قليلًا على الأشخاص الذين يعرفهم المرء".

قالت توبينس: "أجل، هذا حقيقي تمامًا، فأنا أدرك ذلك من خلال خبرتي الشخصية".

قال تومي: "إن منهجك في التحري لا يقل جودة عن منهجي، وإن كان مختلفًا، فلن أنسى أبدًا اليوم الذي دخلت به نزل سانز سوشي - أو أيًّا كان اسمه - وشاهدتك وأنت جالسة تحيكين وتطلقين على نفسك السيدة بلينسوب".

قالت توبينس: "كان ذلك لأنني لم أجر بحثًا، أو أكلف أحد الأشخاص كي يجريه من أجلي".

فقال تومي: "كلا، لقد دخلت بطريقة مثيرة جدًّا إلى خزانة الملابس المجاورة للحجرة التي خضعت فيها لاستجواب دقيق، وهكذا علمت بالضبط أين بعث بي وما الذي طلب مني فعله، ومن ثم تمكنت من الوصول إلى المكان أولًا. كان الأمر يتلخص في التنصت ليس أكثر أو أقل، وبلا شك أنه كان تصرفًا مخزيًا".

فقالت توبينس: "لكنني أتيت بنتائج مرضية للغاية".

فقال تومي: "يبدو أن حدسك يرشدك دائمًا نحو النجاح".

"حسنًا، ذات يوم سيتكشف لنا كل شيء هنا، حتى لو كان يرجع لأعوام وأعوام، فلا يمكنني أن أصدق فكرة أن هناك شيئًا شديد الأهمية مخبأ هنا أو في حوزة أحدهم، أو يتعلق بالمنزل أو بالأشخاص الذين كانوا يعيشون به، فلا أستطيع أن أصدق ذلك. حسنًا، أعرف ما يجب أن نفعله كخطوة تالية".

فقال تومي: "ماذا يكون؟".

قالت توبينس: "أن نصدق ستة أشياء مستحيلة قبل الإفطار، إنها الساعة الحادية عشرة إلا الربع، وأنا أرغب في الذهاب إلى النوم؛ إذ إنني أشعر بالتعب، فالنوم يغالبني كما أن ثيابي متسخة تمامًا بسبب فحص هذه اللعب والأشياء القديمة الصدئة. أتوقع أن يكون هناك مزيد من الأشياء في هذا المكان الذي يدعى... بالمناسبة، لماذا يسمى كيه كيه؟".

"لا أعرف، هلا تهجيتها لي؟".

"لا أعرف، أظن أنها ك...ي...هـ. وليس ك... ك فحسب".

"هكذا تبدو أكثر غموضًا".

فقالت توبينس بريب: "يبدو الاسم يابانيًا".

"ما الذي يجعلك تعتقدين أنه اسم ياباني، فهو لا يبدو لي كذلك، بل يبدو اسم طعام، ربما كان نوعًا من الأرز".

فقالت توبينس: "سأذهب إلى السرير بعد أن أغتسل وأنفض عني خيوط العنكبوت هذه".

فقال تومي: "تذكري ستة أشياء مستحيلة قبل الإفطار".

فقالت توبينس: "أتوقع أن أكون أفضل منك في هذا الأمر".

فقال تومي: "أحيانا ما تفاجئينني".

فقالت توبينس: "وكثيرًا ما تكون على حق أكثر مني".

"وهذا يثير ضيقي أحيانًا. حسنًا، أظن أن هذه الأشياء بُعثت إلينا من أجل أن تختبرنا. من اعتاد أن يقول لنا هذا؟ وفي أحيانٍ كثيرة أيضًا".

فقال تومي: "لا يهم، اذهبي ونظفي نفسك من غبار سنوات الماضي. هل إيزاك ماهر في البستنة؟".

فقالت توبينس: "يرى نفسه كذلك، سنجربه...".

"للأسف، نحن لا نعرف الكثير عن البستنة، وهذه مشكلة أخرى".

الفصل ٤

جولة استكشافية بعربة الحب الحقيقي، وأكسفورد وكامبريدج

قالت توبينس وهي ترتشف قهوتها: "أجل، ستة أشياء مستحيلة قبل الإفطار، إن وجبة الإفطار أهم من التفكير في الأشياء المستحيلة. تومي هو من يسعى خلف الأشياء المستحيلة، أبحاث! حقًا! أتساءل عما إذا كان سيحصد شيئًا مما يفعله هذا". كانت توبينس خلال حديثها ترمق طبقا فوق المنضدة الجانبية به بيضة مقلية تتوسط قطعتي لحم تبدوان ذواتي مذاق لذيذ.

فمدت يدها إلى البيضة المقلية وقطعة من اللحم.

وقالت: "كم من الرائع أن يتناول المرء إفطارًا مختلفًا".

نجحت توبينس على مدار فترة طويلة في أن تستسيغ احتساء فنجان من القهوة في الصباح إلى جانب عصير البرتقال أو الليمونادة، ورغم كونه إفطارًا مناسبًا؛ إذ إنه يساعد على إنقاص وزنها، فإنه لم يحقق لها متعة المذاق الشهي، وبما أن التناقضات تبرز الأشياء وتقويها، فقد كانت أطباق الطعام

الساخنة التي تضعها على الطاولة الجانبية تضفي روحًا لهذه العصائر المساعدة على إنقاص الوزن.

فقالت توبينس: "أظن أن هذا هو الإفطار الذي كان يتناوله آل باركنسون في هذا المنزل، بيضة مقلية أو مسلوقة مع قطع اللحم وربما..."، فعادت بذهنها إلى ذكريات الروايات القديمة ثم استطردت: "أجل، وربما دجاج بارد ولذيذ! أوه أجل، إنني أتذكر ذلك، فقد كان مذاقه يبدو لذيذًا، وأعتقد أن أحدًا لم يكن يلقي بالًا بالأطفال حينها؛ إذ إنهم كانوا لا يحصلون من هذا الدجاج إلا على أرجله، إلا أنها كانت جيدة للغاية لأن بوسع المرء قضمها"، ثم صمت لبرهة بينما كانت تضع في فمها القطعة الأخيرة من اللحم.

ثم تناهى إلى سمعها ضوضاء غريبة تأتي من المدخل.

فقالت توبينس: "ما هذه الضوضاء؟ إنها تبدو مثل حفلة موسيقية مليئة بالنشاز".

فصمتت مرة أخرى وهي تمسك بقطعة من الخبز في يدها، فرأت ألبرت يدخل الغرفة.

فسألته: "ماذا يحدث يا ألبرت؟ لا تقل لي إن العمال يضربون على إحدى الآلات؟ هل يعزفون على الأرغون أو شيء من هذا القبيل؟".

فقال ألبرت: "إنه الرجل الذي جاء ليصلح البيانو".

"جاء ليفعل ماذا؟".

"ليضبط أوتار البيانو، لقد كلفتني باستدعائه".

فقالت توبينس: "يا إلهي! وقد نفذت ذلك بالفعل؟ كم أنت رائع يا ألبرت!".

بدا ألبرت سعيدًا، رغم علمه بسرعته المدهشة التي عادة ما يلبي بها الطلبات الاستثنائية التي يكلفه بها أحيانًا توبينس وأحيانًا أخرى تومي.

فقال ألبرت: "لقد قال إن البيانو كان بحاجة شديدة للإصلاح".

فقالت توبينس: "أتفق معه في هذا الرأي".

احتست توبينس نصف كوب من القهوة، ثم خرجت من الحجرة ومنها إلى غرفة الاستقبال لتجد بها شابًا منصبًا على إصلاح البيانو الضخم، الذي كان يظهر منه بعض من أجزائه الداخلية.

فقال لها الشاب: "صباح الخير يا سيدتي".

فقالت توبينس: "صباح الخير، إنني سعيدة للغاية أنك تمكنت من المجيء".

"آه، إن البيانو يحتاج إلى ضبط أوتاره".

قالت توبينس: "أجل، أعلم ذلك، فكما ترى نحن انتقلنا إلى المنزل حديثًا، وعادة ما يؤثر ذلك على آلات مثل البيانو، كما أن صوته لم يضبط منذ فترة طويلة".

فقال الشاب: "أجل، هذا جلي".

فضغط على ثلاثة أزرار مختلفة تباعًا، إلى جانب زرين أصدرا نغمة عالية ومبهجة، وآخرين أصدرا نغمة حزينة خافتة.

"إنه بيانو رائع يا سيدتي".

فقالت توبينس: "أجل، إنه ماركة إيراد".

"كما أنه من النوع الذي لا يستطيع المرء أن يحصل عليه بسهولة في هذه الأيام".

فقالت توبينس: "لقد تعرض لبعض المشكلات، فقد قصف منزلنا في لندن، ولحسن الحظ لم نكن متواجدين به، لكن الجزء الخارجي من البيانو تعرض حينها لأضرار كبيرة".

"أجل، أجل، فآلياته الداخلية تعمل جيدًا، ولم تكن بحاجة إلى كثير من الإصلاح".

مضى الحديث على نحو سار، فعزف الشاب المقطوعة الافتتاحية للمؤلف الموسيقي فريدريك شوبان وانتقل منها إلى عزف المقطوعة الموسيقية "الدانوب الأزرق"، ثم أعلن عن الانتهاء من عمله.

لكنه حذر توبينس قائلاً: "يجب ألا تتركيه طويلاً دون صيانة، فأنا أرى أن عليَّ أن آتي بعد فترة قصيرة وأتفحصه مرة أخرى؛ لأنني لا أعلم متى سيحتاج إلى ضبط مرة ثانية، فربما يكون هناك شيء لم ألاحظه أو أتمكن من اكتشافه".

افترقا بينما يمتدحان الموسيقى بصورة عامة والبيانو بصورة خاصة، ويتبادلان التحيات المهذبة بين شخصين اتفقا إلى حد كبير في أفكارهما التي تتعلق بالبهجة التي تدخلها الموسيقى على الحياة.

فقال الشاب وهو ينظر حوله: "يحتاج هذا المنزل إلى الكثير من العمل".

"حسنًا، أظن أنه كان مهجورًا لبعض الوقت عندما أتينا لنسكن به".

فقال الشاب: "لقد امتلكه أناس عديدون".

فقالت توبينس: "إن لهذا البيت تاريخًا طويلاً، أليس كذلك؟ أقصد الأشخاص الذين كانوا يقطنون فيه في الماضي والأشياء الغريبة التي حدثت به".

"آه، أظن أنك تتحدثين عن فترة زمنية بعيدة، ولا أعرف إذا ما كانت إبان الحرب الأخيرة أم السابقة لها".

فقالت توبينس في أمل أن تحصل منه على بعض المعلومات: "كان الأمر يتعلق بأسرار بشأن سلاح البحرية أو ما شابه".

"ربما، فكانت هناك أقاويل كثيرة عن هذا الموضوع، هكذا قيل لي، لكنني بالطبع لا أعرف شيئًا عنه بشكل شخصي".

فقالت توبينس: "لا بد أنك لم تكن قد ولدت حينها، فيبدو من ملامحك أنك لا تزال في عمر الشباب".

وعندما ذهب العامل، جلست توبينس على مقعد البيانو.

وقالت: "سأعزف أغنية أمطار فوق السقف"، حيث إن فني البيانو قد ذكرها بالمؤلف الموسيقي شوبان عندما عزف إحدى المقدمات الموسيقية الأخرى، فضربت على أزرار البيانو، وشرعت في عزف الأغنية بينما تدندن أنغامها حتى بدأت تتمتم بكلماتها.

إلى أين ذهب حبي الحقيقي؟

إلى أين ابتعد عني؟

الطيور تغرد عاليًا فوق أشجار الغابات.

متى سيعود إليَّ حبي الحقيقي؟

قالت توبينس: "أظن أنني أعزفها بالطريقة الخاطئة، لكن المهم هو أن البيانو أصبح حاليًا على ما يرام، أوه من المبهج أن أعاود العزف على البيانو ثانية". فبدأت تهمهم بعدها: "إلى أين ذهب حبي الحقيقي؟، متى سيعود حبي الحقيقي"، ثم قالت في تفكر: "الحب الحقيقي، الحب الحقيقي؟ أجل، لا بد أن هذه الأغنية إشارة لي، ربما من الأفضل أن أخرج وألقي نظرة على عربة الحب الحقيقي".

ارتدت توبينس حذاءها السميك وكنزة صوفية وخرجت إلى الحديقة، فقد كانت عربة الحب الحقيقي قد وضعت في الإسطبل الفارغ، بدلًا من إعادتها إلى مكانها السابق في كيه. كيه، فأخرجتها توبينس، وجرتها إلى قمة المنحدر العشبي، ونفضتها بضربات قوية من المنفضة التي جلبتها معها لتزيل عن العربة خيوط العنكبوت التي كانت لا تزال متراكمة في أماكن كثيرة بها، ثم ركبتها، ووضعت قدميها فوق الدواسات لتدفع بها وتحركها بالقدر الممكن في ظل حالتها المزرية هذه.

فقالت: "والآن يا حبي الحقيقي اهبطي من فوق التل رويدًا رويدًا".

رفعت توبينس قدميها من فوق الدواسات، ووضعتهما حيث تستطيع أن توقف بهما العربة متى لزم الأمر.

لم تكن حركة العربة سريعة رغم أنها كانت لا تحتاج إلا لثقل كي تهبط من فوق التل، لكن وعورة المنحدر ازدادت فجأة، ومن ثم زادت سرعة عربة الحب الحقيقي، فأنزلت توبينس قدميها سريعًا لتوقف العربة حتى وصل الاثنان إلى الجزء الأكثر وعورة من الأشجار الشائكة عند نهاية التل.

فقالت توبينس وهي تخرج نفسها من العربة: "هذا مؤلم للغاية".

بعد أن خلصت نفسها من أشواك الأشجار ونظفت ثيابها، نظرت حولها، فوجدت أنها وصلت إلى شجيرات سميكة تؤدي إلى التل في الاتجاه المعاكس؛ وقد كانت هناك شجيرات لنباتات الوردية والكوبية، فقالت توبينس في نفسها إن هذه الشجيرات ستصبح ذات مظهر خلاب في وقت لاحق من العام، حيث إنها لم تكن تحمل حينها أية لمحة من الجمال، بل كانت مجرد أحراش، إلا أنها انتبهت أن هناك آثارًا لوجود ممر يتوسط شجيرات الأزهار المختلفة، لكنه كان مكسوًّا بالحشائش، ورغم ذلك كان من الممكن تعقب مساره، فكسرت توبينس بعض الفروع، وقطعت طريقها نحو الشجيرات الأولى التي تحف الممر ونجحت في متابعة تسلق التل حتى انتهى، وكان من الواضح أن أحدًا لم تطأ قدمه بالممر أو تسير عليه منذ سنوات.

فقالت توبينس: "أتساءل إلى أين ينتهي هذا الممر، لا بد أن هناك سببًا لوجوده".

كان الممر يتخذ انعطافات حادة في اتجاهات معاكسة ما جعله ملتويا، وجعل توبينس تدرك ما قصدته أليس في بلاد العجائب بقولها إن الممر كان يدور فجأة ويغير اتجاهه، إلى أن بدأت تقل أعداد الشجيرات وتحل محلها نباتات الغار، ربما تماشيًا مع الاسم الذي منح لمنزلهم، حيث كان يتوسط هذه النباتات درب حجري ضيق ينتهي بأربع درجات مغطاة بالطحالب تؤدي إلى مشكاة بدا أنها كانت مصنوعة من المعدن الذي استبدل فيما بعد بالزجاجات. كانت هذه المشكاة أشبه بضريح يضم داخله قاعدة يعلوها تمثال حجري متداع، وقد كان هذا التمثال لصبي يحمل سلة فوق رأسه، فانتاب توبينس إدراك مفاجئ.

وقالت: "إنه نوع من الأشياء التي يستطيع المرء أن يؤرخ من خلالها أحد الأماكن، فهو يشبه تمامًا التمثال الذي كانت تضعه العمة سارة في حديقتها، حيث كانت تزرع بها أيضًا الكثير من نباتات الغار".

عادت توبينس بذاكرتها إلى العمة سارة، التي كانت تزورها من حين لآخر بينما كانت طفلة صغيرة، كما تذكرت أنها كانت تلعب لعبة تسمى خيول النهر، حيث كان كل فرد ينطلق بطوق خاص به يتخيله حصانًا أبيض بلبدة وذيل غزير. كانت توبينس حينها تبلغ السادسة من عمرها، حيث كانت تتخيل أنها تجول بهذا الحصان عبر رقعة من الحشائش الخضراء الكثيفة أو

حول حديقة مزروعة بحشائش السافانا التي تتمايل أطرافها الريشية في الهواء، وكانت هذه الحديقة تنتهي بالممر ذاته الذي كان يؤدي إلى أشجار الزان، وكان هناك النوع ذاته من المشكاة والتمثال والسلة، وعندما كان حصان توبينس يفوز، كانت دائمًا ما تأخذ معها هدية وتضعها في السلة التي يحملها الصبي؛ وفي الوقت ذاته كانت تقول إنها قربان وتتمنى أمنية، وكما تتذكر توبينس فإن الأمنية كانت دائمًا ما تتحقق.

جلست توبينس فجأة أعلى درجات السلم الذي صعدته وقالت: "لكن الأمنية كانت تتحقق... كانت تتحقق بالطبع لأنني كنت مراوغة، أعني أنني كنت أتمنى شيئًا أتأكد تقريبًا من أنه سيحدث، ومن ثم كنت أشعر بأن أمنيتي تحققت، وأن الأمر به نوع من الإثارة. كنت أعتبر الهدية جاءتني من ذلك، الصبي الصغير الذي كان بدينًا وقصيرًا. آه، يا لها من أمور مرحة تلك التي كان المرء يخترعها ويعتقد بها وينهمك في اللعب معها!".

فتنهدت وهبطت الممر مرة أخرى قاطعة طريقها إلى الصوبة الغامضة التي تسمى كيه كيه.

كانت الصوبة الزجاجية تبدو فوضوية كما هو شأنها دائمًا، وكان الحصان ماتيلدا لا يزال يبدو بائسًا ومهجورًا، إلا أن شيئين لفتا انتباه توبينس، فلقد رأت مقعدين من الخزف مرسومًا حولهما صور لإوز أبيض، وقد كان لون أحدهما أزرق غامقًا، والآخر أزرق شاحبًا.

فقالت توبينس: "لقد رأيت من قبل مقاعد مثل هذه عندما كنت صغيرة. أجل، كانت توجد في الشرفات، فأظن أن إحدى

MIT CHOSEN

عماتي كانت تمتلك مقاعد مثلهما، وقد اعتدنا أن نسميهما أكسفورد وكامبريدج. كانا شبيهين تمامًا بهذين المقعدين. أظن أنه كان مرسومًا عليهما بط... كلا، بل *كان* إوزًا، وكان بهما هذا الشيء الغريب ذاته الموجود بالمقعد، وهو ثقب يشبه حرف S. نوع من الثقوب التي تستطيع أن تضع بها الأشياء. أجل، أظن أنه لا بد أن أحضر إيزاك ليخرج هذه المقعدين وينظفهما جيدًا، لنضعهما بعد ذلك في الشرفة، أو التراس كما يصر أن يطلق عليها البناء، رغم أن كلمة شرفة تبدو أكثر بساطة لي. سنضعهما في الشرفة ونستمتع بالجلوس عليهما عندما يكون الطقس لطيفًا".

التفتت توبينس وبدأت تجري نحو الباب، لكن قدمها تعرقلت في كرسي ماتيلدا البارز...

فقالت: "يا إلهي! ما الذي فعلته؟".

كان ما فعلته هو أن قدمها تعرقلت بالمقعد الخزفي ذي اللون الأزرق الداكن فتدحرج على الأرض وتهشم إلى قطعتين.

فقالت: "يا إلهي! لقد دمرت أكسفورد حقًا. علينا أن نركز على كامبريدج إذن؛ فأنا لا أعتقد أنه من الممكن أن نلصق أكسفورد مرة أخرى، فالقطع معقدة تمامًا".

فتنهدت وتساءلت عما يفعله تومي.

٢

كان تومي بصحبة بعض أصدقائه القدامى يتبادل معهم ذكريات الماضي.

قال الكولونيل أتكينسون: "بات العالم عجيبًا في هذه الأيام، لقد سمعت أنك وزوجتك المدعوة برودينس... كلا، إنك تلقبها... أجل تلقبها بـ توبينس، سمعت أنكما انتقلتما للعيش في الريف بمكان قريب من هولوكوي. فما الذي ذهب بك إلى هناك، هل ثمة أمر معين دفع بك إلى اختيار هذا المكان؟".

فقال تومي: "حسنًا، لقد وجدنا أن ثمن المنزل زهيد للغاية".

"آه، حسنًا، إنه الحظ السعيد الذي أرشدك إلى هذا المنزل، أليس كذلك؟ ما اسمه؟ لا بد أن تعطيني العنوان".

"حسنًا، نحن نفكر في أن نسميه بيت الأرز؛ إذ إنه توجد هناك أشجار أرز بديعة للغاية، أما اسمه الأصلي فهو ذا لوريس (نبات الغار)، لكنه يبدو من مخلفات العصر الفيكتوري، أليس كذلك؟".

"ذا لوريس... ذا لوريس... هولوكوي، يا للدهشة! ما الذي *تخطط* له؟ ما الذي تخطط له؟".

فنظر تومي إلى وجهه العجوز ذي الشارب الأبيض الصغير.

فقال الكولونيل أتكينسون: "إنك تخطط لشيء، أليس كذلك؟ هل جندت في خدمة الوطن مرة أخرى؟".

فقال تومي: "أوه، إن سني المتقدمة لم تعد تسمح لي بذلك، فقد تقاعدت من هذه النوعية من الأعمال".

"آه، ربما تقول هذا الكلام فحسب لأنك أمرت بألا تقول شيئًا إلا ذلك. على أية حال، هناك معلومات كثيرة لم يكشف عنها في تلك القضية؟".

فقال تومي: "أي قضية؟".

"حسنًا، أظن أنك قرأت عنها أو سمعت بها، إنها فضيحة كاردينكتون التي ظهرت على السطح عقب الموضوع المعروف بالخطابات، وقضية الغواصة إملين جونسون".

فقال تومي: "أوه، بدأت أتذكر".

"حسنًا، في الواقع لم تكن القضية تتعلق بالغواصة، لكنها هي التي جذبت الانتباه للأمر برمته، وكانت هناك الخطابات التي كشفت المشهد من الناحية السياسية. أجل الخطابات، فلو أنهم استطاعوا *إيجادها* لاختلف الأمر، حيث كان من شأنها أن تلفت الأنظار لأشخاص عديدين كانوا حينئذ موضع ثقة الحكومة. من المذهل أن تحدث تلك الأمور، أليس كذلك؟ أتدري؟! دائمًا ما يكون الخائنون موجودين بيننا، ودائمًا ما يكونون موضع ثقة ورجالًا عظماء، بل آخر ما يمكن أن تثار حولهم الشبهات، والكثير من هذه الأمور لم يكشف عنها بعد"، وغمز الرجل بعينه.

واستطرد: "ربما أرسلت إلى هنا لتلقي نظرة، أليس كذلك يا عزيزي؟".

فقال تومي: "ألقي نظرة على ماذا؟".

"حسنًا، على منزلك هذا، ذا لوريس، أليس هذا هو اسمه؟".

"كان يطلق في بعض الأحيان توافه سخيفة عن هذا المنزل. لقد تفحصوه جيدًا، أقصد رجال الأمن والأشخاص الآخرين، إذا ظنوا أن ثمة دليلًا ثمينًا يوجد في مكان ما بالمنزل، وكانت هناك آراء ترجح أن الدليل أرسل إلى أحد البلاد، إيطاليا على سبيل المثال، قبل أن ينتبه أحدهم إليه؛ لكن هناك أيضًا من أعتقد أنه لم يخرج من البلاد وأنه لا يزال مختبئًا بها في أحد الأماكن التي لا بد أن تحوي سراديب، وأحجارًا لوحية، وأشياء مختلفة. هيا يا تومي يا عزيزي، أشعر بأنك على وشك أن تحل لغز قضية أخرى".

"أقسم لك إنني لا أفعل حاليًا شيئًا من هذا القبيل".

"حسنًا، هذا ما ظنه المرء عنك في السابق عندما كنت في ذاك المكان الآخر، في مستهل الحرب الأخيرة، تطارد الرجل الألماني، وكذلك المرأة التي كانت تحمل معها كتب أناشيد الأطفال. أجل، كانت مهمة شاقة، ولا يستبعد أن تكون قد كلفت حاليًا بواحدة أخرى!".

فقال تومي: "كل ما تتحدث عنه مجرد هراء، ينبغي أن تطرد هذه الأفكار من رأسك، فأنا بلغت من العمر أرذله".

"إنك لعجوز ماكر، إنني أتحدى أنك أفضل من هؤلاء الشبان الصغار، أجل، فأنت تجلس بيننا والبراءة على وجهك، كما لو أنه لا يوجد ثمة أمر في الأفق، لا ينبغي أن أطرح عليك أية أسئلة، فليس من الواجب أن أطلب منك البوح بأسرار الدولة، أليس كذلك؟ على أية حال، انتبه لزوجتك؛ إذ إنك تعلم أنها دائمًا ما

تورط نفسها في الأمر أكثر من المطلوب؛ فقد استطاعت في المرة الأخيرة أن تهرب بشق الأنفس إبان قضية إن أوه إم".

فقال تومي: "آه حسنًا، أعتقد أن توبينس تهتم فحسب بتاريخ هذا المكان مما يتعلق بالأشخاص الذين عاشوا هناك والأماكن التي كانوا يقطنونها، وكذلك أوصاف سكان المنزل السابقين، وأشياء من هذا القبيل، إلى جانب استزراع الحديقة؛ فهذا كل ما ننشغل به هذه الأيام؛ مجرد الحدائق، الحدائق وكتيبات شتلات النباتات".

"حسنًا، قد أصدق هذا الحديث في حال مر عام ولم يحدث شيء يثير الانتباه، لكنني أعرفك جيدًا يا سيد تومي، وكذلك أعرف السيدة توبينس، فكلاكما يكون ثنائيًّا رائعًا وأنا أتحدى أنكما ستتوصلان إلى شيء ما. فكما قلت لك، في حال ظهرت تلك الخطابات إلى النور، سيكون لها أثر عظيم على الجبهة السياسية وسيغضب أناس كثيرون مما ينظر إليهم الآن على أنهم مثال الاستقامة، لكن البعض يراهم خطرين، فضع في اعتبارك أنهم أشخاص خطرون، وأن هؤلاء الذين لا يمثلون خطرًا على صلة وثيقة *بهم*، ولذلك توخَّ الحذر أنت وزوجتك".

فقال تومي: "في الواقع، إن أفكارك تثير في نفسي الشعور بالحماسة الشديدة".

"حسنًا، لا تتخيل عن هذا الشعور لكن اعتن بالسيدة توبينس؛ فأنا أقدرها كثيرًا، فهي كانت ولا تزال فتاة ذكية".

فقال تومي: "لم تعد فتاة صغيرة كما تظن".

"لا تقل هذا عن زوجتك، ولا تتعود الحديث عنها بهذه الطريقة، فهي سيدة فريدة من نوعها، لكنني أشفق على أي شخص تضعه في تفكيرها، فربما خرجت اليوم لتكتشف أمرًا ما".

"لا أعتقد ذلك، فمن الأرجح أنها ذهبت لتحتسي الشاي مع إحدى السيدات المسنات".

"آه حسنًا، بوسع السيدات العجائز أحيانا أن يمنحنك معلومات مفيدة، وكذلك الأطفال ذوو الخمسة أعوام. فكل من تستبعد أن تحصل منه على معلومة تجده يبوح لك أحيانًا بحقائق لا يتخيلها أحد مطلقًا؛ فأنا يمكنني أن أقول لك أشياء...".

"أتأكد من أنك ستستطيع ذلك يا كولونيل".

فهز الكولونيل أتكينسون رأسه وقال: "آه حسنًا، على المرء ألا يبوح بالأسرار".

٣

في طريقه إلى المنزل، كان تومي يحدق من نافذة عربة القطار إلى المشاهد الريفية التي تمر سريعًا أمام عينيه، فقال في نفسه: "إنني أتساءل... أتساءل بحق: كيف لصديقي أتكينسون أن يعلم دائمًا ببواطن الأمور! لكن أية معلومات تلك التي قد تمثل أهمية في *الوقت الحالي*، فهو أمر ولى ومضى - أعني أنه ليس هناك أي شيء، فمن *المستحيل* أن تكون الحرب قد تركت

وراءها شيئًا، ليس في هذه الأيام"، ثم شرد ذهنه في الأفكار الجديدة التي حلت محل القديمة، أفكار السوق المشتركة، كما لو أن عقله *الباطن* هو من استدعاها وليس *وعيه*، حلت هذه الأفكار الجديدة نظرًا لأن الساحة أصبحت تضم أحفادًا وأجيالًا جديدة، أصبحت تضم شباب عائلات دائمًا ما كانوا ذوي شأن وثقل... شبابًا تولى مناصب ذات نفوذ وتأثير لأنهم ولدوا على ما هم عليه، وإذا *كان هناك احتمال* بأنهم غير مخلصين للأفكار القديمة، فمن *الممكن* استمالتهم، من الممكن أن يؤمنوا بمعتقدات جديدة أو معتقدات قديمة أعيد إحياؤها، أيًا كانت الطريقة التي تود أن تفكر بها في هذا الأمر. هل باتت إنجلترا في حالة غريبة، حالة مختلفة عن تلك التي كانت عليها في السابق، أم أنها دائمًا ما كانت على الحالة ذاتها؟ دائمًا ما يوجد أسفل السطح الأملس وحل أسود؛ فالمياه ليست صافية تمامًا، وصولًا إلى الحصى والقواقع الراقدة في قاع البحر، فهناك شيء يتحرك، شيء كامن في مكان ما، شيء كان لا بد من إيجاده وقمعه، لكن من المستحيل أن يحدث ذلك هنا، من المستحيل أن يحدث ذلك في مكان مثل هولوكوي.

٤

قالت توبينس في تلك الليلة وهي تنهض عن طاولة العشاء وتتوجه نحو الغرفة الأخرى لاحتساء القهوة: "هل استمتعت بأمسيتك؟ كيف حال رفاقك؟".

فقال تومي: "أوه، كما هم دائمًا، لكن كيف حال صديقتك المسنة؟".

فقالت توبينس: "لقد أتى فني البيانو، وهطلت الأمطار في الظهيرة، فلم أتمكن للأسف من رؤيتها، كان من الممكن أن أحصل منها على بعض المعلومات المهمة".

فقال تومي: "المعلومات المهمة هي التي حصلت عليها من رفيقي، وقد اندهشت لها كثيرًا. ما رأيك في هذا المكان يا توبينس؟".

"هل تقصد المنزل؟".

"كلا، لم أقصد المنزل، أظن أنني أقصد هولوكوي".

"حسنًا، أعتقد أنه مكان جميل".

"ماذا تعنين بجميل؟".

"حسنًا، إنها كلمة جيدة بالفعل، إلا أن المرء دائمًا ما يستخف بها، وهو ما لا أرى سببًا له. أفترض أن المكان الجميل هو المكان الذي لا تحدث فيه الأشياء التي لا تريد لها أن تحدث، ومن ثم تسعد لعدم وقوعها".

"آه، أظن أن هذه الرغبة ترجع لأعمارنا".

"كلا، لا أعتقد أن هذا هو السبب، بل لأنه من الجميل أن تعرف أن *هناك* أماكن لا تحدث بها أية أشياء، ورغم ذلك يمكنني القول بأن ثمة شيئًا كاد يحدث اليوم".

"ماذا تقصدين بكاد يحدث؟ هل ارتكبت حماقة ما يا توبينس؟".

"كلا، لم أفعل ذلك بالطبع".

"إذن ماذا تعنين بحديثك؟".

"أعني أن الجزء الزجاجي الذي يعلو الصوبة كان يهتز قليلًا قبل أيام، فسقط اليوم فوق رأسي وكاد يمزقني إربًا".

فقال تومي وهو ينظر إليها: "لا يبدو أنه مزقك إربًا".

"أجل، لأنني كنت محظوظة، ومع ذلك سبب لي سقوطه فزعًا".

"إذن لا بد أن نحضر صديقنا المسئول عن تولي هذه الأشياء، ماذا كان اسمه؟ إيزاك، أليس كذلك؟ يجب أن نحضره ليتفحص ألواح الزجاج الأخرى، أعني أنني لا أود أن ترهقي نفسك يا توبينس في مثل هذه الأمور".

"حسنًا، أظن أن المرء حين يبتاع منزلًا قديمًا لا بد أن يجد به شيئًا خطأ".

"هل ترين أن هناك شيئًا خطأ في هذا المنزل يا توبينس؟".

"ماذا تقصد بحق السماء بأن هناك شيئًا خطأ في هذا المنزل؟".

"حسنًا، أقول ذلك لأنني سمعت شيئًا غريبًا نوعًا ما عن المنزل اليوم".

"ماذا...شيء غريب عن هذا المنزل؟".

"أجل".

فقالت توبينس: "في الواقع يا تومي، هذا يبدو مستحيلا".

"لماذا يبدو مستحيلًا؟ هل لأن المنزل يبدو جميلًا وأنيقًا جدًا؟ أم لأنه مطلي ومزخرف بطريقة جيدة؟".

"كلا، فكل ما ذكرته من صنع أيدينا؛ إذ إن المنزل كان يبدو رثًا ومتهاويًا عندما اشتريناه".

"وبالطبع كان ذلك هو السبب في أن ثمنه زهيد".

فقالت توبينس: "تبدو غريب الأطوار يا تومي، ما الذي تقصده من حديثك؟".

"حسنًا، أقصد صديقنا الكولونيل أتكينسون الذي نلقبه بـ مونتي ذي الشارب".

"أوه، صديقنا العزيز، أجل، هل أرسل لي تحياته؟".

"أجل، بالطبع، لقد أكد عليَّ أن أحثك على الاعتناء بنفسك، وأن أعتني أنا أيضًا بك".

"دائمًا ما يقول ذلك، لكن لماذا يجب أن أعتني بنفسي هنا".

"حسنًا، يبدو أن هذا المكان، من بين الأماكن التي قد يكون عليك أن تعتني بنفسك خلال تواجدك بها".

"ماذا تقصد بحديثك يا تومي؟".

"توبينس، ماذا سيكون رأيك إذا قلت لك إن مونتي أشار أو ألمح - أطلقي عليها ما تريدين - أننا هنا ليس بصفتنا شخصين متقاعدين ومتقدمين في العمر بل كمحققين لا نزال في الخدمة؟ وأننا كلفنا من جديد بمهمة أخرى، كما حدث إبان قضية إن أوه إم، فهو يعتقد أن أجهزة الأمن السرية هي من

أرسلت بنا إلى هنا لاكتشاف شيء، أو بالأحرى لمعرفة ما الخطأ الموجود بهذا المكان".

"حسنًا، لا أعرف إن كنت تحلم يا تومي أم أن مونتي هو الذي يحلم إذا كان هو من أشار إلى هذا الكلام".

"حسنًا، لقد أشار إلى ذلك بالفعل، فيبدو أنه يعتقد أننا هنا لأننا كلفنا بمهمة لاكتشاف شيء ما".

"لاكتشاف شيء ما؟ أي شيء؟".

"شيء قد يكون مخبأ في هذا المنزل".

"شيء قد يكون مخبأ في هذا المنزل! تومي، هل جننت، أم أن مونتي هو من فقد صوابه؟".

"حسنًا، ظننت أنه ربما أصيب بالجنون، لكنني لست متأكدًا تمامًا من هذا الأمر".

"ما الذي يمكننا أن نجده هنا في المنزل؟".

"أظنه شيئًا أخفاه أحدهم هنا في الماضي".

"أتقصد كنزًا مدفونًا؟ أو مجوهرات تاج روسي مخبأ بالطابق الأرضي، أو شيئًا من هذا القبيل؟".

"كلا، لا أقصد كنزا، بل شيء من شأنه أن يمثل خطورة لأحدهم".

فقالت توبينس: "حسنًا، هذا غريب جدًّا".

"لماذا، هل وجدت شيئًا؟".

"كلا، بالطبع لم أجد أي شيء، لكن يبدو أن هناك فضيحة متعلقة بهذا المكان كانت قد وقعت قبل نحو عدة سنوات. لا أعني أن أحدًا يتذكر حاليًّا شيئًا بشأن ذلك، بل أقصد أحاديث كتلك التي ترويها لك جدتك، أو يثرثر بها الخدم. في الواقع، بياترس لديها صديقة يبدو أنها تعرف شيئًا عن الأمر، وأن ماري جوردان كانت متورطة به؛ فالأمر برمته تكتنفه السرية التامة".

"هل ترتابين في شيء يا توبينس؟ هل عدنا إلى أمجاد شبابنا... إلى الزمن الذي كان يعطي فيه أحدهم لإحدى الفتيات شيئًا سريًّا على متن سفينة *لوسوتينيا*... إلى حيث كنا نخوض مغامرة ونتعقب السيد براون الغامض؟".

"يا إلهي! لقد مضت على ذلك فترة طويلة يا تومي، فلقب المغامرين الشباب الذي كنا نطلقه على أنفسنا لم يعد واقعيًّا حاليًّا، أليس كذلك؟".

"نعم، لكنه كان واقعيًّا حينها، واقعيًّا جدًّا، فهناك الكثير من الأشياء تبدو حقيقية رغم أنك لا تستطيعين تصديقها. لا بد أنه قد مر على ذلك نحو ستين أو سبعين عامًا، أو حتى أكثر".

"ما الذي قاله مونتي بالضبط؟".

قال تومي: "خطابات أو أوراق من نوعية ما. شيء كان سيحدث أو أحدث بالفعل اضطرابًا سياسيًّا كبيرًا، فكان هناك شخص في منصب مهم لم يكن من المفترض أن يكون به، وكانت هناك خطابات أو أوراق أو شيء كان من شأنه أن يدمر

سمعته إذا ظهر إلى النور؛ فقد حدثت مكائد مختلفة، وقد مر على الأمر عدة أعوام".

فقالت توبينس: "هل حدث ذلك عندما كانت ماري جوردان على قيد الحياة؟ هذا مستبعد للغاية، يا تومي. لا بد أنك غرقت في النوم خلال عودتك بالقطار ورأيت كل ذلك في أحلامك".

فقال تومي: "حسنًا، ربما حدث لي ذلك بالفعل؛ فمن المؤكد أن هذا الكلام مستبعد".

فقالت توبينس: "حسنًا، أظن أننا أيضًا من الممكن أن نلقي نظرة على المكان مادمنا نعيش به".

فجالت بنظرها في أرجاء الحجرة.

ثم قالت: "ينبغي أن أستبعد أن يكون هناك أي شيء مخبأ في المنزل ، أليس كذلك يا تومي؟".

"لا يبدو أنه من المنازل التي من الممكن أن يكون بها شيء مخبأ؛ فقد سكن المنزل منذ ذلك الحين أناس كثر".

"أجل، توالت عليه عائلات كثيرة. حسنًا، أظن أنه ربما يكون هناك شيء مخبأ في العلية أو في القبو، أو ربما مدفون أسفل المنزل الصيفي".

فقالت توبينس: "على أية حال، سيكون الأمر ممتعًا للغاية؛ فحينما لا يكون لدينا شيء آخر لنفعله وعندما تهاجمنا آلام الظهر بسبب زراعة شتلات التوليب، قد تكون فرصة لنا لنلقي نظرة على المكان. إذن فلنتخيل الأمر وننطلق من نقطة

البداية: إذا أردت أن أخبئ شيئًا، فأين سأضعه، وأين من الممكن أن يبقى غير مكتشف؟".

فقال تومي: "لا أعتقد أن المكان هنا من الممكن أن يبقى به شيء غير مكتشف، فهذا مستحيل مع وجود بستانيين وآخرين يجولون بالمنزل، إلى جانب تعاقب العائلات ووكلاء المنازل عليه وأشياء أخرى".

"وما يدريك؟ فمن الممكن أن يكون هناك شيء مخبأ في إبريق الشاي بمكان ما".

وقفت توبينس وتوجهت نحو رف الموقد، ثم صعدت فوق أحد المقاعد وأنزلت إبريق شاي صينيًا، حيث رفعت غطاءه وأمعنت النظر به.

فقالت: "لا يوجد شيء هنا".

فقال تومي: "لأنه من المستبعد أن يخبأ شيء في هذا المكان".

فقالت توبينس بصوت يملؤه الأمل أكثر من اليأس: "هل تعتقد أن أحدهم كان يحاول أن ينهي حياتي فحل زجاج الكوة بالصوبة الزجاجية حتى يسقط فوق رأسي؟".

فقال تومي: "هذا مستبعد تمامًا؛ فمن المحتمل أنه كان يقصد أن يقع على إيزاك".

فقالت توبينس: "هذا مخيب للآمال، كنت أود أن أشعر بأنني هربت من مصير مميت".

"حسنًا، من الأفضل أن تنتبهي لنفسك، وأنا سأعتني بك أيضًا".

فقالت توبينس: "دائمًا ما تفرط في الاعتناء بي".

فقال تومي: "إنه للطف مني أن أفعل ذلك، فعليك أن تسعدي أن لديك زوجًا يهتم ويعتني بك كثيرًا".

فقالت توبينس: "ألم يحاول أحدهم أن يطلق *عليك* النار في القطار أو يخرجه عن مساره أو شيئًا من هذا القبيل؟".

فقال تومي: "نعم، لكن من الأفضل أن نلقي نظرة على مكابح السيارة قبل أن نقودها في المرة القادمة"، ثم أضاف: "هذا كله مثير للسخرية بالطبع".

فقالت توبينس: "هذا صحيح، فهو قطعًا مثير للسخرية، ومع ذلك...".

"ومع ذلك ماذا؟".

"حسنًا، مجرد *التفكير* في أشياء مثل هذه هو شيء من المرح".

"هل تقصدين أن ألكسندر قُتل لأنه علم شيئًا؟".

فقالت توبينس: "لقد علم شيئًا عن هؤلاء الذين قتلوا ماري جوردان"، ثم أضاء وجهها واستطردت: "لقد كتب يقول: "*كان واحدًا منا...*"، وأضافت مشددة على الحروف: "منا... سيكون علينا أن نعلم كل شيء عن "واحد منا" هذا ووجوده بهذا المنزل في الماضي. إنها جريمة علينا أن نحلها، ولا بد أن نعود إلى

الماضي كي نحلها، إلى حيث وقعت وأسباب حدوثها؛ فهذا شيء لم نحاول فعله من قبل".

الفصل ٥

مناهج البحث

قال تومي عندما عاد إلى المنزل في اليوم التالي: "أين كنت بحق السماء يا توبينس؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، لقد كنت في القبو".

فقال تومي: "هذا واضح لي... واضح للغاية، هل تعلمين أن شعرك مغطى تمامًا بخيوط العنكبوت؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، هذا أمر طبيعي؛ فالقبو مليء بخيوط العنكبوت، لكن لم يكن به أي شيء يثير الاهتمام، اللهم إلا بعض زجاجات من سائل الباي روم".

فقال تومي: "باي روم؟ إن هذا مثير للاهتمام".

فقالت توبينس: "حقًا؟ أهو صالح للشرب؟ يبدو لي أن هذا مستبعد".

فقال تومي: "كلا، ليس صالحًا للشرب، أظن أن الناس يضعونه على شعرهم، أعني الرجال، وليس النساء".

فقالت توبينس: "أعتقد أنك على حق، فأنا أتذكر أن عمي كان يستخدم هذا السائل، فكان أحد أصدقائه يجلبه له من أمريكا".

فقال تومي: "أوه حقًّا؟ يبدو هذا مثيرًا للاهتمام جدًّا".

فقالت توبينس: "لا أرى أن ذلك مثير للاهتمام؛ إذ إنه لن يساعدنا في أي شيء، أعني أنك لا تستطيع أن تخبئ أي شيء في زجاجة باي روم".

"أوه، هل هذا ما كنت تفعلينه؟".

قالت توبينس: "حسنًا، كان عليَّ أن أبدأ من أحد الأماكن، فإن كان ما قاله صديقك حقيقيًّا، فقد يكون هناك شيء مخبأ في هذا المنزل، غير أن من الصعب أن تتخيل طبيعة هذا الشيء والمكان المخبأ به؛ لأنك عندما تبيع منزلًا أو تموت وتتركه، من الطبيعي أن يتم إخلاؤه مما كان به من مقتنيات، أليس كذلك؟ أعني أن أي شخص سيرث المنزل، سيخرج منه الأثاث ويبيعه، أو في حال تركه في المنزل، سيأتي الشخص التالي ويبيعه، ومن ثم فإن أي شيء متروك هنا حاليًّا سيكون خاصًّا بالمستأجر قبل الأخير وليس أبعد من ذلك".

"إذن لماذا يريد أحدهم أن يصيبك أو يصيبني بمكروه أو يحاول أن يخرجنا من هذا المنزل إلا إذا كان هناك شيء موجود هنا ولا يريد لنا أن نجده؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، هذا ما تظنه *أنت*، فمن المستحيل أن يكون هذا الأمر حقيقيًّا على الإطلاق. على أية حال، لم يمر اليوم هباءً، لقد وجدت بعض الأشياء".

"هل تتعلق بـ ماري جوردان؟".

"ليس بالضبط؛ فالقبو كما قلت لا يحوي شيئًا يثير الاهتمام، لكني وجدت بعض الأشياء القديمة المتعلقة بالتصوير، حسبما أظن، مصباح تحميض أو شيء من هذا القبيل مما كانوا يستخدمونه في الماضي، وكان به زجاج أحمر، إلى جانب سائل الباي روم، لكن لم يكن هناك أي نوع من قطع البلاط التي يبدو أن المرء يمكنه نزعها وإيجاد شيء أسفلها، كما كانت هناك بعض الحقائب الكبيرة المتداعية، وبعض صناديق الصفيح وحقيبتان قديمتان، لكنها لا تصلح لأن يوضع بها أي شيء على الإطلاق؛ إذ إنها ستتهشم إذا ركلتها بقدميك".

فقال تومي: "إذن فلم نحصل على نتائج مرضية".

"حسنًا، *كان* هناك بعض الأشياء المثيرة للاهتمام؛ فقد قلت لنفسي، على المرء أن يقول لنفسه شيئًا، أظن أن من الأفضل أن أصعد إلى الطابق الأعلى وأنظف نفسي من خيوط العنكبوت قبل أن أبدأ في الحديث".

فقال تومي: "حسنًا، أعتقد أنه لا بد من ذلك، سأتمتع بالنظر إليك بشكل أفضل عندما تفعلين هذا".

فقالت توبينس: "إذا أردت أن تشعر بما كان يشعر به روميو وجولييت، فلا بد لك أن تنظر دائمًا إليَّ وتعتبر أن زوجتك - مهما كان عمرها - لا تزال تبدو بديعة في نظرك".

فقال تومي: "محبوبتي توبينس، أنت تبدين بديعة جدًا بالنسبة لي، فهناك كعكة من خيوط العنكبوت تتدلى من أذنك اليسرى تجعلك جذابة جدًا، حيث تشبه جديلة الإمبراطورة أوجيني التي كانت تظهر في صورها متدلية بطول عنقها، ويبدو أن كعكتك بها عنكبوت أيضًا".

فقالت توبينس: "أوه، لا أحب ذلك".

فأبعدت الخيوط بيدها، وصعدت إلى الأعلى ثم عادت إلى تومي لاحقًا، حيث كان ينتظرها كوب زجاجي، فنظرت إليه بارتياب.

وقالت: "لا تقل إنك *ستجعلني* أشرب الباي روم؟".

"كلا، فلا أعتقد أنني شخصيًا أريد أن أشربه".

فقالت توبينس: "حسنًا، أمن الممكن أن أستأنف ما كنت أقوله..."

قال تومي: "على الرحب والسعة، كنت ستفعلين ذلك في جميع الأحوال، لكنني أريد أن أشعر بأنك أكملت حديثك لأنني استحثثتك على ذلك".

"حسنًا، لقد قلت لنفسي: "إن كنت سأخبئ شيئًا في هذا المنزل لا أريد لأحد آخر أن يكتشفه، فما المكان الذي سأختاره؟".

فقال تومي: "أجل، هذا منطقي للغاية".

"وعلى إثره بدأت أفكر في الأماكن الموجودة هنا التي يمكن للمرء أن يخبئ بها الأشياء، وكان أحد الأماكن التي فكرت فيها بالطبع هو معدة ماتيلدا".

فقال تومي: "معذرة".

"معدة ماتيلدا، أقصد الحصان الهزاز الذي أخبرتك عنه، إنه حصان هزاز أمريكي".

فقال تومي: "يبدو أن هناك أشياء كثيرة تأتي من أمريكا، فقد قلت إن سائل الباي روم جاء من هناك أيضًا".

"حسنًا، على أية حال، يوجد ثقب في معدة هذا الحصان حيث كان إيزاك قد أخبرني بذلك؛ وكان هذا الثقب يحوي الكثير من الأوراق الغريبة والقديمة التي لم يكن أي منها مثيرًا للاهتمام، لكن هذا هو المكان الذي يمكن لأي أحد أن يخبئ به أي شيء، أليس كذلك؟".

"ربما".

"وعربة الحب الحقيقي بالطبع، لقد فحصتها مرة أخرى، حيث كان بها مقعد قديم متهالك لكنني لم أجد بها أي شيء، وبالطبع لم يكن بها أشياء شخصية تنتمي لأي أحد؛ ولذا فكرت ثانية، وفي النهاية وجدت أنه لا يزال أمامنا خزانة الكتب، فالأشخاص يخبئون الأشياء في الكتب، ونحن لم ننته بعد من ترتيب حجرة الكتب بالأعلى، أليس كذلك؟".

فقال تومي في أمل: "أظن أننا انتهينا من ذلك".

"ليس بعد، فلا يزال هناك الرف السفلي".

"إنه لا يحتاج إلى ترتيب، أقصد أنه لا يجعل المرء مضطرًا لأن يحضر سلمًا وينزل الكتب من فوقه".

"هذا صحيح، لذلك صعدت إلى الطابق الأعلى وجلست على الأرض وتفحصت الرف السفلي، فوجدت أن معظم الكتب الموجودة به تحوي خطبًا، خطبًا دينية لعصور ماضية، لكنها على أية حال لم تكن مثيرة للاهتمام، ولم يكن بها أي شيء لهذا أخرجتها كلها ووضعتها على الأرض، حتى اكتشفت شيئًا. في أسفل الرف يبدو أن أحدهم صنع فجوة في وقت ما، ووضع بها أشياء عديدة من بينها كتب ممزقة تضم كتابًا كبيرًا له غلاف ورقي بني، فأخرجته لأتفحصه؛ فالمرء لا يدري ما قد يجده به، أتعرف ماذا كان؟".

"ليست لديَّ أدنى فكرة، أهو الإصدار الأول من رواية *روبنسون كروزو* أم شيء قيم من هذا القبيل؟".

"كلا، إنه دفتر عيد ميلاد".

"دفتر عيد ميلاد، ماذا في ذلك؟".

"حسنًا، لقد اعتاد الناس امتلاكه، وهو يعود إلى زمن طويل، إلى عصر باركنسون، حسبما أظن، وربما قبل ذلك، لكنه كان باليًا وممزقًا، ولا توجد قيمة في الاحتفاظ به، فلا أظن أن أحدًا، كان يهتم به، لكنه قديم ويمكن للمرء أن يجد به شيئًا".

"أفهم ما تقصدينه، تعنين أن أحدهم قد يكون لصق به شيئًا".

"أجل، لكن أحدًا لم يفعل ذلك بالطبع، فالأمر ليس بهذه البساطة، لكنني لا أزال أتفحص الكتاب بعناية، ولم أنته من ذلك بعد، فربما يحوي أسماء مثيرة للاهتمام يستطيع المرء من خلالها أن يكتشف شيئًا ما".

فقال تومي بارتياب: "أظن كذلك".

"حسنًا، وهكذا نكون قد انتهينا من البحث في حجرة الكتب، فهذا الدفتر هو الشيء الوحيد الذي وجدته بين الكتب، فلم يكن هناك شيء آخر في الرف السفلي، أما المكان الآخر الذي من الممكن أن نلقي عليه نظرة فهو الخزانات بالطبع".

فقال تومي: "وماذا عن الأثاث والأدراج السرية الموجودة به، وكل ما هو على هذه الشاكلة".

"كلا يا تومي، أنت لا تنظر إلى الأمور بطريقة صحيحة، أعني أن كل الأثاث الموجود بالمنزل حاليًا هو *أثاثنا*؛ إذ إننا حملناه معنا عندما انتقلنا إلى المنزل لأنه كان فارغًا؛ فالشيء الوحيد الذي وجدناه هنا يعود إلى زمن بعيد هو الفوضى الموجودة بالصوبة المسماة كيه كيه، واللعب القديمة البالية، ومقاعد الحديقة، ومن ثم لا توجد قطعة أثاث قديمة في هذا المنزل، فمن المؤكد أن من كان يقطن هنا سابقًا، أيًا كان هو، أخذ الأثاث معه أو باعه. فكم من شخص سكن هذا المنزل منذ أن تركه آل باركنسون؛ لذلك لا يوجد شيء في المنزل يخصهم؛ لكنني وجدت شيئا ربما يفيد في الأمر".

"ما هذا الشيء؟".

"قوائم طعام صيني".

"قوائم طعام صيني؟".

"أجل، داخل تلك الخزانة القديمة المجاورة لحافظة اللحوم والتي لم نستطع فتحها. لقد كان مفتاحها مفقودًا، لكنني وجدته في أحد الصناديق القديمة، داخل كيه كيه، فوضعت قليلاً من الزيت عليه ونجحت في فتح الخزانة؛ لكن لم يكن بها شيء، كانت مجرد خزانة متسخة تحوي قطعًا متكسرة من الخزف، أظن أنها تخص آخر من كان يسكن هذا المنزل، لكنني وجدت في الرف العلوي لها كومة صغيرة لقوائم أطعمة صينية اعتاد الناس أن يقدموها في الحفلات إبان العصر الفيكتوري، وبدا أن الطعام الذي كانوا يتناولونه رائع جدًا، فالقوائم كانت تضم أكثر الأطباق لذة. سأقرأ عليك بعضًا منها عقب تناولنا العشاء، لقد كانوا حقا يتناولون طعامًا رائعًا. أتعلم كانت القائمة تضم نوعين من الحساء، أحدهما خفيف والآخر سميك، وكذلك نوعين من الأسماك، إلى جانب نوعين من المقبلات، ثم كانوا يتناولون بعدها طبقًا من السلطة أو شيئًا من هذا القبيل، ثم قطعة لحم وبعد ذلك، لست متأكدة ما الذي كانوا يتناولونه بعد ذلك، أظن أنه كان مثلجات الفواكه، أليس كذلك؟ تليها سلاطة سلطعون البحر! هل يمكن أن تتخيل ذلك؟".

فقال تومي: "كفى يا توبينس، لا أعتقد أنني أستطيع تحمل المزيد".

"حسنًا، لقد ظننت أن هذه القوائم ربما تكون مثيرة للاهتمام؛ فهي تعود إلى زمن قديم... زمن قديم جدًا".

"وما الذي تأملين في الحصول عليه من كل تلك الاكتشافات؟".

"حسنًا، الشيء الوحيد المحتمل أن أحصل منه على معلومات هو دفتر يوم الميلاد، فقد رأيت بداخله ذكرًا لشخص يدعى ينيفرد موريسون".

"حسنًا؟".

"حسنًا، أظن أن ينيفرد موريسون هو لقب عائلة السيدة جريفين التي ذهبت لأتناول معها الشاي قبل أيام؛ فهي أحد أقدم السكان الموجودين هنا، كما أنها تتذكر أو تعرف الكثير من الأمور التي حدثت قبل ميلادها؛ ولذا أظن أنها قد تتذكر أو تكون سمعت عن بعض الأسماء الأخرى الموجودة في دفتر يوم الميلاد، فربما نحصل على معلومات من ذلك".

فقال تومي بصوت لا يزال يملؤه الارتياب: "ربما، لكنني لا أزال أعتقد...".

فقالت توبينس: "لا تزال تعتقد ماذا؟".

"لا أعرف، دعينا نخلد إلى النوم، ألا ترين أن من الأفضل أن نترك هذا الأمر كليًا؟ لماذا نريد أن نعرف من قتل ماري جوردان؟".

"ألا تريد أن تعرف من قتلها؟".

فقال تومي: "نعم، لا أريد ذلك، لقد استسلمت... فأنا أقر بأنك ورطتني في الأمر".

فقالت توبينس: "ألم تكتشف أي شيء؟".

"لم يكن لديَّ وقت اليوم، لكنني حصلت على مصادر معلومات أخرى، فقد كلفت تلك المرأة التي حدثتك عنها من قبل، المرأة التي تتمتع بمهارة فائقة في البحث، لقد *كلفتها* ببعض الأمور".

فقالت توبينس: "أوه، حسنًا، فلنتطلع إلى الأفضل. إن الأمر برمته هراء، لكنه ربما يكون ممتعًا".

فقال تومي: "لكنني غير متيقن من أنه سيكون ممتعًا بالقدر الذي تعتقدينه".

فقالت توبينس: "أوه حسنًا، لا يهم، سنكون قد بذلنا كل ما بوسعنا".

فقال تومي: "حسنًا، لا تفعلي ذلك وحدك، فهذا ما يشعرني بالقلق كثيرًا عندما أكون بعيدًا عنك".

الفصل ٦

السيد روبنسون

قال تومي متنهدًا: "ترى، ما الذي تفعله توبينس الآن؟".

"معذرة، لم أسمع جيدًا ما قلته".

التفت تومي ممعنًا النظر في السيدة كولدن؛ حيث كانت امرأة، نحيلة القوام، ذات شعر رمادي يمر ببطء بمرحلة تعافٍ من غسول البيروكسيد الذي تستخدمه ليجعلها تبدو أصغر سنًا (وهو ما لم يتحقق)؛ ولهذا فهي تجرب حاليًا درجات مختلفة من اللون الرمادي الرفيع، والرمادي الضبابي، والأزرق المعدني وألوان أخرى جميلة ومناسبة لسيدة يتراوح عمرها ما بين الستين والخمسة والستين عامًا، وتكرس نفسها لخدمات البحث عن المعلومات، فكان يظهر على وجهها شموخ زاهد، وثقة فائقة في إنجازاتها.

فقال تومي: "أوه، لا شيء يا سيدة كولدن، مجرد... مجرد شيء كنت أفكر فيه".

فعاود تومي الحديث إلى نفسه متسائلاً عما قد تكون توبينس تفعله اليوم، لكنه حرص هذه المرة على ألا يتفوه بكلمة مما يفكر به، فقال في نفسه: إنني أتحدى أن ما تفعله حاليًا سيكون شيئًا سخيفًا؛ فهي تكاد تقتل نفسها بتلك اللعبة القديمة والغريبة التي حتمًا ستتهشم بها في مرة من المرات، ملقية إياها أسفل التل، وسينتهي بها الأمر وهي تعاني كسرًا في أحد أجزاء جسدها؛ ربما ينكسر فخذها، ففي هذه الأيام تحدث الكسور في هذا الجزء، رغم أنني لا أعرف سببًا لكون الفخذ معرضة للكسر أكثر من أي جزء آخر في الجسم؛ فقد تكون توبينس في هذه اللحظة تفعل شيئًا سخيفًا أو أحمق أو، إن لم يكن الأمر كذلك ستكون منهمكة في شيء قد لا يكون سخيفًا أو أحمق، بل سيكون خطيرًا للغاية... أجل، خطيرا، فمن الصعب دائمًا أن تبتعد توبينس عن الأخطار، فجال بباله حوادث الماضي المختلفة ثم طرأ على ذهنه اقتباس قاله بصوت عالٍ:

" بوابة المصير...

فيا أيتها القافلة، لا تعبري من الأسفل، ولا تغني في أثناء العبور.

هل سمعتم...

ذاك الصمت حين ماتت الطيور، لكن لا يزال هناك شيء يشدو مثل الطائر؟" .

فأدهشته السيدة كولدن حينما أجابت عليه في الحال: "إنها قصيدة للشاعر فليكر، وتكملتها كالآتي:

" قافلة الموت... كهف الكوارث، حصن الخوف".

فحدق تومي إليها، ثم أدرك أن السيدة كولدن ظنت أنه جاء إليها بمعضلة شعرية يريد منها أن تجري بحثًا بشأنها، وأن تعطيه معلومات كاملة عن اسم القصيدة التي جاء منها هذا الاقتباس وعن الشاعر الذي نظمها؛ إذ إن مشكلة السيدة كولدن كانت تكمن في أن الأبحاث التي تجريها تغطي مجالات عديدة.

فقال تومي معتذرًا: "كنت أتساءل فحسب عن زوجتي".

فقالت السيدة كولدن: "أوه".

كانت تنظر إلى تومي وفي عينيها تعبير مختلف عن سابقه؛ إذ إنها استنتجت أنه يواجه مشكلة زوجية، وعلى إثره فكرت أن تعرض عليه عنوان أحد مكاتب الاستشارات الزوجية حيث يمكنه إيجاد حل لمشكلاته ومتاعبه.

فبادرها تومي بقوله: "هل أحرزت نجاحًا في الاستفسار الذي تحدثت إليك عنه أول أمس؟".

"أجل، إنني لم أواجه صعوبة في ذلك؛ فإن سوميرست هوس، كما تعرف، مفيد جدًا في كل هذه الأمور. لا أعتقد أن هناك أي شيء محدد قد تريده من هناك، لكنني حصلت على أسماء وعناوين بعض المواليد، والزيجات، والوفيات".

"هل جميعهم يحملون اسم ماري جوردان؟".

"جوردان، أجل، هناك ماري، وماريا، وبولي جوردان، وهناك أيضًا مولي جوردان. لا أعرف إذا ما كانت هذه الأسماء تضم ما تريده، تفضل".

وأعطته ورقة صغيرة مطبوعة.

فقال لها تومي: "أوه، شكرًا لك، شكرًا جزيلا".

"وهناك أيضًا عدة عناوين، تلك التي طلبتها مني، لكنني لم أستطع الحصول على عنوان الرائد دالريمبل؛ فالأشخاص يغيرون عناوينهم باستمرار هذه الأيام. ومع ذلك، إذا انتظرت يومين فسيكون بين يديك كل المعلومات الصحيحة المتعلقة بذلك. هذا هو عنوان الطبيب هيزلتاين، إنه يعيش حاليًا في سوربيتون".

فقال تومي: "أشكرك كثيرًا، من الممكن أن أبدأ به".

"هل هناك أية أسئلة أخرى؟".

"أجل، لديَّ قائمة تضم حوالي ستة استفسارات، لكن بعضها قد لا يدخل في نطاق عملك".

فقالت السيدة كولدن بثقة شديدة: "أوه حسنًا، لا بد أن أجعلها تنضم إلى نطاق عملي. يمكنك بسهولة في البداية أن تعرف من أين يمكنك أن تعرف ما تريده من معلومات، إن لم يكن ذلك طريقة سخيفة في الحديث. أتذكر عندما اشتغلت بهذا المجال لأول مرة منذ فترة بعيدة أنني أدركت مدى فائدة النصائح التي يقدمها مكتب استشارات سلفريدج؛ إذ إنه بوسعك أن تطرح عليهم أكثر الأسئلة غرابة عن أكثر الأشياء غرابة، ودائمًا ما ينجحون في تقديم إجابات عنها أو إرشادك إلى المكان الذي من الممكن أن تحصل منه على المعلومات بصورة أسرع، لكنهم بالطبع لا يفعلون هذا النوع من الأمور في هذه الأيام،

فمعظم الاستفسارات التي تقدم حاليًا تتعلق بما إذا كنت تريد أن تنهي حياتك، وأشياء من هذا القبيل، كالاستفسارات القانونية المتعلقة بالوصايا والأمور الغريبة التي تخص المؤلفين، ووظائف الخارج، ومشكلات الهجرة. أوه أجل، إن أبحاثي تغطي مجالات واسعة جدًا".

فقال تومي: "أنا متأكد من ذلك".

"ومساعدة مدمني الكحوليات والمدخنين فهناك كثير من المؤسسات المتخصصة في ذلك الأمر؛ وستجد أن بعضهم أفضل من أية مؤسسة أخرى، لديَّ قائمة بأسمائهم، ومعظمهم موثوق به...".

فقال تومي: "سأتذكر ذلك متى وجدت نفسي أسير في طريق التدخين؛ حيث إن الأمر يعتمد على مدى نجاحي اليوم فيما أريده".

"أوه إنني متأكدة يا سيد تومي من أنني لا أرى أية علامات عليك تدل على إدمانك التدخين".

فقال تومي: "ألا يظهر الاصفرار على أسناني؟".

فقالت السيدة كولدن: "يزداد الأمر سوءاً حين يكون المدخن سيدة، فمن الصعب للغاية أن تجعل النساء يقلعن عن التدخين؛ فالرجل يعود إلى التدخين، لكن ليس بصورة ملحوظة، أما النساء فبعضهن يبدون على ما يرام وسعيدات للغاية بينما يتناولن عصير الليمون بكميات كبيرة، وبعد ذلك وسط إحدى ليالي الحفلات، يعدن إلى التدخين بشكل مفرط".

ثم نظرت إلى ساعة يدها.

وقالت: "يا إلهي! يجب أن أذهب إلى موعدي التالي، فلا بد أن أصل إلى شارع جروسفينور أبر".

فقال تومي: "أشكرك جزيلًا على كل ما فعلته"، ففتح الباب بأدب، وساعد السيدة كولدن على ارتداء معطفها، ثم عاد إلى الحجرة وقال: "لا بد أن أتذكر أن أقول لـ توبينس في المساء إن أبحاثنا حتى الآن أدت بي إلى أن أوحي لوكيلة البحث بأن زوجتي تدمن الكحوليات وأن زواجنا ينهار بسبب ذلك. يا إلهي! ماذا سيحدث بعد ذلك؟!".

٢

ما حدث بعد ذلك هو موعد في أحد المطاعم الرخيصة في حي طريق محكمة توتنهام.

قال رجل مسن وهو يكاد يقفز من مقعده الذي كان يجلس عليه بانتظار تومي: "غير معقول، هل من أراه أمامي هو توم الأصهب، لم أتعرف عليك في أول الأمر".

فقال تومي: "أجل، لم يتبق كثيرًا من شعري الأصهب، لقد أصبحت توم ذا الشعر الرمادي".

"آه، أصبحنا كلنا على هذه الحال، كيف حال صحتك؟".

"كما كانت دائمًا، تتدهور بالتدريج".

"متى كانت آخر مرة التقينا بها؟ أكان ذلك منذ عامين؟ أم ثمانية أعوام؟ أم أحد عشر عاما؟".

فقال تومي: "لقد ذهبت بعيدًا جدًّا، لقد تقابلنا على العشاء في مطعم مالتز كاتس الخريف الماضي، ألا تتذكر؟".

"آه، بالفعل، أشعر بالأسف لهدمه، لطالما شعرت أن هذا سيحدث له، فلقد كان مبنى جميلًا بالفعل، لكن الطعام الذي يقدمه كان سيئًا. حسنًا ماذا تفعل هذه الأيام يا عزيزي؟ ألا تزال تعمل في الجاسوسية؟".

فقال تومي: "نعم، لم أعد أعمل بمجال الجاسوسية".

"يا إلهي! يا لها من مضيعة لأنشطتك!".

"وماذا عنك يا موتنشوب؟".

"أوه، عمري المتقدم لا يسمح لي بأن أخدم بلادي بهذه الطريقة".

"ألا توجد قضايا جاسوسية في هذه الأيام؟".

"أظن أن هناك الكثير منها، لكنهم ربما يكلفون بها الشباب الأذكياء الذين يتخرجون في الجامعة متلهفين لإيجاد وظيفة. أين تقطن الآن؟ لقد أرسلت لك هذا العام بطاقة العيد. في الواقع، لم أرسلها حتى شهر يناير لكنها على أية حال عادت لي مدونًا عليها "لم يستدل عليه في هذا العنوان".

"لقد انتقلنا للعيش في الريف، بالقرب من البحر في هولوكوي".

"هولوكوي، هولوكوي؟ يبدو أنني أتذكر شيئًا... شيئًا يتعلق بعملك كان قد حدث هناك فيما مضى، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "لم يكن ذلك إبان فترة خدمتي، لقد سمعت عنه فحسب حينما انتقلت للعيش هناك، إنها أساطير الماضي التي مر عليها ستون عامًا".

"كان الأمر يتعلق بإحدى الغواصات، أليس كذلك؟ لقد تم بيع رسومات فنية تخص إحدى الغواصات إلى أحد الأشخاص. لا أتذكر لمن كان يتم بيع هذه الأشياء آنذاك، ربما لليابانيين، أو الروس، أو غيرهم. يبدو أنه دائمًا ما كان يتم الالتقاء بالجواسيس في متنزه ريجنت بارك أو شيء من هذا القبيل، حيث يقابلون موظفًا من إحدى السفارات كالسكرتير الثالث أو ما شابه. ليست هناك جاسوسيات جميلات كما كانت تصور لنا الروايات فيما مضى".

"أريد سؤالك عن بعض الأمور يا موتنشوب".

"أوه؟ تفضل، إن حياتي خالية تمامًا من الأحداث. هل تتذكر مارجيري؟".

"أجل، بالطبع أتذكرها، كدت أحضر حفل زفافكما".

"أعلم، لكنك لم تستطع الحضور لأنك ركبت القطار الخطأ أو ما شابه، حسبما أتذكر، القطار الذي كان متوجهًا لأسكتلندا بدلًا من سوثهول. على أية حال، لم تتمكن من الحضور، ولم ينجم عن ذلك الكثير".

"ألم تتزوج منها؟".

"بلى، تزوجتها، لكن لسبب أو لآخر لم يدم زواجنا طويلًا، فانفصلنا بعد عام ونصف، فتزوجت هي مرة أخرى، أما أنا فلم أتزوج، لكنني أعيش حياة لطيفة للغاية. إنني أقيم في ليتل بولن حيث ملاعب الجولف الرائعة، وشقيقتي تعيش معي. نحن نعيش معًا في وئام، فهي أرملة وتمتلك ثروة لا بأس بها، كما أنها صماء قليلًا لذلك لا تسمع ما أقوله، لكن الأمر لا يحتاج إلا إلى رفع صوتي قليلا".

"لقد قلت إنك سمعت عن هولوكوي. هل كان الأمر يتعلق بالتجسس؟".

"حسنًا، لأصدقك القول، لقد مرت على هذا الأمر فترة طويلة للغاية حتى إنني لا أستطيع تذكر الكثير عنه، لكنه أحدث ضجة حينئذ، فقد كان هناك ضابط بحري شاب ورائع، وكان فوق مستوى الشبهات تمامًا في كل شيء، وبريطانيًا مائة بالمائة، كما أنه كان يحوز ثقة من حوله، لكن لم يكن شيء من هذا حقيقيًا؛ فقد كان يعمل لحساب...لا أتذكر الآن من الذي كان يعمل لحسابهم، أظن أنها ألمانيا، قبل حرب عام ١٩١٤، أجل، أعتقد ذلك".

فقال تومي: "وأعتقد أنه كانت هناك أيضا امرأة متورطة في هذا الأمر".

"أتذكر أنني سمعت شيئًا عن شخصية تدعى ماري جوردان، أظن كذلك، لكنني لا أتذكر جيدًا الأمر. لقد نشرت الصحف أخبار القضية، فأظن أنها كانت زوجته، أقصد الضابط البحري

الذي كان فوق مستوى الشبهات. كانت زوجته هي التي تتصل بالروس... كلا، كلا، هذا ما حدث بعد ذلك. إنني أخلط الأمور؛ فجميع الأحداث متشابهة. رأت زوجته أنه لم يكن يحصل على المال الكافي، وهو ما يعني *أنها* لا تحصل على مال كاف، وهكذا...لكن لماذا تريد أن تفتش في هذه الأحداث القديمة؟ ما علاقتك بالأمر بعد انقضاء كل هذا الزمن؟ أعلم أنك كنت على صلة فيما مضى بشخص كان على متن السفينة *لوسيتينيا* أو ما شابه، أليس كذلك؟ فإذا عدنا بالزمان إلى الخلف، فسنجد أن هذه هي القضية التي كنت أنت أو زوجتك تحققان بها".

فقال تومي: "كلانا كنا نحقق بها، وقد مر على ذلك وقت طويل للغاية ولا أتذكر عنه أي شيء حاليًا".

"كانت هناك امرأة متورطة بالأمر، أليس كذلك؟ أظن أن اسمها كان جين فيش، أو شيئًا من هذا القبيل، أو أعتقد أنه كان جين ويل؟".

فقال تومي: "جين فين".

"أين هي حاليًا؟"

"لقد تزوجت من رجل أمريكي".

"أوه، هذا كله جيد للغاية. يبدو أن المرء دائمًا ما يتحدث عن رفاقه القدامى وعما حدث لهم. عندما تتحدث عن أصدقائك القدامى، إما أن تسمع أنهم ماتوا، وهو ما يصيبك بالدهشة لأنك لم تظن أن الموت غيَّبهم، أو تعرف أنهم لا يزالون على قيد الحياة وهو ما يزيد من اندهاشك. إنه عالم صعب للغاية".

فوافقه تومي وجهة نظره في أن العالم بات صعبا للغاية وهنا جاءهما النادل، ليبدآ في التفكير فيما سيتناولانه...وهكذا مضى الحديث عن الطعام.

٣

بعد الظهر كان تومي على موعد ثالث، ولكن هذه المرة كان مع رجل بائس أشيب يجلس في أحد المكاتب ويظهر عليه الضيق مما سيمضيه مع تومي من وقت.

قال: "حسنًا، لا أستطيع الجزم في ذلك، إنني أعلم تقريبًا ما تتحدث عنه، فقد كانت هناك أقاويل كثيرة حول هذا الموضوع آنذاك، وقد أحدث ضجة سياسية كبيرة، لكنني لا أمتلك حقًا أية معلومات عنه، فهذه النوعية من الأمور لا تدوم في الذاكرة طويلاً، صحيح؟ فسرعان ما يطويها النسيان عند تركيز الصحافة على فضيحة أخرى مشينة".

وبدأ يتحدث قليلًا عن بعض من لحظات حياته المثيرة، حينما خرج إلى النور شيء لم يكن يشك به مطلقًا، على إثر وقوع حدث غريب، فقال:

"حسنًا، لديَّ شيء واحد ربما يساعدك فيما تريده، ها هو ذا العنوان وقد حددت لك موعدًا أيضا مع صاحبه، إنه رجل لطيف وله معرفة بكل شيء؛ فهو رجل مهم للغاية، وهو لطيف معي للغاية، ومستعد دائمًا أن يسدي لي أية خدمات إن أمكن ذلك؛ لذلك استأذنته في أن يقابلك؛ فقد أخبرته بأن هناك أمورًا

تريد أن تعرف عنها جميع المعلومات، كما أخبرته كم أنت رجل لطيف وأشياء أخرى، وقد وافق على أن يلتقي بك، حيث كان قد سمع عنك بالفعل؛ لذا فقد رحب بمقابلتك في الساعة الرابعة إلا الربع، وها هو ذا العنوان، إنه مكتب في المنطقة التجارية بلندن، هل سبق لك لقاؤه؟".

فقال تومي بينما ينظر إلى البطاقة المدون عليها العنوان: "لا أعتقد ذلك، كلا".

"حسنًا، ما إن تنظر إليه حتى يتولد لديك انطباع بأنه لا يعرف أي شيء، فهو كبير الحجم وأصفر اللون".

فقال تومي: "أوه، كبير الحجم وأصفر اللون".

لم يوحِ إليه ذلك بمعلومات كثيرة.

فقال صديق تومي الأشيب: "إنه بلا ريب داهية واسع المعرفة. اذهب إليه، وسيكون بوسعه أن يخبرك ببعض *المعلومات*. حظًا سعيدًا يا عزيزي".

٤

بعد أن نجح تومي في الوصول إلى العنوان المقصود، وجد في استقباله رجلًا يتراوح عمره ما بين ٣٥ و٤٠ عامًا يرمقه بنظرة شخص لا يتورع عن فعل أسوأ الأشياء، فشعر تومي بأن ثمة شكوكًا تساور هذا الرجل بشأنه، فربما كان يشك في أنه يحمل معه قنبلة في أحد الصناديق المموهة، أو أنه يستعد لسرقة أو

خطف أي شخص أو أنه سيقوم بسطو مسلح، وهو ما جعل تومي يشعر بالقلق الشديد.

فقال الرجل بينما يتفحص سجل المواعيد: "لديك موعد مع السيد روبنسون! في أية ساعة؟ آه، في الرابعة إلا الربع، السيد توماس بيرسفورد، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "بلى".

"وقِّع هنا من فضلك".

فوقَّع تومي حيثما طلب منه الرجل.

ونادى الرجل: "جونسون".

فنهض من مكتب ذي لوح زجاجي شاب في الثالثة والعشرين من عمره، يبدو عليه التوتر، ويشبه الشبح في مظهره، فقال: "أجل يا سيدي".

"اصطحب السيد بيرسفورد إلى مكتب السيد روبنسون بالطابق الرابع".

"حسنًا يا سيدي".

فاصطحبه جونسون إلى مصعد يبدو كأنه يجيد التعامل مع نوعية البشر الذين يستقلونه، فدخل تومي المصعد بعد أن انفتحت أبوابه التي كادت تعتصره بينها حيث أغلقت على بعد سنتيمترات من عموده الفقري.

فقال جونسون: "إن الجو بارد في هذه الظهيرة"، وقد كان يظهر سلوكًا ودودًا نحو شخص سُمح له بأن يقترب من الشخصية المهمة الموجودة بالطابق الأعلى.

فقال تومي: "أجل، دائمًا ما يكون الطقس باردًا في فترة ما بعد الظهيرة".

فقال جونسون: "يقول البعض إن السبب يرجع إلى التلوث، بينما يرجعه البعض الآخر إلى الغاز الطبيعي الذي يستخرج من بحر الشمال".

فقال تومي: "أوه، لم أسمع بذلك".

فقال جونسون: "أنا لا أرى أن ذلك محتمل".

فعبرا الطابقين الثاني والثالث حتى وصلا إلى الطابق الرابع. فاصطحب جونسون تومي - الذي أفلت مرة أخرى بفارق سنتيمترات من أبواب المصعد بينما تنغلق - إلى ممر ومنه إلى باب. طرق جونسون الباب فسمح له بالدخول، ففتحه وأبقاه كذلك بينما كان يشير إلى تومي بالدخول وهو يقوله:

"السيد بيرسفورد يا سيدي، حسب الموعد المحدد".

خرج جونسون وأغلق الباب خلفه ليتقدم بعدها تومي إلى داخل الحجرة، فبدا له أن جزءًا كبيرًا من مساحتها يشغله مكتب ضخم يجلس خلفه رجل ضخم البنية، ثقيل الوزن، فارع الطول. فكان وجهه، كما وصفه له صديقه، كبير الحجم أصفر اللون. لم يكن تومي يعرف جنسيته، فمن الممكن أن ينتمي إلى أية جنسية، فشعر تومي بأنه ربما يكون أجنبيًا ... ألمانيًا مثلًا؟ أو أستراليًا؟ وربما يكون يابانيًا، أو قد يكون حتما إنجليزيًا.

"آه، السيد بيرسفورد".

فنهض السيد روبنسون وصافحه.

فقال تومي: "معذرة إذا كنت سآخذ من وقتك الكثير".

شعر تومي بأنه رأى السيد روبنسون من قبل، أو أن أحدًا أخبره به فيما مضى، لكنه في تلك المناسبة، أيًا كانت طبيعتها، شعر بشيء من الخجل لأنه كان واضحًا أن السيد روبنسون شخصية مهمة للغاية، وقد أدرك تومي الآن (أو بالأحرى شعر على الفور) بأنه لا يزال يتمتع بالقدر ذاته من الأهمية.

"نما إلى علمي أن هناك شيئًا تريد أن تعرف عنه بعض المعلومات، فقد أعطاني صديقك الذي يدعى... لا أتذكر، على أية حال، لقد أعطاني نبذة صغيرة عن الموضوع".

"لا أظن... أعني أنه شيء ربما لم يكن ينبغي أن أزعجك بشأنه، ولا أظن أنه شيء ذو أهمية، إن الأمر فحسب ... الأمر فحسب..."

"مجرد فكرة؟".

"إنها فكرة زوجتي".

"لقد سمعت عن زوجتك، وسمعت عنك أيضًا. دعني أر، كانت آخر قضية لكما هي إن أوه إم، أليس كذلك؟ إنني أتذكر ذلك، أتذكر كل الحقائق والأمور المتعلقة بها. لقد قبضت على الضابط الشاب، أليس كذلك؟ الضابط الذي كان يعمل، كما أتذكر في البحرية الإنجليزية، لكنه كان في الواقع نازيًا مهمًا للغاية، لا أزال بالمناسبة أطلق عليهم "النازيون"، أعرف بالطبع أن الوضع بات مختلفًا حاليًا؛ إذ إننا أصبحنا في عصر السوق المشتركة، وكلنا لا نزال نتلمس طريقنا. لقد أجدت في عملك

حينها، وأديت أداءً جيدا، وكذلك فعلت زوجتك؛ فأنا أتذكر كل كتب الأطفال التي كان بها الأناشيد، جوسي، جوسي، جاندر، أين تطوف؟ بالأعلى وبالأسفل وفي حجرة سيدتي، كان هذا هو العرض الذي كشف الأمر برمته".

فقال تومي باحترام شديد: "من الجميل أنك تتذكر ذلك الأمر".

"أجل، دائمًا ما يندهش المرء عندما يجد نفسه يتذكر أحد الأمور، فلقد طرأ على ذهني في تلك اللحظة. من السخيف للغاية أن المرء لم يشك في أن حقيقة الأمر لم تكن كما كانت تبدو له، أليس كذلك؟".

"بلى، كان عرضًا جيدًا".

"ما الأمر الذي جئت بشأنه؟ بماذا يتعلق؟".

فقال تومي: "حسنًا، لا شيء يذكر، إنه مجرد...".

"هيا، تكلم، لست بحاجة لكل هذه المقدمات، أخبرني فحسب عن القصة. استرح وتفضل بالجلوس، ألا تعرف، أو ستعرف عندما تتقدم في السن، أن إراحة القدمين أمر مهم".

فقال تومي: "أعتقد أنني تقدمت في العمر بالفعل، ولم يعد ينتظرني سوى الموت في الوقت المناسب".

"فلم يعد ينتظرني إلا التابوت في الوقت المناسب".

"ما كنت لأقول هذا! فأنت عندما تتجاوز سنًا معينة، قد يمتد عمرك لفترة طويلة. والآن ما الأمر؟".

فقال تومي: "حسنًا، باختصار، انتقلت أنا وزوجتي إلى منزل جديد، وما أدراك ما الانتقال إلى منزل جديد...".

فقال السيد روبنسون: "أعلم، أجل، أعلم هذه النوعية من الأمور، تقصد أن يأتي عمال الكهرباء ويفترشوا الأرض ويصنعوا الحفر، فتسقطوا بها و...".

"كان هناك بالمنزل بعض الكتب التي أراد أصحاب المنزل السابقون أن يبيعوها؛ فكانت تضم الكثير من كتب الأطفال، مثل مؤلفات هنتي وما شابه".

"أتذكره، أتذكر هذا المؤلف من أيام الصبا".

"وفي أحد الكتب التي كانت تقرؤها زوجتي وجدنا فقرة موضوعًا تحتها خط، بالأحرى كانت الحروف هي التي وضع أسفلها الخط، وعندما جمعنا هذه الحروف، كونت جملة، و... ما سأقوله لاحقا سيبدو سخيفًا للغاية...".

فقال السيد روبنسون: "حسنًا، هذا مبشر للغاية، فإن كان هناك شيء يبدو سخيفا، أود دائمًا أن أسمع به".

"كانت الجملة تقول: *ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية. لا بد أنه واحد منا*".

فقال السيد روبنسون: "إنه لأمر مثير جدًا جدًا، لم أصادف أمرًا مثل هذا من قبل. كانت هذه هي الجملة التي كونتها الحروف، أليس كذلك؟ ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية. ومن الذي وضع الخطوط؟ هل كانت هناك أية دلائل على ذلك؟".

"يبدو أنه كان صبيًا في سن الدراسة، واسم عائلته باركنسون، وهو مدفون هناك في مقابر دار العبادة".

فقال السيد روبنسون: "باركنسون، انتظر، دعني أفكر، باركنسون... أجل، كان هناك اسم مثل هذا له صلة ببعض الأمور، لكنني لا أتذكر من هو وما هي هذه الأمور وأين وقعت".

"ونحن متلهفون لمعرفة من هي ماري جوردان".

"لأنها لم تمت بصورة طبيعية، أجل، أظن أن الحادثة لها علاقة بمجال عملك، لكن الأمر يبدو غريبًا للغاية. ما الذي عرفتماه عنها؟".

فقال تومي: "لا شيء مطلقا، فلا يبدو أن أحدًا هناك يتذكرها أو يعرف عنها أي شيء. ليس هناك إلا شخص واحد قال إنها كانت تعمل ما نطلق عليه حاليًا *جليسة* أو مربية أو شيء من هذا القبيل. إنهم لا يتذكرون شيئًا؛ فقد قالوا إنهم كانوا يطلقون عليها مدموزيل أو فراولين. إن الأمر برمته صعب للغاية كما ترى".

"وقد ماتت، ما سبب موتها؟".

"أحدهم أحضر بالخطأ من الحديقة بعض أوراق قفاز الثعلب مع السبانخ، ثم تناولوها، لكن لا أعتقد أن ذلك هو سبب الوفاة".

فقال السيد روبنسون: "كلا، هذا ليس كافيًا لوفاتها، لكنك إذا وضعت بعد ذلك جرعة قوية من مركب الدجيتالين ألكوليد في القهوة وتأكدت من أن ماري جوردان تناولته في قهوتها، أو

في مشروبها فيما بعد، سيبدو... سيبدو أن سبب الوفاة هو أوراق قفاز الثعلب وأنها حادثة عارضة، لكن ألكسندر باركر، أو أيًا كان اسم هذا الصبي، استطاع بذكائه الحاد أن يعرف أن هذا لم يكن السبب وراء وفاتها، وكان يرى غير ذلك، أليس صحيحًا؟ هل هناك أي شيء آخر يا سيد بيرسفورد؟ متى حدث ذلك؟ إبان الحرب العالمية الأولى، أم الثانية، أم قبل ذلك؟".

"قبل ذلك، فهناك أقاويل تناثرها الأسلاف تفيد أنها كانت جاسوسة ألمانية".

"أتذكر تلك القضية، لقد أحدثت ضجة قوية؛ فأي ألماني كان يعمل في إنجلترا قبل عام ١٩١٤ عادة ما كان يقال عنه إنه جاسوس؛ فالضابط الإنجليزي المتورط في القضية كان دائمًا ما يعتبر "فوق مستوى الشبهات"؛ لكنني دائمًا أشك في أي شخصية تنعت بهذه الصفة، وقد وقعت هذه الأحداث منذ زمن بعيد، ولا أعتقد أن الصحف كتبت عنها في السنوات الأخيرة، أعني أنه لم يكتب عنها بالطريقة التي كانت تتبع مع المعلومات التي يفرج عنها من السجلات وتكشف إلى العامة".

"أجل، لكن الأمر برمته غامض".

فقال روبنسون: "أجل، كان الأمر يتعلق بأسرار الغواصة التي تم إفشاؤها آنذاك، وكذلك أخبار تتعلق بسلاح البحرية. فقد كثر الحديث عن هذا الجانب، وهو ما لفت انتباه الرأي العام، لكن كان هناك الكثير من الأمور الأخرى، فالقضية كان لها جانب سياسي أيضًا، إذ إن كثيرًا من ساستنا البارزين كانوا متورطين بها، وكانوا من النوع الذي يقال عنهم "إنهم

يتمتعون بنزاهة حقيقية"، وصفة النزاهة الحقيقية تعادل في خطورتها صفة فوق مستوى الشبهات حين يتعلق الأمر بالخدمة العسكرية. أتذكر أن ذلك كان في الحرب الأخيرة، لكن بعض الأشخاص كانوا لا يتمتعون بالنزاهة التي تنسب إليهم! فقد كان هناك رجل يعيش بالقرب من هنا في بيت ريفي على الشاطئ، وقد جمع حوله الكثير من التابعين المحبين لهتلر، فقالوا إن فرصتنا الوحيدة تكمن في الانضمام إليه، وقد كان يبدو رجلاً نبيلاً ذا أفكار رائعة تهدف إلى القضاء على الفقر والظلم والمرض، وأشياء من هذا القبيل. أوه أجل، كان ينفخ في بوق الفاشية دون أن يطلق عليها هذا الاسم. وإسبانيا أيضًا التي كان يتزعمها فرانكو، وجماعته في تلك الحقبة. بالإضافة إلى موسوليني الذي انطلق حينها، أجل، دائمًا ما يكون هناك صراع أفكار ومعتقدات قبل الحروب، أمور لم تعرف من قبل، ولم يسمع أحد عنها".

فقال تومي: "يبدو أنك تعرف كل شيء، معذرة، ربما يكون ذلك وقاحة مني، لكن من المثير جدًا أن تقابل شخصًا يمتلك معرفة بكل شيء".

"حسنًا، لقد تورطت بأمور كثيرة؛ فدائمًا ما كنت أنخرط في مثل هذه الأمور وأكون على اطلاع بما يحدث في الكواليس ووراء الستار، وأحيانًا ما كنت أسمع قدرًا كبيرًا من المعلومات من الأصدقاء القدامى المتورطين في الأمر حتى أخمص أقدامهم ومن ثم يعرفون الكثير عنه. أظن أنك بدأت تدرك ذلك، أليس صحيحًا؟".

فقال تومي: "أجل، هذا حقيقي تمامًا، إنني أقابل أصدقاء قدامى، كانوا قد التقوا بأصدقاء آخرين، وهناك الكثير من الأمور التي يعرفها أصدقاؤك وتعرفها أنت، والتي لم تلتفت إليها حينها، لكنك حاليًا حين *تسمعها* تثير اهتمامك".

قال السيد روبنسون: "أجل، أدرك ما تقصده، وإلى ماذا ترمي، فمن الممتع أن تصادف تلك الأمور".

فقال تومي: "المشكلة هي أنني لا أعرف حقًا، أعني، ربما نكون حمقى بعض الشيء. أعني أننا جئنا إلى هذا المنزل لنعيش به، حيث كان من المنازل التي طالما رغبنا في امتلاكها، وقد عدلنا من مظهره ليتناسب مع ذوقنا، ونحاول حاليًا أن نهذب الحديقة، لكنني لا أريد أن أتورط في هذه النوعية من الأمور مرة أخرى. إن الفضول وحده هو ما يدفعنا إلى البحث في أمر ماري جوردان؛ فهو أمر حدث منذ زمن بعيد وليس بوسعك إلا أن تفكر فيه أو ترغب في معرفة أسبابه، لكن ليس هناك جدوى من ذلك، ولن يخدم أي أحد".

"أتفهم ذلك، أنت تريد أن تعرف فحسب. هذه هي طبيعة البشر، وهذا هو ما يؤدي بنا إلى اكتشاف الأشياء؛ فالفضول هو ما يدفعنا إلى الذهاب إلى القمر، وإلى إجراء الاكتشافات تحت الماء، وإلى اكتشاف الغاز الطبيعي في بحر الشمال، وإلى معرفة أن البحر هو الذي يمدنا بالأكسجين وليس الغابات والأشجار، فالفضول يجعلنا نكتشف الكثير من الأشياء، وأظن أنه بدون الفضول سيصبح الإنسان مثل السلحفاة التي تعيش حياة مريحة للغاية؛ فهي تنام طوال الشتاء ولا تأكل إلا الحشائش،

ثم تستيقظ طوال الصيف. وهي بالمناسبة ليست حياة ممتعة، لكنها مسالمة للغاية، وعلى الجانب الآخر..."

"على الجانب الآخر، يمكننا أن نقول إن الإنسان أشبه بالنمس".

"جيد، أنت تقرأ لكبلينج، إنني سعيد للغاية، فهو لا ينال التقدير المناسب الآن، رغم أنه كان مؤلفًا رائعًا، ولا تزال كتبه جذابة للقراءة في هذه الأيام، فقصصه القصيرة رائعة، لكنني أعتقد أن هذه الروعة لم تدرك بعد".

فقال تومي: "لا أريد أن أكون أحمق، فلا أريد أن أورط نفسي في أمور لا علاقة لها بي، ولا تتعلق بأي شخص في هذه الأيام".

فقال السيد روبنسون: "وما أدراك أن هذا حقيقي".

فقال تومي الذي شعر بذنب شديد لأنه أزعج رجلاً مهمًا للغاية مثل السيد روبنسون: "ما أعنيه في الواقع هو أنني لا أحاول كشف الأمور لكوني أرغب في ذلك وحسب...".

"أظن أنك تحاول اكتشاف هذا الأمر لإرضاء زوجتك فحسب، أجل، لقد سمعت عنها، لكنني لم أتشرف بمقابلتها. إنها شخصية رائعة، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "أعتقد ذلك".

"إنني سعيد لسماع هذا، فأنا أحب الأزواج الذين يظلون ملازمين لبعضهم، ويستمتعون بعلاقتهم الزوجية إلى الأبد".

"أظن أنني أفضل حياة السلحفاة، أعني أننا الآن متقدمان في العمر والزمان أنهكنا، ورغم أننا نتمتع بصحة جيدة مقارنة

بعمرنا، إلا أننا لا نريد أن نتورط في أي شيء في هذه الأيام، ولا نحاول التدخل في شيء. نحن فحسب..."

فقال السيد روبنسون: "أعلم، أعلم، لا تعتذر عن ذلك. أنت تريد أن تعرف، مثلما يفعل النمس، تريد أن تعرف طبيعة أمر ماري جوردان تمامًا مثل السيدة توبينس. علاوة على أنه من خلال ما سمعته عنها من الآخرين، فهي ستنجح في معرفة الأمر بطريقة أو بأخرى".

"هل تعتقد أنها أكثر احتمالاً مني لأن تتوصل إلى هذا الأمر؟".

"حسنًا، لا أعتقد أنك متلهف لاكتشاف الأمور مثلها، لكنني أعتقد أنك ستنهمك في الأمر لأنك ماهر في البحث عن مصادر المعلومات؛ فليس من السهل إيجاد مصادر معلومات عن شيء مر عليه كل هذا الوقت".

"هذا ما يجعلني أشعر بالحمق لأنني أتيت إلى هنا وأزعجتك، لكنني لم أفعل ذلك من نفسي، بل كان موتنشوب هو من اقترح عليَّ ذلك. أعني..."

"أعرف عمن تتحدث، فقد كان لديه سوالف وكان سعيدًا بها في وقت ما؛ ولهذا السبب أطلق عليه هذا الاسم. إنه رجل لطيف، وقد أحسن في عمله إبان عصره. أجل، إنه أرسلك إليَّ لأنه يعرف أنني مهتم بأي شيء من هذا القبيل. لقد بدأت مبكرًا في البحث عن الأمور واكتشاف الأشياء".

فقال تومي: "والآن أصبحت على قمة المعرفة".

فقال السيد روبنسون: "من الذي قال لك ذلك؟ إنه هراء".

فقال تومي: "لا أعتقد ذلك".

فقال السيد روبنسون: "حسنًا، أحيانًا ما يسعى البعض إلى ارتقاء مكانة مهمة وأحيانًا ما تكون مفروضة عليهم، وأنا من ينطبق عليه الأمر الثاني، فقد فرض عليَّ بعض الأمور شديدة الإثارة للاهتمام".

"هذه القضية تتعلق... بفرانكفورت، أليس كذلك؟".

"آه، لقد سمعت عن الشائعات التي تتعلق بهذا الأمر، أليس كذلك؟ حسنًا، لا تفكر بهذا الأمر بعد الآن، فمن غير المفترض أن يعرف عنه الكثير. لا تعتقد أنني أعاملك بخشونة لأنك أتيت إلى هنا وتطرح عليَّ تلك الأسئلة، فبوسعي أن أجيب عن بعض من الأشياء التي تريد أن تعرفها. فإذا كنت تقول إن هناك شيئًا حدث منذ عدة سنوات، فهذا قد ينتج عنه معرفة أمر ربما... ربما يكون مثيرًا في هذه الأيام، أمر يوحي للمرء بمعلومات عن أمور قد تكون تحدث في هذه الأيام وحقيقية بما يكفي، فأنا لا أستبعد أي شخص أو أي شيء؛ لكن لا أعرف ما الذي يمكن أن أقوله لك، إنها مسألة مثيرة للقلق وتحتاج إلى سماع الآخرين واكتشاف أمور مضت عليها سنوات طويلة. إذا صادفت شيئًا رأيت أنه سيثير اهتمامي، فاتصل بي. سنستخدم كلمات مشفرة، لنشعر أنفسنا بالإثارة مرة أخرى، كما لو أننا ذوو أهمية. ما رأيك في أن تكون الكلمة المشفرة هي جيلي التفاح؟ ستقول إن

زوجتك تعد بعضًا من علب جيلي التفاح وتسألني عما إذا كنت أريده منها، وسأفهم ما تقصده".

"تقصد عندما... عندما أكتشف شيئًا عن ماري جوردان. لا أرى جدوى من مواصلة البحث في هذا الموضوع. فقد ماتت على أية حال".

"أجل، ماتت، لكن...حسنًا، أحيانًا ما يكون أفكار المرء عن الأشخاص خاطئة بسبب ما قيل له عنهم، أو ما كتب عنهم".

"تقصد أننا لدينا أفكار خاطئة عن ماري جوردان، أي أنها لم تكن مهمة على الإطلاق".

فقال السيد روبنسون: "ربما كانت مهمة جدًّا"، ثم نظر في ساعته وقال: "يجب أن أنهي المقابلة الآن، فلديَّ موعد مع أحدهم بعد عشر دقائق، إنه رجل مزعج للغاية، لكنه ذو مكانة رفيعة في الدوائر الحكومية، وأنت تعلم كيف تسير الحياة في هذه الأيام. إنها الحكومة... ولا بد أن نساندها... الحكومة التي لابد وأن تساندها في كل مكان، في المكتب، وفي البيت، وفي المتاجر، وفي اللقاءات التليفزيونية، فالحياة الخاصة هي أكثر ما نريده في هذه الأيام. أما أنت وزوجتك فبوسعكما ممارسة هذا النوع من المرح بعيدًا عن حياتكما الخاصة. من يدري؟ فقد تكتشف شيئًا، شيئًا ربما يكون مثيرًا للاهتمام. أجل، ربما تنجح في ذلك وربما لا".

"لا يمكنني أن أخبرك بالمزيد عن أمر ماري جوردان. أعلم بعض الحقائق التي قد لا يستطيع شخص آخر أن يخبرك بها، لكن ربما يأتي الوقت المناسب الذي أخبرك فيه بها؛ لكن بما

أن جميع من له صلة بهذا الأمر قد توفي، فهذا لن يكون أمرًا عمليًا".

"سأخبرك بشيء ربما يساعدك في تحرياتك. اقرأ عن هذه القضية، قضية الكوماندز ...لا أتذكر اسمه، فقد تمت محاكمته بتهمة التجسس، وكان يستحق الحكم. لقد خان وطنه وهذا حقيقي، لكن ماري جوردان..."

"نعم؟".

"أنت تريد أن تعرف شيئًا عن ماري جوردان. حسنًا، سأقول لك شيئًا قد يساعدك في وجهة نظرك. كانت ماري جوردان... حسنًا، يمكنك أن تطلق عليها لقب جاسوسة لكنها لم تكن جاسوسة ألمانية. لم تكن جاسوسة للأعداء. استمع إلى هذا يا بني، لا يسعني إلا أن أقول لك يا "بني"... لا يمكنني أن أستمر في مناداتك بـ "بني"

ثم خفض السيد روبنسون صوته ومال نحو المكتب قائلًا: لقد *"كانت واحدة منا"*.

المجلد ٣

الفصل ١

ماري جوردان

قالت توبينس: "لكن هذا يغير كل شيء".

فقال تومي: "أجل، أجل، هذا صحيح... لقد كانت صدمة كبيرة".

"ولماذا أخبرك بذلك؟".

فقال تومي: "لا أعرف... فقد جال بذهني أمران أو ثلاثة أمور مختلفة".

"هل هو... ما أوصافه يا تومي؟ إنك لم تخبرني بذلك".

فقال تومي: "حسنًا، إنه أصفر اللون، أصفر وضخم وسمين، ومظهره عادي للغاية، لكنه في الوقت ذاته، إذا كنت تدركين ما أقصده، ليس عاديًا على الإطلاق. إنه... حسنًا، إنه كما قال لي صديقي، واسع المعرفة".

"تبدو كما لو أنك تتحدث عن أحد مغني البوب".

"حسنًا، اعتدت استخدام تلك المصطلحات".

"أجل، لكن لماذا؟ لا شك أن ذلك كان سيكشف أمرًا لم يكن يريد له أن ينكشف، ألا تعتقد ذلك؟".

فقال تومي: "لقد انقضى الأمر ومضت عليه فترة طويلة كما ترين، وأظن أن الموضوع لم يعد به ما يمكن أن تكون له أهمية في هذه الأيام. انظري إلى كل المعلومات التي يسربونها حاليًا بصورة غير رسمية، فلم تعد هناك سرية مفروضة على الأمر، حيث تم كشف كل ما حدث، ما كتبه أحد الأشخاص وما حدث نزاع بسببه، وكيف تم إخفاء أمر آخر بسبب شيء لم يسمع عنه من قبل".

فقالت توبينس: "إنك تجعلني أشعر بالحيرة الشديدة عندما تقول أمورًا مثل هذه، فهذا يقلب الوضع رأسًا على عقب، أليس كذلك؟".

"ماذا تقصدين؟".

"حسنًا، أعني الطريقة التي كنا ننظر بها إلى الأمر، أعني... لا أعرف ماذا أعني!".

فقال تومي: "هيا، لا بد لك أن تعرفي ما تقصدينه".

"حسنًا، ما قلته هو أن الأمر انقلب رأسًا على عقب، أعني أننا وجدنا الحروف التي وضعت تحتها خطوط في كتاب *السهم الأسود*، وكان الأمر واضحًا بما يكفي، ... أحدهم وضع تلك الخطوط في الكتاب، وهناك ما يرجح أن يكون الصبي الذي يدعى ألكسندر هو من فعل ذلك، وكان يعني أن أحد الأشخاص... وهو الشخص المقصود بعبارة واحد منهم، أو كما قال، واحد

منا... ولا بد أنه كان يقصد أن أحد أفراد العائلة أو أحد الذين كانوا يقيمون في المنزل قد رتب لموت ماري جوردان، ونحن لم نعرف حتى الآن من هي ماري جوردان ما يزيد الأمر حيرة".

فقال تومي: "إن الأمر بالفعل محير جدًا".

"حسنًا، إنني أشعر بالحيرة أكثر منك؛ فالأمر يحيرني جدًا؛ فأنا لم أجد أي شيء يتعلق بـ ماري جوردان. على الأقل..."

"ما وجدته عنها هو أنها بدت كأنها جاسوسة ألمانية، أليس هذا ما تقصدينه؟ ألم تكتشفي ذلك؟".

"بلى، هذا ما كان يعتقد عنها، وظننت أنه حقيقي، إلا أننا الآن...".

فقال تومي: "أجل، إلا أننا عرفنا الآن أن هذا الأمر لم يكن حقيقيًا، بل إنها على العكس تمامًا من ذلك".

"يبدو أنها كانت جاسوسة إنجليزية".

"حسنًا، لا بد أنها كانت في مهمة أمنية أو جاسوسية لحساب إنجلترا، وقد أتت إلى هنا لاكتشاف شيء عن... عن... ما اسمه؟ أتمنى لو كانت ذاكرتي أفضل بشأن تذكر الأسماء، أقصد الضابط البحري أو ضابط الجيش أو أيًا كان من هو؛ ذلك الشخص الذي باع أسرار الغواصة أو ما شابه. أجل، فأظن أنه كانت تتواجد مجموعة صغيرة من العملاء الألمان المنشغلين في الترتيب لبعض الأمور، كما كانت الحال في قضية إن أوه إم".

"أجل، يبدو أن الأمر كذلك".

"ومن المحتمل أنها أرسلت إلى هنا لاكتشاف كل المعلومات المتعلقة بهذا الأمر".

"نعم".

"إذن فعبارة "واحد منا" لا تعني ما كنا نعتقد أنها تعنيه، فعبارة "واحد منا" تعني...حسنًا، لا بد أنه كان شخصًا يسكن هذا الحي، وله علاقة بهذا المنزل، أو كان في المنزل لسبب معين، ومن ثم فعندما ماتت ماري جوردان، لم تكن وفاتها طبيعية؛ إذ انتبه أحدهم لما كانت تفعله، وتمكن ألكسندر بدوره من اكتشاف الأمر".

فقالت توبينس: "ربما كانت تتظاهر بأنها تتجسس لحساب الألمان، وكونت علاقة صداقة مع الضابط البحرى... أيًا كان هو".

فقال تومي: "سأطلق عليه الكوماندر إكس إذا كنت لا تتذكرين اسمه".

"حسنًا، حسنًا، الكوماندر إكس. ربما كانت تربطها به علاقة صداقة".

فقال تومي: "وكان هناك أيضًا عدو يعيش هنا، وهو رئيس إحدى المنظمات الكبيرة؛ فقد كان يعيش في بيت ريفي بأحد الأماكن، أظن بالقرب من المرسى، وقد كتب الكثير من المواد الدعائية، واعتاد القول إن أفضل خطة يمكن أن نتبعها هي التحالف مع الألمان وأشياء من هذا القبيل".

فقالت توبينس: "إن الأمر برمته يثير الحيرة، فكل تلك الأشياء من خطط وأوراق سرية ومكائد وتجسس تثير الحيرة الشديدة. على أية حال، نحن نبحث في الأماكن الخاطئة".

فقال تومي: "ليس صحيحًا، لا أعتقد ذلك".

"لماذا لا تعتقد ذلك؟".

"حسنًا، لأنه لو كانت ماري جوردان قد أتت إلى هنا لتكتشف شيئًا، وإن كانت اكتشفت ذلك الشيء بالفعل، فربما عندما *اكتشفوا* - أعني الكوماندر إكس أو الآخرين، فلا بد أنه كان هناك أناس آخرون في الموضوع - أنها اكتشفت شيئًا..."

فقالت توبينس: "والآن لا تجعلني مشوشة مرة أخرى. فقولك مثل هذه الأمور يجعل الأمر مربكًا للغاية، حسنًا، واصل الحديث".

"حسنًا، عندما اكتشفوا أنها عرفت الكثير من الأمور، كان لا بد أن..."

فقالت توبينس: "وأن يسكتوها".

"تتحدثين بأسلوب فيليب أوبنهايم الذي كان يعيش بالتأكيد قبل عام ١٩١٤".

"على أية حال، كان لا بد لهم أن يسكتوا ماري قبل أن تستطيع نقل ما اكتشفته".

فقال تومي: "لا بد أنه كان هناك أكثر من ذلك، فربما عرفت شيئًا مهمًا، كأوراق أو وثائق مكتوبة، أو خطابات قد تكون أرسلت أو سلمت لأحدهم".

"أجل، أفهم ما تقصده، لا بد لنا أن نبحث بين أناس مختلفين، لكنها إن كانت واحدة من هؤلاء الذين كانوا سيموتون بسبب خطأ ارتكب بشأن الخضراوات، إذن فأنا لا أفهم ما يقصده ألكسندر بعبارة "واحد منا"، فربما لم يكن هذا الشخص واحدًا من *عائلته*".

فقال تومي: "يبدو أن الأمر كذلك، فلم تكن هناك حاجة لأن يكون الشخص من داخل المنزل، فمن السهل للغاية قطف الأوراق الخاطئة التي تشبه الخضراوات من الحديقة، وجلبها إلى المطبخ؛ ولكن دون أن تكون قاتلة في جرعتها، بل يقتصر الأمر على أن يصاب الأشخاص بوعكة صحية بعد تناولهم وجبة معينة فيذهبون إلى الطبيب، فيفحص الطبيب الطعام، ومن ثم يدرك أن أحدهم ارتكب خطأ بشأن الخضراوات. وحينها لن يعتقد أن هناك شخصًا كان قد فعل ذلك متعمدًا".

فقالت توبينس: "لكن في هذه الحالة كل من سيتناولون تلك الوجبة سيموتون، أو كانوا سيمرضون *ولا* يموتون".

فقال تومي: "ليس بالضرورة، أظن أنهم كانوا يريدون قتل شخص معين، وهو ماري جوردان، فوضعوا لها جرعة من السم في العصير *قبل* الغداء أو العشاء أو ما شابه أو في القهوة أو في أي مشروب احتسته بعد تناولها الطعام، مثل مادة الديجتالين، أو الأقونيطن أو أي ما يحتويه ورق قفاز الثعلب..."

فقالت توبينس: "أعتقد أن الأقونيطن يوجد في نبات قلنسوة الراعي".

فقال تومي: "لا داعي للتذاكي، فالأمر يتلخص في أن الجميع حصل على جرعة مخففة حتى يبدو الأمر كحادثة، ومن ثم أصيبوا بوعكة صحية خفيفة، لكن أحدهم مات. فإذا مرض معظم الأشخاص ذات يوم عقب تناولهم إحدى الوجبات، سواء أكانت العشاء أم الغداء، وتم فحص الطعام واكتشاف الخطأ الذي حدث كانت الأمور *ستسير* على هذا النحو؛ فالناس يخلطون بين الفطر وعش الغراب، والأطفال يتناولون بالخطأ الباذنجان القاتل لأنه يشبه الفاكهة، فالأمر يتلخص في خطأ يحدث، ما يترتب عليه إصابة الأشخاص بوعكة صحية، لكن ليس بالضرورة أن يموت الجميع، بل ربما يموت أحدهم فحسب، ومن ثم سيفترض حينها أنه مات لأنه يعاني حساسية للشيء الذي وضع في الطعام، ولذلك ماتت *ماري* جوردان *ولم* يمت الجميع، وقد أرجع سبب وفاتها إلى الخطأ الذي حدث، وعلى إثره لم يتفحصوا أو يتشككوا في أن هناك سببًا آخر لوفاتها".

فقالت توبينس: "ربما مرضت قليلاً مثل الآخرين قبل أن يوضع لها جرعة السم في الشاي الذي تناولته مبكرًا في الصباح التالي".

"إنني على يقين يا توبينس من أن لديك الكثير من الأفكار".

فقالت توبينس: "أجل، لديَّ أفكار عن هذا الجانب من الموضوع، لكن ماذا عن الأشياء الأخرى؟ أعني من وماذا ولماذا؟ من المقصود بعبارة "واحد منا"، أو بالأحرى "واحد منهم"، من الذي سنحت له الفرصة لقتلها؟ أكان أحد الذين يعيشون في هذا المنزل، أم كان صديقًا لأشخاص آخرين؟

أشخاص أحضروا خطابًا، ربما كان مزورًا، من أحد الأصدقاء يقول فيه: "أرجو الاعتناء بالسيد أو السيدة موراري ويلسون، أو أي اسم من الأسماء التي كانت تمكث هنا، " فهي متشوقة لرؤية حديقتكم الجميلة" أو ما شابه؛ فكل هذه الأمور سهلة للغاية".

"أجل أعتقد كذلك".

فقالت توبينس: "في تلك الحالة ربما يكون هناك شيء لا يزال موجودًا هنا في هذا المنزل من شأنه أن يفسر ما حدث لي اليوم والأمس أيضًا".

"ما الذي حدث لك يا توبينس بالأمس؟".

"لقد انخلعت عجلات هذه العربة البغيضة ذات الحصان التي كنت أهبط بها من التل قبل أيام، ومن ثم تعرضت لسقطة قوية أسفل التل داخل الأشجار الشائكة. وكدت... كدت أتعرض لحادث خطير؛ فهذا المسن السخيف الذي يسمى إيزاك كان لا بد له أن يفحصها ويطمئن إلى أنها سليمة؛ لكنه أخبرني بأنه *فحصها*، فقد قال لي قبل أن أركبها إنها على ما يرام".

"لكنها لم تكن كذلك".

"كلا، لكنه قال بعد ذلك إنه يعتقد أن أحدهم عبث بها وفكك عجلاتها أو ما شابه، ولذلك انخلعت العجلات".

فقال تومي: "توبينس، هل تعتقدين أن هذا هو الشيء الثاني أو الثالث الذي يحدث لنا هنا؟ هل تتذكرين الشيء الآخر الذي سقط فوقي في حجرة الكتب؟".

"هل تقصد أن أحدهم يريد التخلص *منا*؟ لكن هذا يعني..."

فقال تومي: "هذا يعني أنه لا بد وأن يكون هناك *شيء* - شيء مخبأ هنا...في هذا المنزل".

نظر تومي وتوبينس إلى أحدهما الآخر، واستغرقا لحظات للتفكير، فتحت خلالها توبينس فمها ثلاث مرات لتتحدث لكنها كانت تتراجع في كل مرة والعبوس على وجهها بينما تفكر، حتى تحدث تومي في النهاية.

"ماذا كان رأيه؟ ماذا قال عن عربة الحب الحقيقي؟ أقصد الرجل إيزاك".

"قال إن هذا كان متوقعًا لأن العربة متهالكة".

"لكنه قال إن أحدهم كان يعبث بها!" .

فقالت توبينس: "أجل، بالضبط، فقد قال: "آه، عادة ما يحاول هؤلاء الصبية تجربة العربة، فهؤلاء القردة الصغار يتسلون ويمرحون بخلع العجلات من الأشياء، وهكذا فعلوا بالعربة"، لكنني لم أر أحدًا منهم، فأظن أنهم يحرصون على ألا أمسك بهم وهم يفعلون ذلك؛ ولذا أعتقد أنهم ينتظرونني حتى أخرج من المنزل".

واستطردت: "وقد سألته إذا كان يعتقد أن هذا الأمر مجرد... مجرد عبث يمارسونه".

فقال تومي: "وبم أجاب؟" .

"لم يجد في الواقع ما يقوله".

فقال تومي: "أظن أنه نوع من الأذى المتعمد، فليس مستبعدًا أن يفعل أحدهم ذلك".

"هل تريد أن تقول إنك تعتقد أن ذلك كان مقصودًا بطريقة أو بأخرى حتى تنخلع العجلات عندما أركب العربة ومن ثم تتهشم بي... أوه، لكن هذا هراء يا تومي".

فقال تومي: "حسنًا، يبدو أنه هراء، لكن ليست كل الأمور هكذا، فهذا يعتمد على مكان وقوع الأمر وطريقة وسبب حدوثه".

"لا أفهم ما هو "السبب" الذي يمكن أن يكون وراء خلع عجلات العربة".

فقال تومي: "بوسعنا أن نخمن أكثر الأسباب ترجيحًا".

"ما الذي تعنيه بالأكثر ترجيحًا؟" .

"أعني أنه ربما يكون هناك من يريد لنا أن نرحل من هنا".

"لماذا؟ إن كان أحدهم يريد المنزل، فبوسعه أن يقدم لنا عرضًا بشأنه".

"أجل، يستطيع أن يفعل ذلك".

"حسنًا، إنني أتساءل... لم يكن أحد آخر يريد هذا المنزل، حسبما نعرف، أعني أنه لم يكن هناك من يلقي نظرة عليه بينما كنا نفعل ذلك؛ فقد بدا أنه عرض للبيع بثمن زهيد لا لشيء إلا لأنه قديم ويحتاج إلى الكثير من الإصلاحات".

"لا أستطيع أن أصدق أنهم يريدون إخراجنا من المنزل فحسب، لكن ربما يحدث ذلك لأنك تسببين لهم الإزعاج، وتطرحين عليهم الكثير من الأسئلة، وتنسخين الأوراق من الكتب".

"هل تعني أنني أثير أمورًا لا يريد لها أحدهم أن تثار؟".

فقال تومي: "شيء من هذا القبيل، أعني أنه إن قدر لنا أن نبغض هذا المكان، ومن ثم نعرض المنزل للبيع ونرحل، سيكون الأمر على ما يرام، وسيسعدون بذلك. لا أعتقد أنهم..."

"ماذا تقصد بـ "هم"؟".

فقال تومي: "ليست لديَّ فكرة، يجب أن نعرف ذلك لاحقًا، مجرد هم، فهناك نحن وهناك هم، لا بد أن نفصل بينهم في أذهاننا".

"ماذا عن إيزاك؟".

"ماذا تعني بذلك؟".

"لا أعرف، إنني أتساءل فحسب إن كان متورطًا في هذا الأمر".

"إنه رجل مسن للغاية، ويعمل هنا منذ فترة طويلة ويعرف بعض الأمور، فإن كان أحدهم أغراه بإعطائه خمسة جنيهات أو ما شابه، فهل تظنين أنه سيعبث بعجلات عربة الحب الحقيقي؟".

فقالت توبينس: "كلا، لا أعتقد ذلك، من المستحيل أن يكون بهذا الذكاء".

فقال تومي: "إنه ليس بحاجة إلى الذكاء ليفعل ذلك، بل سيحتاج إلى ذكائه فحسب ليقبل الخمسة جنيهات ومن ثم يخلع بعض المسامير أو يكسر القليل من الأخشاب هنا أو هناك حتى تتحطم العربة عندما تهبطين بها من التل في المرة القادمة".

فقالت توبينس: "أعتقد أن ما تتصوره ليس إلا هراء".

"حسنًا، وقد اعتدت أنت أيضًا تصور بعض الأمور التي أراها هراءً بالفعل".

فقالت توبينس: "أجل، لكنها تتسق - تتسق مع الأمور التي نسمعها".

فقال تومي: "حسنًا، وفقًا لتحرياتي أو أبحاثي، أطلقي عليها ما تشائين، يبدو أننا لم نعلم حتى الآن الأمور الصحيحة".

"حديثك يعني ما قلته للتو وهو أن الأمور انقلبت رأسًا على عقب. أعني أننا نعلم الآن أن ماري جوردان لم تكن عميلة للأعداء، بل كانت تعمل لحساب *الإنجليز*؛ فقد كانت هنا لغرض محدد، ربما نجحت في تنفيذه".

فقال تومي: "في هذه الحالة، دعينا نستوضح الأمور في ضوء هذه المعلومة الجديدة... كانت ماري جوردان تتواجد هنا لاكتشاف شيء ما".

فقالت توبينس: "ربما لاكتشاف شيء يتعلق بالكوماندر إكس، لا بد أن تجد اسمه، فمن السخيف أن نظل طوال الوقت ننعته بالكوماندر إكس".

"حسنًا، حسنًا، لكنك تعرفين مدى صعوبة تلك الأمور".

"وقد اكتشفت ماري هذا الشيء، ومن ثم نقلت ما اكتشفته لمن كانت تعمل معهم، فربما فتح أحدهم هذا الخطاب".

فقال تومي: "أي خطاب؟".

"خطاب المعلومات الذي أرسلته لمن كانت تتواصل معه".

"أجل".

"هل تعتقد أنه والدها أو جدها أو ما شابه".

فقال تومي: "لا أعتقد ذلك، لا أظن أن الأمور كانت تسير بهذه الطريقة. قد تكون اختارت فحسب أن تحمل اسم جوردان، أو ربما رأوا أنه اسم جيد لأنه ليست له علاقة بأي شيء، وخاصة إذا كانت ألمانية جزئيًا، وربما أتت من مهام أخرى كانت تفعلها من أجلنا وليس من أجلهم".

وافقته توبينس قائلة: "من أجلنا وليس من أجلهم، أي أنها كانت خارج البلاد، فعلى أية صورة جاءت إلى هنا إذن؟".

وأردفت: "أوه، لا أعرف، أظن أنه ينبغي أن نبدأ من جديد في البحث عن ذريعة وجودها في هذا المكان... على أية حال، لقد أتت إلى هنا ووجدت بعض المعلومات وأبلغت بها أحد الأشخاص أو لم تبلغه. أعني أنها ربما لم تكتب خطابًا، فربما تكون قد ذهبت إلى لندن بنفسها لتنقل هذه المعلومات من خلال مقابلة أحد الأشخاص في حديقة ريجينت بارك".

فقال تومي: "وهذه عادة ما تكون الطريقة الأخرى لنقل المعلومات، أليس كذلك؟ أعني أن تقابلي شخصًا من إحدى السفارات التي تتعاملين معها في حديقة ريجينت بارك و..."

"ويتم إخفاء أوراق المعلومات في فجوات الأشجار، هل تعتقد أنهم يفعلون ذلك حقًا؟ هذا يبدو مستبعدًا جدًا، فالأمر أشبه بالمراهقين الذين يضعون الخطابات العاطفية في فجوات الأشجار".

"أظن أن ما كانوا يضعونه هناك كان مكتوبًا كما لو أنه خطابات عاطفية بينما هو في الحقيقة خطابات مشفرة".

فقالت توبينس: "إنها فكرة رائعة، أظن فحسب أنهم... أوه يا إلهي! لقد حدثت واقعة ماري جوردان منذ عدة أعوام، والتوصل لشيء يتعلق بها بات صعبًا للغاية. فكلما عرفت معلومات أكثر، زادت حيرتك، لكننا لن نتوقف يا تومي، أليس كذلك؟".

فقال تومي متنهدًا: "لا أظن أننا سنتوقف الآن".

فقالت توبينس: "أتتمنى أن نتوقف؟".

"تقريبًا. أجل، حسبما أرى..."

فقاطعته توبينس: "حسنًا، لن أدعك تتخلى عن هذه القضية، كلا، وسيكون من الصعب عليك للغاية أن تبعدني عنها، أعني أنني سأواصل التفكير بها ما يسبب لي قلقا يؤدي بي إلى الامتناع عن تناول الطعام وكل شيء".

فقال تومي: "القضية هي، هل تعتقدين... إننا نعرف بطريقة ما جوهر هذه القضية، وهو التجسس، التجسس من خلال أعداء كانوا يضعون نصب أعينهم أهدافًا معينة، بعضها تم تنفيذه، وربما لم ينفذ بعضها الآخر؛ لكننا لا نعرف... حسنًا... لا نعرف من المتورط في القضية، أظن أنه كان يوجد هنا أناس ربما تواجدوا بين أجهزة الاستخبارات والأمن، أناس خائنون لكن وظيفتهم كانت إبداء الإخلاص للدولة".

فقالت توبينس: "أجل، سأتفق مع هذا الاحتمال، فهو يبدو مرجحًا".

"وكانت وظيفة ماري جوردان هي التواصل معهم".

"التواصل مع الكوماندز إكس؟".

"أجل، أعتقد ذلك، أو مع أصدقاء الكوماندز إكس والبحث عن أشياء أخرى؛ لكن من الواضح أنه كان من المهم لها أن تحضر إلى هنا لتحقق ذلك".

"هل تعني أن آل باركنسون - أظن أننا عدنا إلى آل باركنسون مرة أخرى قبل أن نعرف أين نحن من هذا الموضوع - هل كان آل باركنسون ينتمون إلى الأعداء؟".

فقال تومي: "يبدو ذلك مستبعدًا".

"إذن فأنا لا أرى معنى لكل ذلك".

فقال تومي: "أعتقد أن المنزل قد تكون له علاقة بالأمر".

"المنزل؟ حسنًا، لكن هناك من جاء وسكنه بعد آل باركنسون، أليس كذلك؟".

"بلى، هذا ما حدث، لكنني لا أظن أنهم كانوا يشبهون... حسنًا، يشبهونك يا توبينس".

"ماذا تقصد بذلك؟".

"أقصد أنه لم يرغب أحدهم في اقتناء كتب قديمة يفحصونها فيما بعد، ثم يكتشفون بها أشياء، وعلى إثره يتصرفون مثل النمس؛ فهم أتوا إلى هنا وعاشوا بالمنزل فحسب وأتوقع أن يكونوا قد خصصوا الحجرات العليا بما في ذلك حجرة الكتب للخدم ولم يدخلها أحد منهم. ربما هناك شيء مخبأ في هذا المنزل، ربما خبأته ماري جوردان في مكان

ما استعدادًا لتسليمه لشخص سيأتي من أجل الحصول عليه، أو إعطائه إياه من خلال الذهاب بنفسها إلى لندن أو إلى أي مكان ما بحجة تخترعها هي، مثل زيارة طبيب الأسنان، أو رؤية صديقة قديمة، إن الأمر سهل للغاية؛ فقد كان لديها شيء حصلت عليه، أو عرفته وهو مخبأ في هذا المنزل".

"أترى أنه لا يزال مخبأ في المنزل؟".

فقال تومي: "كلا، لا أعتقد ذلك، لكن من يدري، فقد يكون أحدهم خائفًا من أن نجده أو أن نكون قد وجدناه ويريد لنا أن نخرج من المنزل أو يريد أن يحصل على أي شيء يعتقد أننا حصلنا عليه وهو لم يحصل عليه في الماضي رغم بحثه عنه، حيث اعتقد حينها أنه مخبأ في مكان ما خارج المنزل".

فقالت توبينس: "أوه، يا تومي، هذا يجعل الأمر أكثر إثارة، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "هذا فقط ما نعتقده".

فقالت توبينس: "لا تكن متشائمًا، سألقي نظرة بداخل المنزل وخارجه...".

"ما الذي ستفعلينه، ستحفرين بحديقة المطبخ؟".

فقالت توبينس: "كلا، سأبحث بالخزانات، والسراديب، وما شابه. من يدري؟ أوه يا تومي!".

فقال تومي: "أوه يا توبينس، نحن نتطلع إلى أن نقضي حياتنا ما بعد التقاعد في هدوء وسلام".

فقالت توبينس بسرور: "المتقاعدون لا ينعمون بالسلام".

"إنها فكرة رائعة".

"ماذا؟".

"يجب أن أذهب وأتحدث مع بعض المتقاعدين المتقدمين في العمر، فأنا لم أفكر فيهم من قبل".

فقال تومي: "أتوسل إليك أن تعتني بنفسك".

وأضاف: "أعتقد أنه من الأفضل أن أمكث في المنزل وأنتبه إليك، لكن يجب أن أجري المزيد من البحث في لندن غدًا".

فقالت توبينس: "وأنا سأجري بعض البحث هنا".

الفصل ٢

بحث توبينس

قالت توبينس: "أتمنى ألا أكون قد سببت لك الإزعاج بمجيئي بهذه الطريقة! أعتقد أنه كان من الأفضل أن أتصل بك أولًا حتى أتأكد أنك لست خارج المنزل، أو مشغولة، أعني أنه ليس هناك شيء محدد أريده؛ لذا بوسعي أن أغادر في الحال إذا رغبت في ذلك، فلن أشعر بأية إهانة أو شيء من هذا القبيل".

فقالت السيدة جريفين: "أوه، إنني سعيدة برؤيتك يا سيدة توبينس".

فتحركت بضعة سنتيمترات بمحاذاة مقعدها حتى ترتكز بظهرها عليه بطريقة مريحة وتمعن النظر في وجه توبينس القلق بعض الشيء بينما تظهر هي ما يبدو أنه سعادة غامرة.

وأردفت: "إنه لسرور بالغ أن يأتي شخص جديد ويعيش هنا في هذا المكان؛ فقد اعتدنا أن نتعامل مع أي وجه جديد ينضم إلينا، أو بالأحرى وجهين جديدين، باعتباره هدية منحت إلينا،

بالطبع هدية! أتمنى أن تأتيا ذات يوم وتتناولا العشاء معي. متى سيعود زوجك، إنه يذهب إلى لندن معظم الأيام، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أجل، هذا لطف كبير منك، أتمنى أن تأتي لزيارة منزلنا عندما تنتهي به الإصلاحات ويصبح جاهزًا. دائمًا ما أظن أنها ستنتهي لكن ذلك لا يحدث أبدًا".

فقالت السيدة جريفين: "هكذا تكون الأحوال مع المنازل التي تحتاج إلى ترميم".

كانت السيدة جريفين تبلغ من العمر أربعة وتسعين عامًا، هكذا عرفت توبينس من مصادرها المختلفة التي تضم النساء اللاتي تقابلهن يوميًا، وإيزاك، وجويندا التي تعمل في مكتب البريد، وأشخاصًا آخرين مختلفين، لكن الوضعية المعتدلة التي اتخذتها نظرًا لأنها تزيل آلام الروماتيزم من ظهرها قد أعطتها مظهرًا جعلها تبدو أصغر من عمرها الحقيقي، ورغم وجهها المجعد، فإن شعرها الأبيض المتمرد، الذي تعلوه شريطة من الدانتيل مربوطة حول رأسها، ذكر توبينس بعض الشيء باثنتين من عماتها في الماضي، ولقد كانت السيدة جريفين ترتدي نظارات، وتضع سماعات أذن أحيانًا، وقد لاحظت توبينس أنها نادرًا ما تستخدمها. كما كان يبدو عليها اليقظة والقدرة على استكمال الحياة حتى الوصول إلى عمر المائة أو المائة وعشرة.

فاستفسرت السيدة جريفين: "ما الذي تفعلينه حاليًا؟ نما إلى علمي أن عمال الكهرباء انتهوا من أعمالهم بالمنزل، هكذا

قالت لي دوروثي، أقصد السيدة روجرز، فقد كانت خادمتي فيما مضى، وهي تأتي حاليًا مرتين في الأسبوع لتنظف المنزل".

فقالت توبينس: "أجل، حمدًا لله أنهم أنهوا عملهم، فقد كنت دائمًا ما أسقط في الحفر التي يصنعونها. في الواقع، جئت إلى هنا، من أجل ... حسنًا، ربما يبدو أمرًا سخيفًا لكنه شيء كنت أتساءل عنه فحسب... أظن أنك سترين أيضًا أنه شيء سخيف. لقد كنت أتفحص بعض الأشياء في منزلي، كرفوف الكتب القديمة وما شابه، حيث اشترينا مع المنزل بعض الكتب التي كانت في معظمها كتب أطفال مر عليها أعوام وأعوام، لكنني وجدت بينها بعض الكتب القديمة المفضلة لديَّ".

قالت السيدة جريفين: "أوه، لا بد أنك مستمتعة جدًا بقراءتك مرة أخرى بعض الكتب المفضلة لديك؛ فهناك رواية *سجين زندا*، أظن أن جدتي دائمًا ما كانت تقرؤها، لقد قرأتها مرة واحدة، وقد كانت ممتعة للغاية، فهي الرواية الرومانسية الأولى التي سمح للمرء بأن يقرأها، فلم يكن هناك تشجيع على قراءة الروايات، إذ إن أمي وجدتي لم تكونا توافقان على أن أقرأ الروايات وما شابه خلال الصباح، أو بالأحرى الكتب القصصية كما كان يطلق عليها. فلم يكن يسمح لي في الصباح إلا بقراءة كتب التاريخ أو الكتب ذات الموضوعات الجادة، لكن الروايات كان ينظر لها باعتبارها نوعًا من *اللهو* ولهذا كنت أقرؤها بعد الظهيرة".

فقالت توبينس: "أعلم ذلك، حسنًا، لقد وجدت بينها الكثير من الكتب الجيدة التي رغبت في قراءتها مرة أخرى مثل مؤلفات الكاتبة موليسورث".

فبادرتها السيدة جريفين: "*رواية غرفة النسيج*؟".

"أجل، لقد كانت إحدى رواياتي المفضلة".

فقالت السيدة جريفين: "حسنًا، دائمًا ما كنت أفضل رواية *مزرعة الرياح الأربعة*".

"أجل، لقد كانت موجودة أيضًا بينها إلى جانب العديد من الكتب الأخرى لمؤلفين مختلفين. على أية حال، في أثناء ذلك تفحصت الرف السفلي للكتب وظننت حينها أنه لا بد أن يكون قد تعرض لضرر ما، فربما رطمه أحدهم خلال نقل الأثاث؛ إذ إنه كان به ثقب انتشلت منه الكثير من الأشياء التي كانت في معظمها كتبًا ممزقة وقد وجدت بينها هذا الشيء".

قدمت للسيدة جريفين حزمة ملفوفة في ورقة بنية.

وقالت: "إنه دفتر يوم ميلاد، دفتر يوم ميلاد ذو طراز قديم، واسمك موجود به. إن اسمك، أتذكر أنك قلته لي، كان وينيفرد موريسون، أليس كذلك؟".

"بلى يا عزيزتي، صحيح".

"وقد كان مكتوبًا في دفتر عيد الميلاد، لذلك تساءلت ما إذا كنت ستسعدين بجلبه إليك لتلقي نظرة عليه؛ فقد تجدين

به الكثير من أصدقائك القدامى وأشياء أو أسماء مختلفة من شأنها أن تدخل المرح إلى قلبك".

"حسنًا، هذا لطف كبير منك يا عزيزتي، ولا شك أنني أرغب في رؤيته بشدة، فالمرء يسعد كثيرًا بقراءته تلك الأشياء المتعلقة بالماضي عندما يتقدم في العمر، إنها لروح طيبة منك".

أخرجت توبينس الدفتر وقالت: "إنه متهرئ وممزق بعض الشيء".

فقالت السيدة جريفين: "حسنًا، حسنًا، أجل، هذه كانت العادة قديمًا، لم يكن ذلك بعيدًا عن فترة صباي، أظن أنه كان أحدث ما ظهر في هذه الفترة؛ فجميع الفتيات اللواتي كن معي في المدرسة كن يقتنين هذا الدفتر، فكنت تكتبين اسمك في دفتر يوم ميلاد أصدقائك ثم يفعلون الشيء ذاته مع دفترك وما إلى ذلك".

فأخذت الدفتر من توبينس وفتحته وبدأت تقرأ صفحاته.

فتمتمت: "يا إلهي! يا إلهي! إنه يعيد إليَّ الذكريات، أجل، أجل، هيلين جيلبرت، أجل، أجل بالطبع، وديزي شيرفيلد، شيرفيلد أجل، أوه أتذكرها. لقد كانت تضع في فمها أحد هذه الأشياء التي تتعلق بالأسنان، أجل دعامة، أظن أنهم كانوا يطلقون عليها هكذا. وكانت دائمًا ما تنزعها من أسنانها، إذا كانت لا تتحملها كما تقول، وهناك أيضًا إيدى كرون، ومارجريت ديكسون، أجل، كانت معظم الفتيات يتميزن بخطهن الجيد، فقد كان خطي أفضل من خط الفتيات في هذه الأيام، كما هي

الحال مع الخطابات التي يكتبها أبناء أخي، فأنا حقًا لا أستطيع قراءتها؛ إذ إن خطهم أشبه بالخط الهيروغليفي، ويكون عليك أن تخمني معظم الكلمات. وهناك أيضًا مولي شورت، فقد كانت تعاني التلعثم في الكلام، إن هذا الدفتر يعيد إليَّ الكثير من الذكريات".

قالت توبينس: "لا أظن أن الكثير منهن على قيد الحياة، أعني..."، ثم صمتت وهي تشعر بأنها على وشك أن تقول شيئًا تعوزه اللباقة.

"أظن أنك تعتقدين يا عزيزتي أن الموت غيَّب معظمهن، حسنًا، أنت محقة في ذلك، فقد مات معظم هؤلاء النساء، ولكن لا يزال بعضهن على قيد الحياة، فكثير من الفتيات اللواتي كنت أعرفهن في صباي لا يزلن أحياء، لكنهن لا يعشن هنا، لأن الكثير منهن تزوجن وانتقلن للعيش في مكان آخر. فإما أن أزواجهن كانوا يعملون في الخدمة العسكرية وسافروا إلى الخارج، أو أنهم ذهبوا معًا إلى مدينة أخرى مختلفة؛ فهناك اثنتان من صديقاتي القدامى تعيشان في نورثمبرلاند، أجل، أجل، إنه أمر مثير للاهتمام للغاية".

فقالت توبينس: "أظن أنه لم يعد هناك أحد من آل باركنسون يعيش هنا؟ فأنا لا أرى اسم هذه العائلة في أي مكان".

"أوه كلا، كان ذلك بعد عصر آل باركنسون. هناك شيء تريدين معرفته عن آل باركنسون، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أوه، بلى، ولم يدفعني إلى ذلك إلا الفضول فحسب، فليس هناك شيء آخر يكمن وراء رغبتي هذه، لكن...

حسنًا، بينما كنت أتفحص بعض الأشياء لفت انتباهي صبي يدعى ألكسندر باركنسون، وبعد ذلك، بينما كنت أسير في فناء دار العبادة قبل أيام، لاحظت أنه مات في سن صغيرة وأن مدفنه موجود هناك ما جعلني أفكر به أكثر".

فقالت السيدة جريفين: "لقد مات في سن صغيرة، أجل، وكان الجميع يرى أنه من المحزن أن تنتهي حياته هكذا. لقد كان صبيًا خارق الذكاء وكانوا يتوقعون له... حسنًا، كانوا يتوقعون له. فلم يكن يعاني أي مرض، لكنني أظن أن سبب وفاته كان طعامًا تناوله في إحدى الرحلات، هكذا قالت لي السيدة هندرسون، فهي تتذكر الكثير من الأشياء عن آل باركنسون".

فرفعت توبينس نظرها قائلة: "السيدة هندرسون؟".

"أوه، أنت لا تعرفينها، فهي تمكث في دار مسنين تسمى ميدوايد، إنها تبعد عن هنا... تبعد عن هنا ببضعة أمتار. ينبغي أن تذهبي إليها وتزوريها، حيث ستخبرك بالكثير من الأمور عن ذلك المنزل الذي تعيشين فيه. لقد كان يسمى حينها عش السنونو، لكنه يحمل حاليًا اسمًا آخر، أليس كذلك؟".

"ذا لوريس".

"السيدة هندرسون تكبرني في العمر، رغم أنها أصغر أعضاء عائلتها الكبيرة جدًا. لقد كانت تعمل مربية في أحد الأوقات، وأعتقد أنها عملت فيما بعد ممرضة مرافقة للسيدة بدنجيفلد التي كانت تقطن منزل عش السنونو، أقصد ذا لوريس حاليًا. وهي تحب التحدث عن الماضي كثيرًا. ينبغي أن تذهبي إليها".

"أوه، قد لا تحب..."

"أوه يا عزيزتي، أنا على يقين بأنها سترغب في ذلك. اذهبي إليها، أخبريها فحسب بأنني من اقترحت عليك هذا الأمر. إنها تتذكرني وتتذكر شقيقتي روزماري وقد كنت أزورها من حين لآخر، لكنني توقفت عن ذلك في السنوات الأخيرة حيث لم أعد أستطيع التحرك، وبوسعك أيضًا أن تذهبي لزيارة السيدة هيندلي التي تقيم في... ماذا يسمى حاليًا؟...نزل شجر التفاح، أظن كذلك. إنه مخصص لكبار السن من المتقاعدين، لن تجديه بالمستوى ذاته الذي عليه ميدوايد، لكنه يدار بطريقة جيدة ويتداول به الكثير من الأقاويل! إنني واثقة من أن جميعهم سيرحبون بهذه الزيارة، فهم يحتاجون إلى أي شيء يكسر الرتابة التي يعيشونها".

الفصل ٣

تومي وتوبينس يتبادلان الملاحظات

قال تومي وهو يدخل غرفة الاستقبال بصحبة توبينس بعد انتهائهما من تناول العشاء: "تبدين متعبة يا توبينس"، فاستلقت توبينس على المقعد مطلقة تنهيدات عالية تبعها لثاؤب.

وقالت: "متعبة؟! إنني أموت من الإرهاق".

"ما الذي كنت تفعلينه؟ أتمنى ألا يكون الأمر متعلقًا بأعمال الحديقة".

فقالت توبينس بفتور: "لم يكن إرهاقًا بدنيًا، كنت أفعل ما تفعله، أجري أبحاثًا ذهنية".

فقال تومي: "إنه لأمر مرهق أيضًا. أين كنت تجرينها بالتحديد؟ أنت لم تحصلي على الكثير من المعلومات من السيدة جريفين أول أمس، أليس كذلك؟".

"حسنًا، أعتقد أنني حصلت منها على قدر جيد من المعلومات، لكنني لم أحصل على الكثير من دار كبار السن التي أوصتني بالذهاب إليها. أستطيع القول إنها أفادتني بطريقة ما".

ففتحت حقيبتها وجذبت منها دفتر ملاحظات ثقيل الحجم بعض الشيء حتى أخرجته من الحقيبة.

وقالت: "لقد سجلت ملاحظات مختلفة عن كل شيء قالوه، وأخذت معي بعضًا من قوائم الطعام الصيني".

"أوه، وما الذي نتج عن ذلك؟"

"حسنًا، لم أدون أسماءَ بقدر ما دونت الأشياء التي قالوها لي وأخبروني بها، وقد سرهم كثيرًا رؤية قائمة الطعام الصيني إذ بدا أنه كان عشاءً مميزًا استمتع الجميع خلاله بالوقت وبالطعام الشهي، فلم يكونوا قد تناولوا شيئًا كهذا من قبل، وكان من الواضح أنها المرة الأولى التي تناولوا فيها سلاطة السلطعون؛ فكانوا قد سمعوا بأنها تقدم عقب اللحم في منازل الأثرياء الراقية، لكن الأمر لم يكن كذلك".

فقال تومي: "أوه، لم يكن ذلك مفيدًا على الإطلاق".

"بل كان مفيدًا بطريقة ما؛ إذ قالوا إنهم سيتذكرون دائمًا تلك الأمسية، وعندما سألتهم عن السبب قالوا لي نظرًا للتعداد".

"ماذا...تعداد؟".

"أجل، من المؤكد أنك تعرف ما هو التعداد يا تومي، أليس كذلك؟ فقد أجرينا واحدًا في العام الماضي، أم أنه كان العام

قبل الماضي؟ فهو يحتم عليك أن تبلغ عن عدد الأفراد - أو تجعلهم يوقعون أو يدخلون بياناتهم - الذين بقوا في منزلك في ليلة معينة. فعلى سبيل المثال، تبلغ المسئولين عن ذلك بالأفراد الذين مكثوا في منزلك في ليلة الخامس عشر من شهر نوفمبر، وحينها يكون عليك أن تسجل بياناتهم، أو تجعلهم يسجلون أسماءهم ويوقعون بجانبها، لقد نسيت كيف كان يجري الأمر تحديدًا. على أية حال، أجري التعداد في هذه الليلة؛ ولذا كان على الجميع أن يبلغ بمن يمكث في منزله حينها، وبالطبع كان الكثير من الأشخاص موجودين بالحفل وتحدثوا عن هذا الأمر، حيث قالوا إنه لم يكن أمرًا عاديًا، بل أمرًا شديد الحماقة وأنه من الشائن أن يستمر في هذه الأيام؛ لأنه كان يحتم عليك أن تعلن إذا ما كان لديك أطفال أم أنك متزوج، أو إذا ما كنت غير متزوج لكن لديك أطفالًا، وأشياء من هذا القبيل؛ فكان عليك أن تسجل الكثير من البيانات المعقدة وهو ليس بالأمر اللطيف في هذه الأيام؛ لذلك كانوا منزعجين للغاية، لكنهم لم يكونوا منزعجين بشأن التعداد القديم؛ إذ إن أحدًا لم يكن ينزعج منه حينها، فقد كان مجرد شيء يحدث".

فقال تومي: "ربما نستفيد من هذا التعداد في بحثنا، إن عرفنا التاريخ المحدد الذي أجري فيه".

"هل تعني أن نتفحص بيانات ذلك التعداد؟".

"أجل، أظن أننا إن علمنا من كان موجودًا بالحفل حينها، فسيكون بوسعنا أن نجري هذا الفحص بسهولة".

"وقد تذكروا ماري جوردان، فقالوا جميعًا إنها *كانت* فتاة لطيفة وكان الناس مولعين بها، كما أنهم لم يصدقوا أنها كانت جاسوسة ألمانية، فأنت تعلم كيف يردد الناس شائعات سخيفة؛ لكنهم قالوا إنها كانت نصف ألمانية؛ لذا كان ينبغي على الذين يتعاملون معها أن يكونوا أكثر حرصًا".

٢

وضعت توبينس فنجان قهوتها الفارغ وأسندت ظهرها إلى المقعد.

فقال تومي: "هل هناك أي شيء مشجع؟".

فقالت توبينس: "كلا، ليس بالضبط، لكن قد يكون هناك شيء، على أية حال تحدثت السيدات المسنات عن الأمر وعلمن به؛ حيث سمعت معظمهن به ممن كانوا يكبرونهن في العمر أو ما شابه، بقصص عن الأماكن التي كانوا يضعون بها الأشياء أو يجدونها بها؛ فهناك قصة تتعلق بوصية خبئت في إحدى الزهريات الصينية، إلى جانب أمور تتعلق بجامعتي أكسفورد وكامبريدج، رغم أنني لا أفهم كيف لأحد أن يعلم بالأشياء المخبأة في جامعة أكسفورد أو كامبريدج، يبدو هذا غير محتمل".

فقال تومي: "ربما كان لأحدهم ابن أخ لا يزال في الدراسة وأخذ شيئًا معه لجامعة أكسفورد أو كامبريدج".

"ربما، لكنه ليس مرجحًا".

"هل تحدث أحدهم بالفعل عن ماري جوردان؟".

"لم يخرج الحديث عن إطار الشائعات؛ فلم يكن هناك جزم بأنها كانت جاسوسة ألمانية؛ إذ إن الأمر لم يتعد أقاويل سمعوها من أجدادهم أو عماتهم أو أخواتهم أو أبناء عمومة الأم أو صديق العم جون الذي كان يعمل بسلاح البحرية ويعرف كل شيء".

"هل تحدثوا عن طريقة موتها؟".

"لقد ربطوا موتها بواقعة أوراق قفاز الثعلب والسبانخ؛ حيث قالوا إن الجميع تعافى إلا هي".

فقال تومي: "إنه لشيء مثير للاهتمام... تتشابه القصص وتختلف السياقات".

فقالت توبينس: "لعل هناك الكثير من الأفكار، فهناك سيدة تدعى بيسي قالت: "حسنًا، لم يتحدث عن هذا الموضوع إلا جدتي، وقد جرى بالطبع قبل ميلادها بفترة كبيرة، وأعتقد أن بعضًا من التفاصيل التي حصلت عليها ليست صحيحة، أظن كذلك". فأنت تعرف يا تومي أنه عندما يكثر الحديث بين الجميع عن شيء ما، تختلط الأمور؛ فقد كثر الحديث حينها عن الجواسيس والسم في وجبات الرحلات وكل شيء. لم أستطع الحصول على أية تواريخ محددة لأن المرء لا يعرف عادة تواريخ أي أحداث تخبره بها جدته، فإذا قالت الجدة: "لقد كنت في السادسة عشرة من عمري حينها وكنت متحمسة"، فلن تستطيع تحديد التاريخ لأنك لا تعرف *حاليًا* كم عمر جدتك الحقيقي، فمن الممكن أنها في التسعين من عمرها لأن الأشخاص عندما يصلون إلى سن الثمانين، يميلون إلى إعطاء أنفسهم عمرًا

أكبر من أعمارهم الحقيقية، أو إذا كانت قاربت على السبعين، فستقول إنها في الثانية والخمسين فحسب".

فقال تومي في تفكر: "*ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية، لقد كان لديه شكوك! ترى، هل أخبر بها أحد رجال الشرطة؟*".

"هل تقصد ألكسندر؟".

"أجل، وربما لأنه تحدث أكثر من المطلوب، وجب التخلص منه".

"تعتمد كثير من المعلومات على ألكسندر، أليس كذلك؟".

"نحن نعلم تاريخ موت ألكسندر من خلال شاهد قبره الموجود هنا، أما ماري جوردان، فلا يزال تاريخ وفاتها والأسباب التي أدت إليها غير معلومة لنا".

فقال تومي: "سنكتشف ذلك في النهاية... فعندما يعد المرء قائمة بالأسماء والتواريخ التي حصل عليها، سيدهش بما يمكن أن يلاحظه من خلال كلمة أو كلمتين غريبتين هنا أو هناك".

فقالت توبينس بسرور: "يبدو أن لديك الكثير من الأصدقاء المتعاونين".

فقال تومي: "وكذلك أنت".

فقالت توبينس: "حسنًا، ليس بالضبط".

فقال تومي: "بل هكذا هو الأمر، أنت تحركين الأشخاص، كما تشائين؛ لقد ذهبت لزيارة إحدى السيدات المسنات ومعك

دفتر يوم ميلاد، وبعدها زرت دارًا للمسنين أو ما شابه وعلمت بكل شيء حدث إبان عصر عماتهم وأجدادهم والعم جون والآباء الروحيين، وربما أدميرال البحرية الذي كان يروي قصصًا عن التجسس وكل ذلك، فقد نستطيع أن نعرف بعض التواريخ ونجري بعض التحريات، ربما، من يدري؟ ربما نحصل على شيء".

"أتساءل عن الطلاب الذين قالوا إن جامعتي أكسفورد وكامبريدج بهما شيء مخبأ".

فقال تومي: "لا يبدو أنهم جواسيس".

فقالت توبينس: "كلا، لا يبدون كذلك".

فقال تومي: "وكذلك هناك الأطباء ورجال الدين، أظن أن المرء بوسعه أن يستعلم عنهم، لكنني لا أرى أن ذلك سيوصلنا لشيء؛ فالأمر بعيد الاحتمال، ونحن لسنا قريبين بالقدر الكافي، هل بدا من أحدهم أي تصرف غريب معك يا توبينس؟".

"هل تقصد أن أحدهم حاول التخلص مني خلال اليومين الأخيرين؟ كلا، لم يحدث ذلك، فلم يَدْعُني أحد للذهاب معه في رحلة، ومكابح السيارة سليمة، ولا يبدو أن أحدًا فتح وعاء قاتل الأعشاب الضارة الموجود في السقيفة".

"لا بد أن إيزاك يضعه هناك حتى يكون في متناول يدك عندما تخرجين ذات يوم في نزهة ومعك بعض الشطائر".

فقالت توبينس: "أوه، المسكين إيزاك، لا تقل أي شيء ضده، فقد أصبح أحد أصدقائي المفضلين. إنني أتساءل، هذا يذكرني بـ..."

"يذكرك بماذا؟".

فقالت توبينس وهي تطرف بعينيها: "لا أستطيع أن أتذكر، هناك شيء جال ببالي عندما قلت ذلك عن إيزاك".

فقال تومي متنهدًا: "يا إلهي!".

فقالت توبينس: "لقد قالت إحدى السيدات المسنات إنها دائمًا ما كانت تضع غرضًا ما داخل قفازها في كل ليلة، أظن أنه كان قرطها، وهي الشخصية ذاتها التي كانت تعتقد أن الجميع يحاول تسميمها، وذكرت سيدة أخرى أنه كانت هناك امرأة تضع الأشياء في صندوق التبرعات أو ما شابه... ذلك الصندوق الصيني الذي كان يخصص للمتشردين، لكن يبدو أنه لم يكن للمتشردين واللقطاء، حيث اعتادت أن تضع به خمسة جنيهات حتى تدخر دائمًا أموالًا للمستقبل، وعندما كان يمتلئ بالأموال، كانت تأخذها وتشتري صندوقًا آخر وتكسر الصندوق القديم".

فقال تومي: "أظن أنها كانت تنفق هذه الأموال".

فقالت توبينس: "أظن أن هذه *كانت* الفكرة، كان ابن عمي إمليين يقول كذلك. لن يتمكن أحد من سرقة صناديق اللقطاء والمشردين، أليس كذلك؟ لأنه إذا هشم أحدهم الصندوق بهذه الطريقة، فسيلاحظ ذلك!".

"ألم تجدي أية كتب تحوي خطبًا مملة خلال بحثك في تلك الحجرات بالأعلى؟".

فقالت توبينس: "نعم، لماذا؟".

"حسنًا، أظن أنه مكان مثالي لإخفاء الأشياء به، مثل كتاب ممل عن علم الأديان، أو آخر قديم ومتهرئ وذي طباعة سيئة".

فقالت توبينس: "لم يكن هناك شيء من ذلك، فلو كان هناك لكنت لاحظت".

"لو كنت وجدت شيئًا من ذلك، هل كنت ستقرئينه؟".

فقالت توبينس: "كلا، بالطبع، لم أكن لأقرأه".

فقال تومي: "ها قد قلتها بنفسك: ما كنت لتقرئيه، بل ستتجاهلينه فحسب".

فقالت توبينس: "*تاج النجاح*، أتذكر هذا الكتاب، كانت هناك نسختان منه. دعنا نتمنَّ أن تكلل جهودنا بالنجاح".

"لا أظنه أمرًا مرجحًا. من قتل ماري جوردان؟ أظن أن هذا هو الكتاب الذي يجب أن نكتبه ذات يوم؟".

فقالت توبينس بعبوس: "هذا إذا اكتشفنا هوية القاتل".

الفصل ٤

احتمالية إجراء جراحة لماتيلدا

"ماذا ستفعلين يا توبينس بعد الظهيرة؟ هل ستواصلين مساعدتي في قوائم الأسماء والتواريخ؟".

قالت توبينس: "لا أعتقد ذلك، لقد اكتفيت من هذا الأمر، فأكثر الأمور إرهاقًا هي التدوين، كما أنني أقع في أخطاء بين الحين والآخر، أليس كذلك؟".

"حسنًا، لن أخفي عليك الأمر، لقد وقعت بالفعل في بعض الأخطاء".

"أتمنى لو لم تكن أكثر دقة مني، فأحيانًا ما أجد هذا الأمر مملًا للغاية".

"ما الذي ستفعلينه إذن؟".

"لا أمانع أن أحظى بقيلولة هادئة، أوه كلا، في الواقع، لن أذهب إلى الاسترخاء، بل أعتقد أنني سأنزع أحشاء ماتيلدا".

"ماذا قلت يا توبينس؟".

"لقد قلت إنني سأذهب لنزع أحشاء ماتيلدا".

"ما خطبك يا توبينس؟ تبدين عازمة على ارتكاب العنف".

"ماتيلدا، الحصان الموجود في كيه كيه".

"ماذا تعنين بأنه موجود في كيه كيه؟".

"أوه، أقصد المكان الذي توجد به تلك النفايات، إنه الحصان الهزاز، الحصان ذو المعدة المجوفة".

"أوه، و... ستذهبين لتفقد معدته، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "هذا صحيح، هل تود مساعدتي في ذلك؟".

فقال تومي: "ليس تمامًا".

فقالت توبينس: "هلا *تفضلت* وأتيت لتساعدني؟".

فقال تومي متنهدًا بعمق: "حسنًا، سأضطر للموافقة. على أية حال، لن يكون الأمر أكثر سوءًا من إعداد القوائم. هل إيزاك هنا؟".

"كلا، أعتقد أن هذه هي فترة راحته. على أية حال، لن نحتاج إيزاك في شيء، فأنا أعتقد أنني جمعت منه كل المعلومات التي بوسعي أن أحصل عليها".

فقال تومي بتفكر: "إنه يعرف قدرًا كبيرًا من المعلومات".

وأضاف: "اتضح لي ذلك قبل أيام حينما أخبرني بالكثير من الأمور التي تتعلق بالماضي السحيق، حتى إنه لا يتذكرها شخصيًا".

فقالت توبينس: "حسنًا، لا بد أنه قارب على الثمانين من عمره، إنني على يقين من ذلك".

"أجل، أعلم ذلك، لكن الأمور التي يعرفها ترجع إلى زمن بعيد جدًا".

فقالت توبينس: "يسمع الناس دائمًا الكثير من الأمور، لكنك لا تعلم أبدًا ما إذا كان ما سمعوه صحيحًا أم خاطئًا. على أية حال، دعنا نذهب وننزع أحشاء ماتيلدا. من الأفضل أن أغير ملابسي أولا؛ لأن كيه كيه مليئة بالغبار وخيوط العنكبوت وسيكون علينا أن نتفحص الحصان ماتيلدا من الداخل".

"من الممكن أن نستعين بإيزاك ليقلب لنا الحصان على ظهره، وعندئذ يمكننا أن نتفحص معدته بسهولة أكبر".

"تبدين كما لو أنك كنت جراحًا في فترة من حياتك".

"حسنًا، أظن أن الأمر يشبه ذلك قليلًا، فنحن سننزع حاليًا الجزء الغريب الذي قد يمثل خطرًا على حياة ماتيلدا، أو ما تبقى منه، ومن الممكن أن نطليه حيث قد يرغب توأما ديبورا في أن يركباه حينما يأتيان لزيارتنا في المرة القادمة".

"أوه، إن أحفادنا لديهم الكثير من اللعب والهدايا بالفعل".

فقالت توبينس: "لا يهم، فالأطفال لا يحبون الهدايا الغالية، لكنك ستجدهم يلعبون بخيط قديم أو دمية ممزقة أو شيء يطلقون عليه دبًّا بينما لا يتعدى كونه جزءًا من بساط محزوم وموضوع عليه اثنان من أزرار الأحذية الطويلة ذات اللون الأسود كي تقوم بعمل العينين؛ فللأطفال أفكارهم عن الألعاب".

فقال تومي: "حسنًا، هيا إلى ماتيلدا، هيا إلى غرفة العمليات".

لم يكن قلب الحصان ماتيلدا إلى وضعية مناسبة لإجراء العملية الجراحية بالمهمة السهلة؛ فقد كان ثقيلًا للغاية، كما أنه كان مرصعًا بمسامير مدببة وبارزة تعكس اتجاهاتها بين الحين والآخر، فمسحت توبينس الدماء التي نزفت من يدها وأطلق تومي اللعنات بينما كان يجذب كنزته التي سرعان ما تمزقت بطريقة مأساوية.

فقال تومي: "فليذهب هذا الحصان اللعين إلى الجحيم".

فقالت توبينس: "كان لا بد أن يشعل به النيران منذ سنوات".

في تلك اللحظة ظهر فجأة إيزاك المسن منضمًا إليهما.

وقال في شيء من الاندهاش: "ما الذي... ما الذي تفعلانه هنا؟ ما الذي تريدانه من جسد هذا الحصان القديم؟ هل بوسعي أن أساعدكما؟ ما الذي تريدان أن تفعلاه به، هل تريدان إخراجه من هنا؟".

فقالت توبينس: "ليس بالضبط، نحن نريد أن نقلبه حتى نستطيع أن نصل إلى التجويف الموجود به ونخرج الأشياء التي يحتوي عليها".

"هل تقصدين إخراج الأشياء من داخله؟ من الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟".

فقالت توبينس: "أجل، هذا ما ننوي فعله".

"ما الذي تعتقدان أنكما ستجدانه به؟".

فقال تومي: "لا شيء إلا النفايات"، ثم أردف بصوت يشوبه الشك بعض الشيء: "سيكون لطيفًا إذا أخلينا من الأشياء الموجودة به، فربما نرغب في حفظ أشياء أخرى بداخله، كالألعاب، أو ربما أدوات الكروكيت، أو ما شابه".

"كان يوجد هنا في الماضي ملعب للكروكيت، كان ذلك منذ زمن بعيد، إبان عصر السيدة فولكنر، أجل، كان موجودًا بالأسفل حيث توجد حاليًا حديقة الورود، لكنه لم يكن بالحجم الطبيعي".

فقال له تومي: "متى كان ذلك؟".

"أتقصد ملعب الكروكيت؟ أوه، كان ذلك قبل عصري؛ فدائمًا ما يكون هناك أشخاص راغبون في أن يخبروك بأمور تتعلق بما كان يحدث في الماضي، وبالأشياء التي كان يتم إخفاؤها، وبهوية من خبأها وسبب فعله لذلك، وهكذا يروون الكثير من القصص، لكن بعضًا منها يكون مختلفًا، والبعض الآخر قد يحمل قدرًا من الحقيقة".

فقالت توبينس: "أنت ذكي للغاية يا إيزاك، تبدو دائمًا على معرفة بكل شيء. كيف علمت بأمر ملعب الكروكيت؟".

"أوه، كان يوجد هنا صندوق يحمل بداخله أدوات للكروكيت، وقد ظل في هذا المكان لفترة طويلة، لكن لا أعتقد أن شيئًا منه قد تبقى حاليًا".

liilas.com/vb3

تركت توبينس ماتيلدا، وذهبت نحو إحدى الزوايا حيث كان يوجد صندوق خشبي طويل، وبعد أن فتحته بشيء من الصعوبة نظرًا لتصلبه جراء تعاقب الأزمنة عليه، وجدت كرة حمراء باهتة، وأخرى زرقاء، ومطرقة خشبية مقوسة وملتوية، والكثير من خيوط العنكبوت.

فقال إيزاك: "ربما كان ذلك خلال عصر السيدة فولكنر؛ إذ يقال إنها كانت تلعب حينها في الدورات الرياضية".

فقالت توبينس بنبرة مشوبة بالشك: "هل كان ذلك في ويمبلدون؟".

"حسنًا، ليس بالضبط، لا أعتقد ذلك. لقد كانت مباريات محلية اعتادوا أن يلعبوها هنا بالأسفل؛ فالصور التي رأيتها عند المصور...".

"المصور؟".

"نعم، مصور القرية، ديورانس. أنت تعرفينه، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس بشكل مبهم: "ديورانس؟ آه، أجل، إنه يبيع أفلامًا وأشياء من هذا القبيل، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح، لكن ديورانس الكبير لم يعد يدير المحل حاليًا، بل حفيده، أو ربما حفيد حفيده. إنه يبيع حاليًا البطاقات البريدية، وبطاقات المعايدة وأشياء من هذا القبيل، لكنه كان يلتقط الصور للناس، وكان يحتفظ بالكثير منها، فقبل أيام جاءته فتاة تطلب منه صورة لجدة جدتها؛ إذ قالت إن صورتها التي كانت تحتفظ بها تمزقت أو احترقت أو فقدتها أو ما شابه،

وكانت تتساءل عما إذا كان لا يزال النيجاتيف موجودًا؛ لكن لا أعتقد أنها وجدته، غير أن هناك الكثير من الألبومات القديمة هناك".

فقالت توبينس في تفكر: "ألبومات".

فقال إيزاك: "هل هناك أي شيء آخر يمكنني أن أقدمه إليكما؟".

"حسنًا، ساعدنا على تغيير وضعية الحصان جان، أو أيًا كان اسمه".

"ليس جان، بل ماتيلدا، وليس ماتليدا أيضًا. أظن أنه كان يسمى هكذا لبعض الأسباب، أعتقد أنه جاء من فرنسا".

فقال تومي في تفكر: "فرنسي أم أمريكي؟".

"ماتيلدا، لويس، شيء من هذا القبيل".

فقالت توبينس بينما تضع ذراعها داخل تجويف معدة ماتيلدا: "إنه مكان جيد لإخفاء الأشياء به، أليس كذلك؟"، فأخرجت كرة مطاطية متهرئة، بدا أنها كانت تكتسي فيما مضى باللون الأحمر والأصفر لكنها حاليًا تمتلئ بالثقوب.

فقالت توبينس: "أظن أن الأطفال هم من كانوا يفعلون ذلك، فعادة ما كانوا يضعون الأشياء هكذا".

فقال إيزاك: "متى رأوا تجاويف، فعلوا بها هكذا، غير أنني سمعت أنه كان هناك شاب فيما مضى يترك خطاباته في هذا التجويف. كان يتعامل معه كما لو أنه صندوق بريد".

"خطابات؟ لمن كانت ترسل؟".

فقال إيزاك: "أظن لفتاة شابة"، ثم أنهى حديثه بجملته المعهودة: "لكن ذلك كان قبل عصري".

وما إن تركهما إيزاك بحجة إغلاق النوافذ بعد أن وضع ماتيلدا في وضعية مناسبة، قالت توبينس: "يالالأشياء التي عادة ما تحدث قبل عصر إيزاك بفترة طويلة!".

خلع تومي معطفه.

فقالت توبينس وهي تلهث قليلاً بينما تخرج من معدة ماتيلدا ذراعها المتسخة والمخدوشة: "غير معقول أن يستخدم هذا الشيء ليوضع به كل هذه الأشياء الكثيرة، دون أن يأتي أحد وينظفه".

"حسنًا، لماذا ينبغي أن يتم تنظيفه؟ لماذا سيرغب أحد في تنظيفه؟".

فقالت توبينس: "هذا حقيقي، رغم أننا نفعل ذلك، أليس صحيحا؟".

"هذا لأننا فحسب لا نستطيع أن نفكر في أي شيء أفضل لنفعله، رغم أنني لا أعتقد أننا سنخرج منه بشيء مهم، آه!".

فقالت توبينس: "ماذا بك؟".

"أوه، هناك شيء خدشني".

فجذب ذراعه قليلاً، وضبط وضعيته، ثم أدخله مرة أخرى، فقابله وشاح منسوج بدا أنه كان طعامًا لبعض الحشرات التي صنعت به ثقوبًا ليصبح فيما بعد متدني القيمة.

فقال تومي: "يا للقرف!".

فجذبته توبينس جانبًا وأدخلت ذراعها، متكئة على ماتيلدا فشعرت بشيء داخله.

فقال تومي: "انتبهي إلى المسامير".

فقالت توبينس: "ما هذا؟".

أخرجت ما وجدته إلى الهواء الطلق، ليتبين أنه عجلة حافلة أو عربة أو لعبة من لعب الأطفال.

فقالت: "أعتقد أننا نهدر وقتنا".

فقال تومي: "أنا على يقين من ذلك".

فقالت توبينس: "ورغم ذلك، نستطيع أن ننجز الأمر بطريقة صحيحة، يا إلهي! هناك ثلاثة عناكب تسير فوق ذراعي، وسرعان ما سيتبعها دودة، وأنا أكره الديدان".

"لا أعتقد أن هناك ديدانًا داخل ماتيلدا، أعني أن الديدان تحب العيش تحت الأرض، ولا أظن أنها ترغب في اتخاذ ماتيلدا مأوى لها، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أوه حسنًا، ها نحن نخليه على أية حال. حسنًا، ما هذا؟ يا إلهي! يبدو أنها حافظة أدوات حياكة، من الممتع أن نجد شيئًا كهذا، فلا يزال بها بعض الإبر لكن الصدأ أصابها جميعًا".

فقال تومي: "أظن أنها كانت لطفلة لم تكن تحب الحياكة".

"أجل، هذه فكرة جيدة".

فقال تومي: "إنني أتلمس شيئًا أشبه بالكتاب".

"أوه، حسنًا، ربما يكون مفيدا، في أي جزء من ماتيلدا؟".

فقال تومي بنبرة المحترف: "أظن عند الزائدة الدودية أو الكبد... في الجانب الأيمن منه، إنني أتعامل مع الأمر كما لو أنه عملية جراحية!".

"حسنًا أيها الجراح، من الأفضل أن تخرجه، أيًا كان".

بالكاد كان يمكن التعرف على هذا الشيء الذي يسمى كتابًا، فبدا أنه قديم للغاية؛ إذ إن صفحاته كانت ملطخة ومتهرئة، وكان غلافه ممزقًا.

فقال تومي: "يبدو أنه كتيب فرنسي".

"معلم الطفل الصغير".

فقالت توبينس: "أفهم الأمر، لديَّ نفس فكرتك، فقد كانت الطفلة لا تريد أن تتعلم دروسها الفرنسية؛ ولذا جاءت إلى هنا ووضعته عن عمد داخل الحصان ماتيلدا حتى تدعي أنها فقدته، إنه حصان قديم وجيد".

"إذا كان ماتيلدا في وضعيته الصحيحة، فسيكون من الصعب وضع الأشياء بداخل هذا التجويف الموجود في معدته".

فقالت توبينس: "ليس مع الأطفال، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فلا بد أنها ستجثم على ركبتيها وتزحف أسفله. إنني أتلمس شيئًا زلقًا كجلد الحيوان".

فقال تومي: "يا له من شيء كريه، هل تعتقدين أنه أرنب ميت أو ما شابه؟".

"كلا، ليس له فراء. لا أعتقد أنه شيء لطيف، يا إلهي، هناك مسمار للمرة الثانية. حسنًا، يبدو أنه علق بالمسمار. هناك رباط أو وتر، من الغريب أنه لم يتحلل، أليس كذلك؟".

وأخرجت ما وجدته بحذر.

وقالت: "إنها حافظة جيب، أجل، أجل، إنها مصنوعة من جلد ذي جودة عالية، أجل جودة عالية".

فقال تومي: "دعينا نر ما بداخلها، هذا إذا كان هناك شيء بالداخل".

فقالت توبينس: "هناك شيء بداخلها".

فأضافت في أمل: "ربما توجد بداخلها ورقات نقدية فئة الخمسة جنيهات".

"حسنًا، لا أظن أنها ستكون قابلة للاستخدام، فلا بد أن الورق تلف، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "لا أعرف، فهناك على قيد الحياة الكثير من الأشياء الغريبة، لكن أعتقد أن فئة الخمسة جنيهات اعتادت أن تصنع من ورق عالي الجودة، ورق رفيع لكنه يدوم طويلا".

"أوه حسنًا، ربما نجد عشرين جنيها تساعدنا على شراء احتياجات المنزل".

"ماذا؟ أظن أنها سترجع إلى ما قبل عصر إيزاك أيضًا، وإلا *لكان وجدها*، آه، ربما تكون مائة جنيه. أتمنى أن تكون عملات ذهبية، دائمًا ما توجد العملات الذهبية في محفظة النقود، فقد كانت عمتي ماريا لديها محفظة كبيرة مليئة بالعملات

الذهبية. وكانت عادة ما ترينا إياها حينما كنا أطفالًا، فلقد كانت تقول إنها الأموال التي تدخرها للمستقبل في حال ما احتل الفرنسيون إنجلترا، وأظن أنها كانت تتحدث عن الفرنسيين، على أية حال، كانت تدخرها من أجل الأخطار والفواجع. كانت عملات ذهبية ضخمة، كنت أراها رائعة، وكنت أفكر كم سيكون الأمر جميلًا إذا ما قدر للمرء حين يكبر أن توجد معه محفظة مليئة بالعملات الذهبية".

"من الذي كان سيعطيك محفظة مليئة بالعملات الذهبية؟".

فقالت توبينس: "لم أكن أفكر في أن يعطيني شخص إياها، لقد فكرت فيها كشيء أمتلكه عندما أتقدم في العمر وأرتدي عباءة ذات فرو وقلنسوة، حيث أعطي منها حفيدي المفضل حين يعود إلى المدرسة".

"وماذا عن الفتيات، أقصد الحفيدات؟".

فقالت توبينس: "لا أظن أنهن كن سيحصلن على أية عملات ذهبية".

"لكن جدتي كانت ترسل لي أحيانًا نصف الخمسة جنيهات".

" نصف الخمسة جنيهات؟ لم يكن ذلك جيدًا على الإطلاق".

"أوه أجل، لم يكن جيدًا؛ فقد كانت تمزق الخمسة جنيهات إلى نصفين، ترسل نصفًا، ثم تعاود وترسل النصف الآخر لاحقًا في أحد الخطابات، وكان من المفترض أن هذه الطريقة لا تجعل أحدًا يرغب في سرقة الأموال".

"يا إلهي، يا لها من تدابير!".

فقالت توبينس: "هكذا كانت الحال، أوه، ما هذا؟".

كانت تتحسس المحفظة الجلدية من الداخل.

فقال تومي: "دعينا نخرج برهة من كيه كيه لنستنشق الهواء".

فخرج الاثنان واستطاعا في الهواء أن يريا بصورة أفضل غنيمتهما، فقد كانت محفظة عالية الجودة من الجلد السميك المتيبس نتيجة لعوامل الزمن، لكنها كانت سليمة.

فقالت توبينس: "أظن أنها كانت محفوظة من الرطوبة داخل ماتيلدا، أوه يا تومي، هل تعرف ماذا أخمن أن يكون هذا؟".

" ليست أموالًا، لكنني أعتقد أنها خطابات، لا أعرف إذا ما كنا سنتمكن من قراءتها حاليًا، فهي قديمة وشاحبة للغاية".

بحرص شديد فرد تومي الخطابات الصفراء المجعدة، وأبعدها عن بعضها قدر الإمكان، فقد كان الخط كبيرًا ومكتوبًا بالحبر الأزرق والأسود الداكن.

فقال تومي: "تغير مكان المقابلة، سنلتقي في حدائق كنسينجتون بالقرب من بيتر بان، يوم الأربعاء في الخامس والعشرين من الشهر، الساعة الثالثة والنصف مساءً. جوانا".

فقالت توبينس: "أظن أننا حصلنا أخيرًا على شيء".

"تقصدين أن أحدهم كان من المفترض أن يذهب إلى لندن لكنه تلقى تعليمات بأن يتجه إلى حدائق كنسينجتون في يوم محدد ويقابل أحد الأشخاص جالبًا معه ربما أوراقًا أو خططًا أو

ما شابه. من تعتقدين أنه أخرج تلك الخطابات من ماتيلدا أو وضعها داخله؟".

فقالت توبينس: "من المستحيل أن يكون من فعل ذلك طفلاً، لا بد أنه كان شخصًا يعيش في المنزل، ومن ثم كان بوسعه أن يتجول في المكان دون أن يشك فيه أحد، وأظن أنه حصل حينها على الأشياء من الجاسوس البحري، وذهب بها إلى لندن".

لفت توبينس المحفظة الجلدية القديمة في الوشاح الذي كانت ترتديه حول رقبتها وعادت هي وتومي إلى المنزل.

وقالت توبينس: "ربما تكون هناك أوراق أخرى، لكنني أعتقد أن معظمها ستكون بالية وستتمزق إلى قطع حال لمسها، أوه ما هذا؟".

فوق طاولة البهو، كان هناك طرد كبير بعض الشيء، وخرج ألبرت من غرفة العشاء قائلًا.

"لقد أرسل لك يا سيدتي، أرسل لك هذا الصباح".

فقالت توبينس: "آه، ترى ما هذا؟"، وأخذت الطرد.

ودخلت هي وتومي إلى غرفة الاستقبال.

حلت توبينس عقدة الخيط الملفوف حول الطرد وخلعت عنه الورقة البنية التي كان ملفوفًا بها.

وقالت: "أظن أنه ألبوم للصور، أوه، هناك خطاب مرفق به، إنه من السيدة جريفين.

"عزيزتي السيدة توبينس، كان لطفًا منك أن تحضري إليَّ دفتر عيد الميلاد قبل أيام، فلقد سعدت للغاية برؤيته وبتذكر أناس مختلفين من الماضي سرعان ما ينساهم المرء، ولا يتذكر في أغلب الأحيان إلا اسم عائلاتهم وليس أسماءهم الأولى. منذ فترة وجيزة، صادفني هذا الألبوم القديم. إنه لا يخصني، بل أظن أنه يخص جدتي، لكنه يحوي الكثير من الصور ومن بينها، حسبما أظن، صورة أو صورتان لعائلة باركنسون؛ لأن جدتي كانت تعرفهم، فظننت أنك ربما تودين رؤيتها حيث تبدين مهتمة بتاريخ منزلك وبالأشخاص الذين كانوا يعيشون به في الماضي. لا تتعبي نفسك بإعادته لي لأنه لا يعني لي شيئًا من الناحية الشخصية، أستطيع أن أؤكد لك هذا. فكثيرًا ما يملك المرء في منزله أشياء كثيرة تنتمي إلى العمات والأجداد، وهكذا بينما كنت أفتش قبل أيام في خزانة قديمة بالعلية، وجدت ست حافظات لأدوات الحياكة، وقد مر عليها أعوام وأعوام. وأظن أنها لا تخص جدتي بل جدة جدتي التي اعتادت دومًا أن تشتريها من مزاد لانتا، وتهدي الخادمات إحداها في الأعياد؛ لكنها ليست مجدية حاليًا. يبدو من المؤسف أحيانًا أن يفكر المرء في كم النفايات التي توجد لديه".

فقالت توبينس: "ألبوم للصور، حسنًا، ربما يكون الأمر ممتعًا، هيا نلقِ نظرة عليه".

فجلس الاثنان فوق الأريكة، فقد كان الألبوم قديمًا للغاية، إذ إن معظم الصور كانت شاحبة، لكن توبينس كانت بين الحين والآخر تتعرف على لقطات بالصور لحدائق منزلهما.

"انظر، ها هي ذي الأشجار الشائكة، أجل... وانظر، توجد خلفها عربة الحب الحقيقي. لابد أنها صورة قديمة للغاية، وهناك صبي مرح يتعلق بالعربة. أجل، وها هي ذي نباتات الوستارية وحشائش البراري. أظنه أنه كان حفل شاي أو ما شابه، أجل، هناك الكثير من الأشخاص يجلسون حول إحدى الطاولات في الحديقة. هناك أيضًا أسماء بالأسفل. مابل، مابل ليست جميلة، ومن هذا؟".

فقال تومي: "تشارلز وإدموند. يبدو أن تشارلز وإدموند كانا يلعبان التنس؛ حيث إنهما يمسكان بمضارب تنس غريبة بعض الشيء، وهناك وليام، والميجور كوتس".

"وهناك...أوه يا تومي، ها هي ذي ماري".

"أجل، ماري جوردان، فكلا الاسمين مكتوب أسفل الصورة".

"لقد كانت جميلة، جميلة للغاية. إن الصورة قديمة وشاحبة للغاية ، لكن...أوه تومي، من الرائع أن نرى ماري جوردان".

"ترى من الشخص الذي التقط الصورة؟".

"ربما يكون المصور الذي ذكره إيزاك، والذي يعيش هنا في القرية، ومن الممكن أن تكون لديه أيضًا صور قديمة. أظن أننا لا بد أن نذهب إليه ذات يوم ونسأله عن ذلك".

وضع تومي الألبوم جانبًا، وفتح الخطاب الذي كان قد جاءه في منتصف النهار.

فقالت توبينس: "هل به أي شيء مثير للاهتمام؟ يوجد هنا ثلاثة خطابات. أظن أن اثنين منها فواتير. أما هذا... أجل هذا الخطاب مختلف بعض الشيء. هل هو مثير للاهتمام؟".

فقال تومي: "ربما، ينبغي أن أذهب غدًا إلى لندن مرة أخرى".

"لتتعامل مع لجانك المعتادة؟".

فقال تومي: "ليس بالضبط، سأزور أحد الأشخاص، ففي الواقع لن أذهب إلى لندن، بل خارج لندن، في هارو واي حسبما أظن".

فقالت توبينس: "ماذا؟ أنت لم تقل لي شيئًا عن ذلك".

"سأزور شخصًا يدعى الكولونيل بيكاواي".

فقالت توبينس: "يا له من اسم!".

"أجل، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "هل سمعت عنه من قبل؟".

"ربما أكون قد ذكرته أمامك ذات مرة. إنه يعيش في مناخ دائم من الدخان. هل لديك يا توبينس أقراص للسعال؟".

"أقراص للسعال! حسنًا، لا أعرف. أجل، أظن ذلك، فلديَّ علبة قديمة منذ الشتاء الماضي؛ لكنك لا تعاني السعال، فلم ألحظ عليك ذلك".

"كلا، لست مصابًا بالسعال، لكن سيكون عليَّ تناول هذه الأقراص إذا كنت سأذهب لزيارة بيكاواي، فبحسب ما أتذكر، عندما أذهب لزيارته أشعر بالاختناق ولا أستطيع أن أتنفس، ثم أنظر إلى النوافذ المغلقة بإحكام، لكنه لا يفهم هذا التلميح على الإطلاق".

"لماذا تعتقد أنه يريد رؤيتك؟".

فقال تومي: "لا أعرف، إنه يذكر روبنسون".

"ماذا...الرجل ذو الوجه الأصفر؟ الرجل ذو الوجه الثمين الأصفر والذي تكتنفه السرية الشديدة؟".

فقال تومي: "أجل".

فقالت توبينس: "أوه حسنًا، ربما ما نفعله هنا سري أيضًا".

"من المستحيل أن يكون كذلك، إذ إن ما حدث، أيًا كان هو، مر عليه أعوام كثيرة، قبل حتى أن يولد إيزاك".

قالت توبينس: "الخطايا الجديدة لها ظلال قديمة، إذا كان هذا هو القول الذي أقصده. لم أقله بطريقة صحيحة، الخطايا الجديدة لها ظلال قديمة، أو الخطايا القديمة لها ظلال طويلة.

قد أذهب لزيارة ذلك المصور بعد الظهيرة، هل تريد أن تأتي معي؟".

فقال تومي: "كلا، أظن أنه ينبغي أن أنزل إلى الأسفل وأستحم".

"تستحم؟ إن الجو بارد للغاية".

"لا يهم، أشعر بأنني أحتاج إلى شيء بارد، ومنعش لأزيل كل خيوط العنكبوت هذه، يبدو أن بقاياها عالقة حول أذني وعنقي، ويبدو أيضًا أنها موجودة بين أصابع قدمي".

فقالت توبينس: "إنها لمهمة قذرة، حسنًا، سأذهب لزيارة السيد دوريل أو ديورانس، إذا كان هذا هو اسمه. هناك خطاب آخر يا تومي لم تفتحه".

"أوه، إنني لم أره، آه حسنًا، ربما نجد به شيئًا".

"من المرسل؟".

فقال تومي في صوت رخيم بعض الشيء: "إنها مسئولة البحث الخاصة بي، السيدة التي تعمل في إنجلترا، وبداخل وخارج سوميرست هوس لتبحث في التواريخ والزيجات والمواليد، إلى جانب الاستعانة بالجرائد والتعداد. إنها ماهرة للغاية".

"ماهرة وجميلة؟".

فقال تومي: "لو كانت جميلة، فإنني لم ألحظ ذلك".

فقالت توبينس: "إنني سعيدة بذلك، أتعرف يا تومي؟ حين يتقدم الرجل في العمر، قد... قد تراوده بعض الأفكار الخطيرة عن مساعدته الجميلة".

فقال تومي: "إنك لا تقدرين زوجك المخلص يا توبينس".

فقالت توبينس: "كل صديقاتي يقلن لي إن الأزواج دائمًا ما يتغيرون".

فقال تومي: "إذن فأنت لا تحسنين اختيار صديقاتك".

الفصل ٥

مقابلة مع الكولونيل بيكاواي

قاد تومي السيارة عبر حديقة ريجنت، مجتازًا طرقًا متعددة لم يعبر منها منذ أعوام عديدة، وقت أن كان هو وتوبينس يعيشان في شقة بالقرب من حديقة بلسيز، وهو ما جعله يتذكر النزهات التي كانا يذهبان فيها إلى حديقة هامبستيد هيث بصحبة كلبهما الذي كان يستمتع كثيرا بتلك النزهات. كان هذا الكلب يتسم بالعناد؛ فحينما كان يخرج من الشقة، كان يتمنى دائمًا لو ينعطف إلى اليسار حيث الطريق المؤدي إلى حديقة هامبستيد هيث، وكانت جهود توبينس أو تومي في إثنائه عن ذلك وإجباره على الانعطاف إلى اليمين نحو المحلات التجارية تبوء بالفشل، فكان هذا الكلب العنيد يستلقي بجسده الذي يشبه النقانق فوق الرصيف، ويخرج لسانه ويبدي أنه متعب نظرًا لأن أصحابه يجعلونه يمارس تمارين غير مناسبة له، أما المارُّون فلم يكن أحد منهم يكف عن التعليق على المشهد.

"أوه، انظر إلى ذلك الكلب الصغير هناك، الكلب ذي الشعر الأبيض، إنه يشبه النقانق، أليس كذلك؟ إنه يلهث كالمسكين،

إن أصحابه لا يسمحون له بالذهاب إلى الطريق الذي يريده، يبدو أنه منهك، منهك للغاية".

فكان تومي يأخذ الحزام من توبينس ويجذب جيمس في الاتجاه المعاكس لذلك الذي يريد الذهاب إليه.

فتقول توبينس له: "يا إلهي! ألا تستطيع أن تحمله يا تومي؟".

"ماذا، أحمل جيمس؟ إنه ثقيل للغاية".

فكان جيمس، بمناورة ذكية، يلف جسده الذي يشبه النقانق حتى يكون مواجهًا مرة أخرى للاتجاه الذي يقصده.

فتقول توبينس: "انظر، إنه لكلب مسكين، أظن أنه يريد أن يذهب إلى المنزل، أليس كذلك؟".

حينها كان جيمس يشد حزامه بقوة.

فكانت توبينس تقول: "أوه، حسنًا، لنؤجل التسوق إلى وقت لاحق، هيا، علينا أن نجعل جيمس يذهب حيثما يريد. إنه كلب ثقيل للغاية، فلن تستطيع أن تجعله يفعل خلاف ما يريد".

فكان جيمس يرفع بصره ويهز ذيله، كما لو أنه يقول: "إنني أتفق معك، أخيرًا فهمت قصدي. إن حديقة هامبستيد هيث هي المقصد"، ولطالما كانت كذلك.

وصل تومي إلى عنوان المكان الذي يقصده، فقد كانت بلومبري هي مكان اللقاء الأخير بينه وبين الكولونيل بيكاواي؛ حيث كان يقبع في حجرة صغيرة ومتواضعة ومليئة بالدخان، أما ما رأوه حين وصل إلى العنوان الذي يحمله فقد كان منزلًا صغيرًا

وعاديًا ومواجهًا لحديقة هيث التي لا تبعد كثيرا عن مسقط رأس الشاعر كيتس، وكان المنزل يفتقر إلى الجاذبية والذوق.

دق تومي الجرس، ففتحت له امرأة مسنة أقرب ما تكون إلى الصورة التي رسمها لها تومي في مخيلته، حيث كانت أشبه بساحرة لها أنف وذقن حادان يكادان يلتقيان ببعضهما، وتوحي ملامحها بالعداء.

"هل يمكنني مقابلة الكولونيل بيكاواي؟".

فقالت الساحرة: "لا أعلم، من أنت؟".

"اسمي تومي".

"أوه، أجل، كان الكولونيل يتحدث عن شيء من هذا القبيل".

"أيمكنني أن أترك السيارة بالخارج؟".

"أجل، ستكون على ما يرام لوقت قليل؛ إذ إنه لا يوجد الكثير من الحراس في هذا الشارع، كما أنه لا توجد خطوط المرور الصفراء، من الأفضل أن تغلقها يا سيدي، فلا تدري ما الذي سيحدث".

اتبع تومي تلك القواعد بحذافيرها، وتبع المرأة المسنة إلى داخل المنزل.

فقالت له: "لم يتبق إلا درج آخر فحسب".

كانت رائحة التبغ تنتشر بقوة على طول الدرج، فدقت المرأة المسنة على الباب وأطلت برأسها إلى الداخل قائلة: "إنه الرجل الذي كنت تريد رؤيته، يقول إنك تنتظره"، ثم أخذت السيدة جانبًا، ومر تومي عبر ما وصفه من قبل بأنه سحابة

دخان تجبرك في الحال على السعال والشعور بالاختناق. كان تومي يشك فيما إذا كان سيتذكر الكولونيل بيكاواي دون وجود الدخان وسحابة النيكوتين ورائحته، إذ وجد أمامه رجلًا طاعنًا في السن يستند بظهره إلى كرسي متهالك بعض الشيء تمتلئ ذراعاه بالثقوب، فرفع الرجل بصره في تفكُّر ما إن دخل تومي.

وقال: "اغلقي الباب يا سيدة كوبس، فلا نريد للهواء البارد أن يدخل، أليس كذلك؟".

لكن تومي كان يريد للهواء البارد أن يدخل... لم يكن يعرف سببًا لهذه الرغبة، لكنه كان يريد فحسب أن يستنشق الهواء ويموت بصورة طبيعية.

فقال الكولونيل بيكاواي في تفكر: "تومي بيريسفورد، حسنًا، حسنًا، كم عامًا مر على آخر مرة التقيتك بها؟".

لم يحسب تومي المدة الصحيحة.

فقال الكولونيل بيكاواي: "منذ زمن بعيد، حيث أتيت إلى هنا ومعك شخص لا أتذكر اسمه حاليًا، أليس كذلك؟ حسنًا، لا يهم، فالأسماء ليست مهمة لهذه الدرجة فإذا أسمينا الزهرة بغير اسمها، لبقيت كما هي تفوح بعطرها الخلاب، هكذا كانت تقول جوليت، أليس كذلك؟ أحيانًا ما كان شكسبير يجعل شخصيات مسرحياته تتفوه بأشياء سخيفة، وبالطبع لم يكن بيده حيلة، فقد كان شاعرًا. إنني لا أهتم كثيرًا بروميو وجوليت، ولا بكل من ينتحرون من أجل الحب؛ فهذا الأمر يحدث كثيرًا في هذه الأيام. اجلس يا بني، اجلس".

كان تومي مندهشًا بعض الشيء من مناداته بـ "بني" مرة أخرى، لكنه استغل هذه الدعوة.

فأزاح كومة كبيرة من الكتب من فوق الكرسي الوحيد الذي كان من الممكن الجلوس عليه وقال: "أرجو ألا تمانع يا سيدي".

"كلا، كلا، ضعها جميعًا على الأرض، كنت أحاول فحسب أن أبحث عن شيء. حسنًا، حسنًا، إنني سعيد لرؤيتك. تبدو أكبر قليلًا مما كنت عليه، لكن يبدو أنك لا تزال تتمتع بصحة جيدة، ألم تعانِ من الانسداد التاجي؟".

فقال تومي: "نعم".

"آه! جيد، هناك أشخاص كثر مصابون بأمراض القلب وضغط الدم، وذلك لأنهم يرهقون أنفسهم، حيث يجوبون كل أرجاء المكان، ويخبرون الجميع كم هم مشغولون وكيف أن العالم لا يمكن أن يستمر دونهم، ومدى الأهمية التي يتمتعون بها. هل يراودك الشعور ذاته؟ أظن أنك كذلك".

فقال تومي: "كلا، لا أشعر بأنني مهم إلى هذه الدرجة، إنني أشعر... حسنًا، أشعر بأنني أستمتع بالاسترخاء الذي أنعم به في هذه الأيام".

فقال الكولونيل بيكاواي: "حسنًا هذا شيء رائع. المشكلة هي أن هناك أشخاصًا كثيرين لا يسمحون لك بالاسترخاء. ما الذي أتى بك إلى المنزل الذي تقيم فيه حاليًا؟ لقد نسيت اسمه، هلا تخبرني به مرة أخرى؟".

فأذعن تومي إلى طلبه وأخبره بالعنوان.

"آه، أجل... إذن فقد وضعت على الخطاب العنوان الصحيح".

"أجل، لقد تسلمت خطابك".

"لقد فهمت أنك زرت روبنسون، أظن أنه لا يزال على حاله، سمينًا، وذا بشرة صفراء، وثريًا، بل قد يكون أكثر ثراءً عن ذي قبل، كما أنه يعرف كل شيء عنها، أقصد الأموال. ما الذي دفعك للذهاب إلى هناك يا بني؟".

"حسنًا، كنا قد اشترينا منزلًا جديدًا، ونصحني أحد أصدقائي بأن أذهب للسيد روبنسون؛ إذ إنه قد يكون بوسعه أن يميط اللثام عن لغز وجدته أنا وزوجتي يعود إلى زمن بعيد".

"تذكرت الآن، لا أظن أنني التقيت بها من قبل لكنك تحظى بزوجة ذكية، أليس كذلك؟ لقد أدت عملًا جيدًا في... ما اسم القضية؟ إنه يشبه الدروس الشفوية، إن أوه إم، هكذا كان اسم القضية، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "بلى".

"وهأنتذا تعود إلى سابق عهدك مرة أخرى، أليس كذلك؟ تتفحص الأشياء، وتساورك الشكوك، صحيح؟".

فقال تومي: "كلا، ليس صحيحا على الإطلاق، كل ما في الأمر أننا انتقلنا إلى هناك لأننا سئمنا من الشقة التي كنا نعيش بها، إلى جانب أن إيجارها كان يرتفع باستمرار".

فقال الكولونيل بيكاواي: "إنها خدعة سيئة، اعتاد ملاك العقارات أن يفعلوا ذلك في هذه الأيام؛ فدائمًا ما يريدون المزيد، ولا يقنعون بأي شيء. حسنًا، ذهبتما إذن للعيش هناك".

وفجأة استكمل الكولونيل حديثه باللغة الفرنسية قائلًا: "*دعنا نهتم بشئوننا*"، وقال مفسرًا: "أحاول صقل لغتي الفرنسية مرة أخرى. يجب أن أواكب عصر السوق المشتركة، أليس كذلك؟ بالمناسبة، هناك أشياء غريبة تجري هنا خلف الكواليس على خلاف ما تراه فوق السطح. وهكذا ذهبت لتعيش في منزل عش السنونو، ما الذي دفعك للعيش هناك، أريد أن أعرف؟".

فقال تومي: "أتقصد المنزل الذي اشتريناه، حسنًا، إنه يسمى حاليًا ذا لوريس (نبات الغار)".

فقال الكولونيل بيكاواي: "إنه اسم سخيف، رغم أنه كان شائعًا فيما مضى. أتذكر حين كنت صبيًا أن جميع جيراننا كان لديهم أمام المنزل تلك الممرات الرائعة ذات الطراز الفيكتوري، حيث كانوا دومًا ما يضعون عليها أعدادًا كبيرة من الحصى وعلى جانبيها نباتات الغار التي كانت أحيانًا خضراء لامعة، وأحيانا أخرى مزركشة. كان من المفترض أنه نوع من الاستعراض يتبعونه آنذاك. أظن أن بعضًا مما سكنوا هذا المنزل هم من أطلقوا عليه هذا الاسم حتى أصبح مرتبطًا به، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "بلى، أجل، أعتقد ذلك، لكنني أظن أن آخر من سكنه كان يطلق عليه كاتماندو، أو ما شابه لأنه عاش في مكان معين أحبه".

"أجل، أجل، فإن اسم عش السنونو يعود إلى زمن بعيد. أجل، لكن على المرء أن يعود أحيانًا إلى الأزمنة البعيدة. في الواقع، هذا ما سأتحدث معك بشأنه، العودة إلى الأزمنة البعيدة".

"هل كنت تعرفه من قبل يا سيدي؟".

"ماذا؟... منزل عش السنونو، كلا، لم أذهب أبدا إلى هناك. لكنه كان مرتبطًا بأناس وفترات معينة في الماضي، فترات خيمت على هذه الدولة حينها أجواء متوترة".

"لقد نما إلى علمي أنك على معرفة ببعض المعلومات التي تتعلق بشخصية تدعى ماري جوردان، أو أنك تعرف هذا الاسم، هذا ما قاله لي السيد روبنسون".

"أتريد أن تعرف كيف كانت تبدو؟ اذهب إلى رف الموقد وألقِ نظرة على الصورة الموجودة فوق الجانب الأيسر منه".

فنهض تومي وذهب نحو الموقد وأمسك بالصورة، فقد كانت صورة قديمة تظهر بها فتاة ترتدي قبعة كبيرة ومزخرفة وترفع إكليلًا من الزهور نحو رأسها.

فقال الكولونيل بيكاواي: "يبدو مظهرها سخيفًا في هذه الأيام، أليس كذلك؟ لكنني أظن أنها كانت فتاة جميلة، رغم أن الحظ لم يكن حليفها؛ إذ ماتت في سن صغيرة بصورة مأساوية".

فقال تومي: "أنا لا أعرف أي شيء عنها".

فقال الكولونيل بيكاواي: "أعرف ذلك، فلا أحد يعرف عنها شيئًا في هذه الأيام".

فقال تومي: "هناك أقاويل تشير إلى أنها كانت جاسوسة ألمانية، لكن السيد روبنسون قال لي إن الأمر لم يكن كذلك".

"كلا، لم يكن الأمر كذلك؛ إذ إنها كانت تعمل لحسابنا، وقد أدت عملًا جيدًا، لكن أحدهم اكتشف أمرها".

فقال تومي: "حدث ذلك عندما كانت هناك عائلة تدعى باركنسون تعيش هناك".

"ربما، ربما، أنا لا أعرف كل التفاصيل، ولا أحد يعرف عن ذلك شيئًا في هذه الأيام؛ فأنا لم أكن متورطًا شخصيًا بالقضية، غير أن كل هذه الأمور ظهرت إلى النور فيما بعد؛ لأنه دائمًا ما تكون هناك مشكلات، فكل دولة بها مشكلاتها، كما أن هناك دائمًا مشكلات؛ في جميع أنحاء العالم، بل إنك إذا عدت إلى الماضي مائة عام فستجد أنه كانت هناك مشكلات، وإذا عدت مائة عام أخرى، فستجد أيضا مشكلات، فدائمًا ما تتواجد المشكلات".

"هل تقصد أن هناك بعض المشكلات الخاصة حاليًا؟".

"بالطبع هناك مشكلات، لقد قلت لك إن المشكلات موجودة دائمًا".

"أي نوع من المشكلات؟".

فقال الكولونيل بيكاواي: "أوه، لا نعرف، إنهم يأتون إلى رجل مسن مثلي، ويسألونني عما أستطيع أن أخبرهم به، أو ما يمكنني تذكره بشأن أناس محددين في الماضي. حسنًا، ليس بوسعي أن أتذكر كثيرًا لكنني أعرف بعض المعلومات عن بعض الأشخاص؛ فأحيانًا ينبغي أن تبحر في الماضي، وأن تعرف ما الذي كان يحدث حينها، وتكتشف الأسرار التي يخبئها الناس، والمعلومات التي كانوا يحتفظون بها لأنفسهم، كما يجب أن تعرف ما الذي كانوا يتظاهرون بأنه يحدث، وما الذي كان يحدث بالفعل. أعلم أنك أديت أنت وزوجتك مهام عظيمة في أوقات مختلفة، فهل تريد مواصلة ذلك حاليًا؟".

فقال تومي: "لا أعرف... حسنًا، هل تعتقد أن هناك أي شيء يمكنني فعله؟ إنني رجل عجوز حاليًا".

"حسنًا، تبدو لي متمتعًا بصحة أفضل من أناس كثيرين في مثل سنك، بل أراك أيضًا كأنك أكثر صحة من بعض الأشخاص الأصغر سنًا منك. أما فيما يتعلق بزوجتك، فلطالما كانت ماهرة في استشفاف الأمور، أليس كذلك؟ أجل، فمهارتها تعادل مهارة كلب مدرب".

لم يستطع تومي أن يكتم ابتسامته.

وقال: "لكن لماذا كل هذا؟ إنني... إنني مستعد بالطبع لأن أفعل أي شيء إذا... إذا كنت تعتقد أنني أستطيع ذلك، لكنني لا أعرف، فلم يخبرني أحد بشيء".

فقال الكولونيل: "لا أظن أنهم سيخبرونك بأي شيء، ولا أعتقد أنهم يريدون مني أن أفصح لك عن أي شيء، وأتصور أن روبنسون لم يخبرك بالكثير، فذلك السمين الضخم يعرف كيف يمسك لسانه، لكنني سأخبرك بالحقائق المجردة: أنت تعلم ما يبدو عليه العالم، فدائمًا ما تحدث به الأشياء ذاتها ... عنف، واحتيال، ومادية، وتمرد شباب، وحب للعنف، وجرعات كبيرة من السادية، إننا نعيش أيامًا لا تقل سوءًا عن أيام منظمة شباب هتلر، وحين نرغب في كشف الخطأ، ليس في هذه الدولة فحسب بل في العالم بأكمله، لا نجد الأمر سهلًا؛ حيث إن السوق المشتركة أمر جيد، لطالما احتجنا إليه ورغبنا به، لكن ينبغي أن تكون سوقًا مشتركة حقيقية، وينبغي أن يفهم ذلك بوضوح، يجب أن تكون أوروبا متحدة، يجب أن يكون هناك اتحاد يتكون من دول

متحضرة تحمل أفكارًا متحضرة ومعتقدات ومبادئ متحضرة. وحين يختل شيء ما، علينا تحديد مكان الخلل، وهذا ما يبرع فيه ذلك الرجل الضخم".

"أتقصد السيد روبنسون؟".

"أجل، أقصد السيد روبنسون، أتعرف أنهم أرادوا منحه رتبة النبلاء، لكنه رفض، أظن أنك لا تجهل *مكانته*".

فقال تومي: "أظن ذلك، تقصد... أنه يمثل ... *المال*".

"هذا صحيح، لا أقصد أنه من أتباع مذهب المادية في حد ذاته، لكنه يعلم كل شيء يتعلق بالمال، يعلم من أين يأتي، وإلى أين يذهب، ومن الذي يقف خلف البنوك، والمشاريع الصناعية الضخمة، كما يعرف هوية المسئول عن بعض الأشياء، والثروات الطائلة التي تجلب من المخدرات، وكذلك يعرف المتاجرين بها، وأنواعها التي توزع عبر العالم ويسوق لها؛ فالمال لا يستخدم فحسب لشراء منزل كبير وسيارتين موديل رولز رويس، بل يستخدم أيضًا من أجل جلب المزيد من الأموال وإرساء المعتقدات القديمة أو التخلص منها كالأمانة والتجارة العادلة. لسنا بحاجة لوجود مساواة حول العالم، بل يجب للقوي أن يساعد الضعيف، وللغني أن يمول الفقير، ينبغي أن يبجَّل الأمناء والصالحون بيننا. إنه المال! فكل شيء يعتمد عليه حاليًا. ما الذي تفعله الأموال، وإلى أين تذهب، وما الذي تدعمه، وما مدى اختفائها، أتدري؟ كان هناك أناس في الماضي يملكون نفوذًا وعقولًا جلبت لهم أموالًا وموارد، وكانت السرية تكتنف بعضًا من أنشطتهم، لكن علينا أن نكتشف أمرهم، نكتشف

لمن مررت أسرارهم، ولمن سلمت، ومن الذي يدير الأمور حاليًا. كان منزل عش السنونو مقرًا للشر، إذا جاز لي القول، وقد حدث فيما بعد شيء آخر في هولوكواي. هل تتذكر جوناثان كين؟".

فقال تومي: "لا أتذكر أي شيء عنه بشكل شخصي".

"يقال إنه كان يمثل مذهبًا أثار إعجاب الجميع فيما مضى، وهو ما عرف لاحقًا بالفاشية، كان ذلك قبل أن نعرف ما سيصبح عليه هتلر وأعوانه، حينما كنا نعتقد أن شيئًا مثل الفاشية قد يكون فكرة رائعة لإصلاح العالم. وكان لـ جوناثان كين أتباع كثر من الشباب ومتوسطي العمر، كما كان لديه خطط، ومراكز قوى وكان على علم بأسرار الكثير من الأشخاص. كان يملك نوعًا من المعرفة ساهمت في منحه نفوذًا، كان دائمًا ما يلعب الابتزاز دوره في ذلك. نحن نريد أن نعرف ما كان يعرفه، وما كان يفعله، وأعتقد أنه من الممكن أن يكون قد ترك وراءه كثيرا من خططه وأتباعه من الشباب الذين وقعوا في شراك هذه الأفكار ولا يزالون يؤيدونها. وكما تعرف فقد كان ولا يزال هناك أسرار تقدر بأموال كثيرة. إنني لا أقول لك شيئًا محددًا لأنني لا أعرف أي شيء محدد، والمشكلة هي أنه ما من أحد يعرف حقًا. إننا نعتقد أننا نعرف كل شيء نظرًا لما مررنا به من حروب واضطرابات، وسلام، وحكومات جديدة، نحن نعتقد أننا نعرف كل شيء، لكن أهذا حقيقي؟ هل نعرف أي شيء عن الحرب الجرثومية؟ هل نعرف كل شيء عن الغازات، وعن الوسائل التي تؤدي إلى التلوث؟ إن للكيميائيين أسرارهم، كما هي الحال مع

القوات البحرية، والجوية، وهذه الأسرار لا ترتبط كلها بالوقت الحالي، بل إن جزءًا منها له جذور متغلغلة في الماضي، وبعضًا منها كان على وشك أن يظهر للنور لكن ذلك لم يحدث؛ إذ لم يكن هناك وقت لذلك، لكنها دونت على أوراق أو سلمت لأشخاص، وهؤلاء الأشخاص أنجبوا أطفالًا وأحفادًا وربما أخفيت بعض الأشياء داخل وصية، أو ملفات، أو عُهد بها إلى محامين كلفوا بتسليمها في وقت محدد.

"وهناك أشخاص يجهلون ما ينقلونه، وبعض منهم يتلفونه كالنفايات، لكن علينا أن نكتشف المزيد لأن هناك أشياء تحدث طوال الوقت في دول وأماكن مختلفة، في الحروب، وفي فيتنام، وفي حروب العصابات، ، وحتى في الدول غير المتورطة كالسويد وسويسرا. تلك الأشياء موجودة ونحن نريد مفاتيح حلها. هناك من يرى أننا قد نجد بعضًا من تلك المفاتيح في الماضي، لكننا لا نستطيع أن نعود إلى الماضي، ولا يمكننا أن نذهب إلى الطبيب ونقول له "نومني مغناطيسيًا واجعلني أرى ما حدث في عام ١٩١٤، أو عام ١٩١٨ أو قبل ذلك، ربما عام ١٨٩٠". كان هناك شيء يخطط له، شيء لم يتطور بصورة كاملة، وكانت هناك أفكار، فإذا نظرت إلى الماضي فستجد أنهم في العصور الوسطى كانوا يفكرون في الطيران، ويعرفون عنه، فأظن أن المصريين القدماء كانت لديهم أفكار محددة لم تتطور؛ لكن ما إن تتناقل الأفكار بين الأجيال، وما إن تقع في يد شخص يملك الوسائل والعقل التي تمكنه من تطويرها، فقد يحدث أي شيء، سواء أكان سيئاً أم جيدًا. إننا نشعر بأن بعض الاختراعات، مثل

الحرب الجرثومية، من الصعب تفسيرها إلا من خلال بعض التطورات السرية التي كان يعتقد أنها غير مهمة، لكنها كانت مهمة بالفعل، فتقع في يد أحد الأشخاص، فيجري لها بعض التعديلات التي من الممكن أن ينجم عنها نتائج كارثية، وأشياء يمكن أن تغير أنماط شخصية، وتحول أحدهم من شخص صالح إلى آخر فاسد، ودائمًا ما يكون ذلك للسبب ذاته، ألا وهو المال، المال وما يمكن أن يشتريه ويجلبه من نفوذ. حسنًا، عزيزي تومي، ما رأيك في كل هذا؟".

فقال تومي: "أعتقد أنه مشهد مثير للفزع".

"أجل، لكن هل ترى أنني أقول كلامًا غير منطقي؟ هل تعتقد أن هذا الكلام ليس إلا أوهام رجل مسن؟".

فقال تومي: "كلا يا سيدي، إنني أعتقد أنك الرجل الذي يعرف الكثير من المعلومات، لطالما كنت رجل المعلومات".

"ولهذا السبب يقصدونني، أليس كذلك؟ يأتون إلى هنا ويشتكون من الدخان ويقولون إنه يخنقهم، لكن... حسنًا، كانت هناك قضية فرانكفورت التي نجحنا في حلها من خلال الوصول إلى الشخص الذي كان يقف وراءها، قد يكون هناك شخص، بل عدة أشخاص يقفون وراء هذا الأمر الذي نحن بصدده. ربما نستطيع معرفة هويتهم، لكن حتى وإن لم نستطع، فربما يكون بوسعنا أن نعرف ماهية الأشياء التي يخفونها".

فقال تومي: "أجل، أتفهم ذلك".

"ألا تعتقد أن هذا كله مجرد هراء؟ مجرد خيال؟".

فقال تومي: "أعتقد أنني ما رأيت أمرًا خياليًا إلا وكان وراءه بعض الحقيقة، لقد تعلمت ذلك خلال رحلتي الطويلة في الحياة؛ حيث إن أكثر الأشياء دهشة هي الأشياء الحقيقية، فأحيانًا ما تكون الأشياء التي لا يمكنك أن تصدقها هي الأشياء الحقيقية، لكن ما يجب أن أجعلك تفهمه هو *أنني* لا أتمتع بالأهلية، ولا أملك معرفة علمية؛ فدائمًا ما كان الأمن هو محور اهتمامي".

فقال الكولونيل: "لكنك الرجل الذي يتمكن دائمًا من اكتشاف الأشياء، أنت، وزوجتك. لقد قلت لك إنها تستشف الأمور، إنها تحب اكتشاف الأشياء، كما أنها تطوف من مكان لآخر. هكذا تكون هؤلاء النساء، إنهن ينجحن في اكتشاف الأسرار. إذا كانت شابة وجميلة، فستفعل مثل دليلة، وعندما تتقدم في العمر... كانت لديَّ عمة مسنة لا تفوت سرا إلا ودست أنفها به واكتشفت الحقيقة التي تكمن وراءه، وهناك جانب المال، وهو ما يتخصص به روبنسون، إنه يعرف عن المال، وعن المكان الذي يذهب إليه، وسبب ذلك، كما يعلم *مصدره* وما *يفعل* به. إنه يعرف عن المال؛ فكما يشعر الطبيب بنبضك، يشعر هو بنبض الممول، ويستطيع أن يعرف أين تكمن الأموال، كما يمكنه أن يعرف من يستخدمها، وفيما تستخدم ولماذا. إنني أمدك بهذه المعلومات لأنك في المكان الصحيح، إنك في المكان الصحيح بالمصادفة، وأنت لست هنا من أجل السبب الذي قد يفترض أي شخص أنك هنا من أجله. إنكما زوجان عاديان، متقدمان في السن، ومتقاعدان، ويبحثان عن منزل جميل ليقضيا به بقية حياتهما، وفي أثناء ذلك يفتشان بأركانه،

ويحرصان على إقامة الأحاديث مع الآخرين. ربما في يوم من الأيام يظهر أمر من شأنه أن يوحي إليك بشيء. هذا كل ما أريد منك أن تفعله، أن تكتشف الأساطير أو القصص التي تروى عن أيام الماضي السيئة أو الجيدة".

فقال تومي: "لقد سمعت عن فضيحة الضابط البحري، وخطط الغواصة أو شيء من هذا القبيل، لا يزال الحديث جاريًا عن هذا الموضوع، ويواصل العديد ذكره، لكن لا يبدو أن أحدًا يعرف أي شيء عن الأمر".

"أجل، حسنًا، هذه نقطة بداية جيدة. كان من المعروف حينها أن جوناثان كين يعيش في كوخ بالقرب من البحر وكان يدير حملته الدعائية بهذا المكان. كان لديه أتباع يعتقدون أنه رجل رائع. اسمه جوناثان كين، لكنني سأنطقه بطريقة مختلفة... جوناثان قابيل... هذا سيصفه بطريقة أفضل. كان يحب التدمير ووسائله، ولقد ترك إنجلترا، ويقال إنه انتقل من إيطاليا إلى بلدان بعيدة. ويشاع أيضًا أنه ذهب إلى روسيا، وأيسلندا، والقارة الأمريكية، غير أننا لا نعرف أين ذهب وماذا فعل ومن ذهب معه واستمع إليه، لكننا نعتقد أنه كان يعرف بعض المعلومات البسيطة؛ فقد كان محبوبًا بين جيرانه، وكان يتناول عندهم الغداء وكذلك هم، أما الآن فهناك شيء واحد يجب أن أخبرك به: انظر لما يجري حولك، فتش عن الأشياء، لكن احترس لنفسك ولزوجتك. اعتنِ بها... ما اسمها؟ برودينس؟".

فقال تومي: "لم ينادها أحد على الإطلاق بـ برودينس، اسمها توبينس".

"هذا صحيح، اعتنِ بـ توبينس واجعلها تعتني بك، انتبه لما تتناولانه وتشربانه واحترسا من الأماكن التي تذهبان إليها ومن الأشخاص الذين تخالطونهما والذين يظهرون لكما الود دون سبب! قد تجدان بعض المعلومات، أو تكتشفان شيئًا غريبًا أو غير منطقي، أو تعرفان بقصة في الماضي كان تعني شيئًا، أو ربما شخصًا ذا صلة أو قريبًا أو شخصًا كان يعرف الناس في الماضي".

فقال تومي: "سأفعل ما في استطاعتي، سنفعل كل ما في وسعنا، لكنني لا أشعر بأننا سنقدر على ذلك. إننا متقدمان في السن للغاية، ولا نملك معلومات بما يكفي".

"تستطيع أن تملك أفكارًا".

"أجل، توبينس لديها أفكار. إنها تعتقد أن هناك شيئًا مخبأ في منزلنا".

"ربما يكون الأمر كذلك، فلقد كان لدى الآخرين الفكرة ذاتها لكن لم يجد أحد أي شيء حتى الآن، لكن لعلهم لم يبحثوا بالقناعة والحماسة المطلوبة؛ فهناك منازل مختلفة وعائلات مختلفة، حيث تباع المنازل ويتغير سكانها وما إلى ذلك، فهناك عائلة ليسترنج ومورتيمر وباركنسون. لا يمكن أن أقول شيئًا عن عائلة باركنسون فيما عدا أحد أبنائها".

"هل هو ألكسندر باركنسون؟".

"إذن فأنت تعرف عنه، كيف تمكنت من ذلك؟".

"لقد ترك رسالة لأحد الأشخاص في أحد مؤلفات روبرت لويس ستيفنسون، ووجدناه يقول: *ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية*".

"هناك حكمة تقول: قدر الإنسان معلق في عنقه، أليس كذلك؟ استمرا فيما تفعلانه، واعبرا من بوابة المصير".

الفصل ٦

بوابة المصير

كان متجر السيد ديورانس يقع في منتصف القرية عند إحدى الزوايا، وكان يعرض في نافذته بعض صور الزفاف، وصورة لرضيع عارٍ يرفس بقدميه فوق سجادة، وأخرى لشابين ملتحيين بصحبة أصدقائهما. لم تكن الصور جيدة، بل كان يبدو على بعض منها علامات القدم، وكانت هناك أيضًا بطاقات بريدية بأعداد كبيرة؛ وبطاقات أعياد، إلى جانب بعض الرفوف المميزة والمرتبة وفقًا للعلاقات الإنسانية: إهداء إلى زوجي، إهداء إلى زوجتي، وكانت هناك حافظات جيب ومحافظ ذات جودة رديئة ومجموعة من الأدوات المكتبية وخطابات تحمل زخارف نباتية، وكذلك صناديق تحتوي على ورق ملاحظات صغير مزين بالزهور ومكتوب عليه من أجل الملاحظات.

تجولت توبينس قليلاً بالمتجر وأخذت تقلب في بعض المعروضات، بينما كانت تجري مناقشة تتعلق بانتقاد إحدى الصور التي التقطت من كاميرا محددة وطلب المشورة بشأنها، وكانت هناك سيدة مسنة، ذات شعر رمادي، وعينين غابت عنهما

الحيوية، تتولى أمر طلبات الزبائن الاعتيادية، لكن بدا أن المسئول الرئيسي عن المتجر هو ذاك الشاب الفارع الطول ذو الشعر الكستنائي الطويل واللحية القصيرة الذي جاء من وراء طاولة البيع متقدمًا نحو توبينس، ونظر إليها في استفسار.

وقال: "أيمكنني مساعدتك؟".

فقالت توبينس: "أجل، أريد أن أسأل عن الألبومات، ألبومات الصور".

"آه، أتقصدين الشيء الذي تحفظين به الصور؟ حسنًا، لدينا عدد قليل منها، لكنك لن تجدي منها الكثير حيث يفضل الناس حاليًا الحافظات الشفافة".

فقالت توبينس: "أجل، أعرف ذلك، لكنني أهوى جمعها، إنني أجمع ألبومات الصور القديمة".

وبحركة شبه سحرية أخرجت توبينس من حقيبتها الألبوم الذي أرسلته لها السيدة جريفين.

فقال السيد ديورانس: "آه، إنه يرجع إلى زمن بعيد، أليس كذلك؟ آه، ربما مر عليه أكثر من خمسين عامًا. كان إنتاجه غزيرًا في ذلك الحين، أليس كذلك؟ فكل شخص كان يملك ألبومًا للصور".

فقالت توبينس: "وكان لديهم أيضًا دفاتر ذكرى أيام الميلاد".

"دفاتر ذكرى أيام الميلاد، أجل، أتذكر شيئًا عنها، أتذكر أن جدتي كانت تملك واحدًا، وكان كثير من الناس يدونون أسماءهم

به. لا نزال نبيع هنا بطاقات أعياد الميلاد، لكنها لا تلقى رواجًا في هذه الأيام، بل يكثر الإقبال على بطاقات الأعياد".

"لا أعرف إذا ما كان لديك أية ألبومات قديمة، أعلم أن هذه النوعية من الأشياء لم يعد الناس يرغبون في امتلاكها، لكنها تهمني كهاوية لجمعها. إنني أحب امتلاك الأشياء المختلفة".

فقال ديورانس: "حسنًا، الكل يهوى جمع الأشياء في هذه الأيام؛ فهم يجمعون أشياء لا تخطر على بال، لكن لا أعتقد أن لديَّ بالمتجر شيئًا بقدم ألبومك هذا، غير أن بوسعي أن أبحث لك عن واحد".

فذهب خلف طاولة البيع وفتح أحد الأدراج المعلقة على الحائط.

وقال: "لديَّ الكثير من الأشياء هنا، كنت أنوي إخراجها، لكنني وجدت أنها لن تلقى رواجًا، ومن بينها بالطبع الكثير من ألبومات الزفاف، حيث يطلبها الناس فحسب عند حفل الزفاف لكن لا أحد يعود للبحث عن ألبومات زفاف تتعلق بالماضي".

"تعني أن لا أحد يأتي ويقول لك: "جدتي تزوجت هنا، فأتساءل إذا ما كان هناك أية صور لحفل زفافها؟".

فقال ديورانس: "لا أظن أنه قد جاءني أحد وطلب مني ذلك، لكن من يدري؟ فأحيانًا ما يبحث الناس عن أشياء غريبة؛ ففي بعض الأحيان يأتيني شخص ويطلب أن يرى ما إذا كنت لا أزال أحتفظ بنيجاتيف صور أحد الأطفال، وأنت تعرفين ما باتت عليه الأمهات اليوم، فهن يأتين ويطلبن صورًا لأطفالهن عندما

كانوا صغارًا، رغم أن معظم هذه الصور تكون سيئة، ومن حين لآخر تأتي إلينا الشرطة لتحديد هوية شخص ما... شخص كان يعيش هنا بينما كان صبيًا، ويريدون التعرف على ملامحه، أو بالأحرى ما كانت عليها ملامحه حينها، وإذا ما كان من المرجح أن يكون الشخص ذاته الذي يبحثون عنه لأنه مطلوب لجريمة قتل أو نصب"، ثم استطرد ديورانس بابتسامة مشرقة: "لا بد أن أعترف بأن هذا الأمر يضفي نوعًا من البهجة أحيانًا".

فقالت توبينس: "أراك تهتم بالجرائم".

"أوه حسنًا، يقرأ المرء عن أمور كهذه كل يوم. على سبيل المثال، لماذا هذا الرجل من المفترض أن يكون قد قتل زوجته منذ ستة أشهر، وكل هذه الأشياء. أعني أن هذا الأمر ممتع، أليس كذلك؟ لأن بعض الناس يقولون إن زوجته لا تزال حية، بينما يقول بعضهم الآخر إنه دفنها في مكان ما ولم يعثر عليها أحد، وما إلى ذلك. فمن الممكن أن تسهم رؤية صورته في حل لغز القضية".

فقالت توبينس: "أجل".

شعرت توبينس حينها بأنها ستعود بخفي حنين رغم أن الأمر يسير على ما يرام مع السيد ديورانس.

فقالت: "لا أظن أن لديك أية صور لامرأة تدعى... أظن أن اسمها ماري جوردان، أو ما شابه، غير أنه مر على هذا الأمر زمن طويل، حوالي... أوه، أظن أنها ستون عامًا، وأعتقد أنها ماتت هنا".

فقال السيد ديورانس: "حسنًا، لا بد أن ذلك كان قبل عصري، فقد كان أبي يحتفظ بالكثير من الأشياء الجيدة، لقد كان أحد المهووسين بالمقتنيات، هكذا كان يطلق عليهم. لم يرغب مطلقًا في التخلص من أي شيء، وكان يتذكر كل من يعرفهم، خاصة إذا كانت حوله قصة ما. ماري جوردان، يبدو أنني أتذكر شيئًا عنها، شيئًا يتعلق بالضابط البحري، أليس كذلك وبإحدى الفواصات؟ كان يقال عنها إنها جاسوسة، أليس هذا صحيحًا؟ كانت نصف أجنبية، وكانت أمها روسية أو ألمانية، وربما كانت يابانية أو ما شابه".

"أجل، كنت أتساءل إذا ما كانت لديك أية صور لها".

"حسنًا، لا أعتقد ذلك، سألقي نظرة في المكان لاحقًا حينما يتوافر لديَّ الوقت، وإذا وجدت شيئًا، فسأخبرك به"، ثم قال في أمل: "أعتقد أنك كاتبة، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، لا أعمل بالكتابة طوال الوقت، لكنني أفكر في نشر كتاب صغير، أستدعي فيه الأمور التي حدثت منذ مائة عام وحتى اليوم، كالأشياء الغريبة التي حدثت حينها بما في ذلك الجرائم والمغامرات، وستكون الصور القديمة بالطبع مثيرة للغاية، كما ستضيف للكتاب نوعًا من التوضيح".

"حسنًا، سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك. إنني على يقين بأن ما تفعلينه ممتع للغاية، أقصد ما ستفعلينه".

فقالت توبينس: "أعتقد أنها كانت تعيش في منزلنا".

"آه، إنك تعيشين في المنزل الموجود فوق التل، أليس كذلك؟ ذا لوريس أو كاتماندو، لا أتذكر اسمه الأخير. لقد كان يسمى قبل ذلك عش السنونو، أليس كذلك؟ لكن لا أعرف السبب في ذلك".

فقالت توبينس: "أظن أنه كان يوجد الكثير من أعشاش طيور السنونو فوق السطح، إنها لا تزال موجودة".

"حسنًا، ربما كان الأمر كذلك، لكنه اسم مضحك بالنسبة لمنزل".

وبعد أن شعرت توبينس بأنها أقامت صداقة ودية مع ديورانس، رغم أنها لم تكن تعول كثيرًا على أن تخرج منه بمعلومات مفيدة، اشترت بعض البطاقات البريدية وبعض أوراق الملاحظات المزخرفة، ثم ودعت السيد ديورانس وغادرت المكان في سيارتها، وعندما وصلت إلى المنزل، ذهبت إلى الممر الجانبي الموجود حوله لتلقي نظرة أخرى على كيه كيه؛ لكنها توقفت فجأة عندما اقتربت من الباب، ثم واصلت سيرها، حيث بدا أن هناك شيئًا أشبه بكومة ملابس موجودة بالقرب من الباب، فتساءلت توبينس عما إذا كان هناك شيء قد أخرجوه من ماتيلدا ولم يفحصوه.

فأسرعت في خطاها، ولكن عندما دنت من الباب توقفت فجأة، فلم تكن كومة من الملابس، بل كان جسدًا طاعنًا في السن يرتدي ملابس عتيقة، فانحنت توبينس ثم نهضت مرة أخرى، ممسكة بالباب.

وقالت: "إيزاك! إيزاك، إيزاك المسكين، أعتقد... أوه، أعتقد أنه ميت".

وبينما كانت تصرخ متقدمة بعض الخطوات، كان هناك شخص قادم نحوها على الطريق من المنزل.

فقالت: "أوه، ألبرت، ألبرت. هناك حدث مفجع. إيزاك، إيزاك المسن. إنه ميت هنا وأعتقد... وأعتقد أن أحد الأشخاص قد قتله".

الفصل ٧

التحقيق

قدم الطبيب تقريره الطبي، واستمعت الشرطة إلى شهادة شخصين كانا يمران على مسافة ليست بالبعيدة من أمام بوابة المنزل وقت حدوث الجريمة، كما أدلت عائلة إيزاك بشهادتها فيما يتعلق بحالته الصحية، وبالأشخاص الذين من المرجح أن يكونوا خصومًا له (وهم بعض من المراهقين الصغار الذين كان إيزاك قد وجه لهم بعض التحذيرات العنيفة) حيث استدعتهم الشرطة، لكنهم نفوا أن يكونوا قد ارتكبوا هذه الجريمة، وكذلك أدلى بالشهادة بعض الأشخاص الذين كان إيزاك يعمل لديهم بمن فيهم السيدة توبينس بيريسفورد، وزوجها، السيد توماس بيريسفورد، وهكذا أدلى الجميع بشهادته، واتخذت جميع الإجراءات حتى صدر الحكم بأنها: جريمة قتل عمد ارتكبها مجهولون.

خرجت توبينس من غرفة الاستجواب بصحبة تومي الذي كان يحتضنها بذراعه بينما كانا يمران بين عدد قليل من الأشخاص الذين كانوا ينتظرون بالخارج.

فقال تومي بينما يعبران بوابة حديقة منزلهما: "لقد أبليت حسنًا يا توبينس. كان أداؤك جيدًا بحق، بل أفضل من الآخرين. كنت واضحة تمامًا، وبدا أن المحقق كان سعيدًا بك جدًا".

فقالت توبينس: "لا أريد لأحد أن يسعد بي، ولم أكن أود أن يضرب إيزاك المسن بالعصا على رأسه ويقتل هكذا".

فقال تومي: "أظن أن أحدهم كان يضمر ضغينة نحوه".

فقالت توبينس: "ولماذا يفعل ذلك؟".

فقال تومي: "لا أعرف".

فقالت توبينس: "وكذلك أنا، لكنني أتساءل عما إذا كان الأمر يتعلق بنا".

"هل تقصدين... ماذا تعنين يا توبينس؟".

فقالت توبينس: "أنت تعرف ما أقصده، إنه هذا... هذا المكان، منزلنا الجديد، والحديقة، وكل شيء. فكأنما... هل ترى أنه المكان المناسب لنا؟ لقد كنا نحسبه كذلك".

فقال تومي: "حسنًا، أنا لا أزال أرى أنه مكاننا المناسب".

فقالت توبينس: "أجل، أعتقد أنك تتمتع بقدر من الأمل يفوق ما لديَّ، لكن يراودني شعور بأن هناك شيئًا... شيئًا خطأ هنا، شيئًا يتعلق بالماضي".

فقال تومي: "لا تقولي ذلك مرة أخرى".

"لا أقول ماذا؟".

"أوه، هاتين الكلمتين".

فأخفضت توبينس صوتها واقتربت من تومي وهمست في أذنه.

قائلة: "أتقصد ماري جوردان؟".

"أجل، هذا ما *كان* يدور في رأسي".

"وكذلك أنا، لكن ما علاقة حادثة إيزاك التي وقعت في الحاضر بـ ماري جوردان التي تتعلق بالماضي؟ ما الأهمية التي يحملها الماضي في الوقت الحاضر؟ من المستحيل أن يكون هناك شيء في الماضي يتعلق... بالحاضر".

فقال تومي: "إن الماضي ليست له علاقة بالحاضر، أهذا هو ما تقصدينه؟ لكن الماضي يتعلق بالحاضر، يتعلق به بأساليب غريبة لا تخطر على بال المرء... أساليب لا يمكن للمرء أن يصدق أنها قد تحدث".

"أتقصد أن هناك أشياء كثيرة تحدث بسبب ما وقع في الماضي؟".

"أجل، إنها سلسلة طويلة... أحيانًا توجد بها حلقات مفقودة، وأحيانًا أخرى حبات من الخرز".

"جين فين، إن الأمر يشبه قضية جين فين إبان مغامراتنا التي عايشناها وأحببناها عندما كنا في سن الشباب".

فقال تومي: "وقد نجحنا في حل القضية، فأحيانًا ما أعاود التفكير فيها وأتساءل كيف خرجنا منها بسلامة".

"وبعد ذلك... حينما دخلنا معا إحدى الشركات وتظاهرنا بأننا محققان".

فقال تومي: "كان أمرًا مليئًا بالمرح، هل تتذكرين...".

فقالت توبينس: "كلا، لن أتذكر شيئًا، لست مهتمة بالعودة إلى التفكير في الماضي إلا إذا كان... مدخلًا إلى الحاضر. على أية حال، فقد ساهم ذلك في إصقال خبرتنا، أليس كذلك؟ ثم جاءت القضية الأخرى".

فقال تومي: "آه، السيدة بلينكنسوب، هاه؟".

فضحكت توبينس.

وقالت: "أجل، السيدة بلينكنسوب، لن أنسى ما حييت عندما دخلت تلك الغرفة ورأيتك تجلس هناك".

"كيف جرؤت يا توبينس على فعل ذلك؟ كيف لك أن تحركي تلك الخزانة أو أيًا كان اسمها، وتنصتي إلى حديثي مع ذلك السيد، وبعد ذلك..."

فقالت توبينس ضاحكة: "وبعد ذلك السيدة بلينكينسوب، وقضية إن أوه إم وجوسي جوسي جاندر".

قال تومي: "لكن لا..."، ثم تردد قليلًا وأردف: "لا أظنك تعتقدين أن كل تلك القضايا كانت مجرد مدخل للحاضر؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، إنها كذلك بطريقة ما، أعني أنني لا أظن أن السيد روبنسون كان سيقول لك هذا الكلام لو لم يكن يدور برأسه الكثير من تلك الأمور التي يتعلق بعضها بي شخصيًا".

"بالتأكيد".

فقالت توبينس: "لكن هذه الجريمة تجعل الأمر برمته مختلفًا تمامًا. أعني أن إيزاك مات مضروبًا على رأسه بالعصا داخل حديقتنا".

"أتعتقدين أن *لهذا* علاقة بـ..."

فقالت توبينس: "لا يسع المرء إلا أن يفرض هذا الاحتمال. هذا ما أعنيه، نحن لم نعد نحقق في لغز بوليسي أو نتبين أمرًا يتعلق بالماضي، أو بالدافع الذي كان وراء موت أحدهم في الماضي، لكن الأمر أصبح شخصيًا، شخصيًا للغاية. أعني أن موت إيزاك المسكين *جعل المسألة شخصية*".

"كان رجلًا كبيرًا للغاية، وربما كان لكبر سنه دخل بالأمر".

"لا أظن ذلك، وخاصة بعدما سمعت تقرير الطبيب هذا الصباح! هناك شخص أراد قتله، لكن لماذا؟".

فقال تومي: "ولكن إن كان الأمر يتعلق بنا، فلماذا لم يحاولوا قتلنا نحن؟".

"حسنًا، ربما سيحاولون ذلك أيضًا، كان بإمكان إيزاك أن يخبرنا بشيء، لعله *كان* سيخبرنا ببعض المعلومات، وربما هدد شخصًا آخر بأن يفصح لنا عن بعض الأشياء التي يعرفها عن ماري جوردان أو شخص من آل باركنسون، أو... أو عن كل عمليات التجسس التي حدثت خلال حرب عام ١٩١٤، كالأسرار التي تم بيعها، وكان لا بد أن يصمت، لكن لو *أننا* لم نأت للعيش هنا ولم نطرح على الآخرين أسئلتنا رغبة في اكتشاف الأمر، لما حدث ذلك".

"لا تزعجي نفسك".

"إنني منزعجة للغاية، ولن أتصرف بدافع المرح بعد الآن، فالأمر لم يعد مزاحًا؛ فنحن نفعل شيئًا مختلفًا الآن يا تومي؛ إننا نطارد قاتلاً، لكن من يكون؟ لم نعرف بعد، لكننا نستطيع أن نكتشف ذلك، فلم يعد الأمر يتعلق بالماضي، بل سار مرتبطًا بالحاضر، فالحادثة وقعت منذ أيام فحسب، منذ ستة أيام، وهي تمسنا عن قرب وترتبط بهذا المنزل الذي نعيش فيه، ويجب أن نكتشف الأمر وسنكتشفه. لا أعرف كيف؛ لكن علينا أن نتتبع كل الأدلة والخيوط. أشعر كما لو أنني كلب يشتم بأنفه الأرض مقتفيا أثرًا ما، وسيكون عليَّ أن أقتفيه *هنا*، وعليك أن تكون مثل كلب الصيد؛ انطلق إلى أماكن مختلفة، كما تفعل الآن، واكتشف الأمور، وانته من أبحاثك. لا بد أن يكون هناك من يملك بعض المعلومات التي لم يكتشفها بنفسه، بل عرفها من الآخرين، كقصص سمعها أو أقاويل، أو شائعات".

"لكن يا توبينس، هل تعتقدين أن هناك فرصة لـ..."

فقالت توبينس: "أجل، أعتقد ذلك. لا أعرف كيف أو بأية طريقة، لكنني أعتقد أنه عندما تكون لديك فكرة حقيقية ومقنعة... شيء تعرف أنه شرير وسيئ، وضرب إيزاك على رأسه *كان* شيئًا سيئًا وشريرًا..."، وهنا توقفت توبينس عن الكلام.

فقال تومي: "يمكننا أن نغير اسم المنزل مرة أخرى".

"ماذا تعني؟ أن نسميه عش السنونو وليس ذا لوريس؟".

حلق فوق رأسيهما سرب من الطيور، فأدارت توبينس رأسها ثم عادت تنظر إلى بوابة الحديقة وقالت: "كان يسمى فيما مضى عش السنونو، ما بقية هذا الاقتباس الشعري؟ الاقتباس الذي قالته مساعدتك المسئولة عن البحث بشأن قصيدة بوابة الموت، أليس كذلك؟".

"نعم، بوابة المصير".

"بوابة، هذا أشبه وصف لما حدث لـ إيزاك، بوابة المصير... بوابة *حديقتنا*..."

"لا تقلقي كثيرًا يا توبينس".

فقالت توبينس: "لا أعرف لماذا، لكنها فكرة أتت في رأسي فحسب".

فرمقها تومي بنظرة حائرة وهز رأسه.

فقالت توبينس: "عش السنونو اسم جميل حقًا، أو كان يمكن أن يكون جميلاً... أو ربما سيكون كذلك في يوم من الأيام".

"إن لك أفكارًا غريبة يا توبينس".

"لا يزال هناك شيء يغرد مثل الطائر، هكذا انتهت القصيدة، ولعل كل ذلك سينتهي هكذا".

قبل أن يصلا إلى المنزل، شاهد تومي وتوبينس امرأة واقفة عند عتبة الباب.

فقال تومي: "ترى من هذه؟".

فقالت توبينس: "لقد رأيتها من قبل، لا أتذكر هويتها حاليًا، أوه، أظن أنها واحدة من آل إيزاك، فهم يعيشون جميعًا

كما تعرف في كوخ واحد، وعددهم ثلاثة أو أربعة صبية، إلى جانب هذه المرأة، وفتاة أخرى، لكن ربما أكون مخطئة".

فالتفتت المرأة وتقدمت نحوهما.

وقالت وهي تنظر إلى توبينس: "السيدة توبينس، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أجل".

"لا أظن أنك تعرفينني، أنا زوجة ابن إيزاك، ستيفن، ... الذي قتل في حادث؛ إذ صدمته إحدى الشاحنات الكبرى على إحدى طرق إم... أظن أنه كان طريق إم واحد، أو إم خمسة، كلا، إن طريق إم خمسة قبله، ربما يكون إم أربعة، على أية حال، وقع ذلك الحادث منذ ستة أعوام، وقد أردت... أردت فحسب أن أتحدث إليك، أنت و... وزوجك..."، ثم نظرت إلى تومي وأردفت: "لقد أرسلتما زهورًا إلى الجنازة، أليس كذلك؟ كان إيزاك يعمل هنا في حديقتكما، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أجل، كان يعمل لدينا هنا، إن الحادثة كانت مفجعة".

"جئت لأشكرك؛ فالزهور كانت لطيفة للغاية، وراقية، لقد كانت باقة زهور رائعة".

فقالت توبينس: "كان من الواجب أن نفعل ذلك؛ لأن إيزاك كان مهمًا جدًا لنا، لقد ساعدنا كثيرًا على الانتقال إلى المنزل، وكان يخبرنا بالأشياء الموجودة به، لأننا لا نعرف كثيرًا عنه،

فكان يخبرنا عن أماكن الأشياء وما شابه، كما أفادني بالكثير من المعلومات عن الزراعة أيضًا، وما إلى ذلك".

"أجل، إنه يعرف من أين تؤكل الكتف، إذا جاز القول، لكنه لم يكن عاملًا ماهرًا لأنه كان متقدمًا في السن، ولم يكن يحب الانحناء، إذ كان يعاني آلامًا أسفل ظهره؛ لذلك كان ما يفعله لا يرقى لما يتمنى القيام به".

فقالت توبينس بصرامة: "لقد كان لطيفًا ومتعاونًا للغاية، وكان يعرف الكثير عن الأشياء الموجودة بالمنزل، وعن سكان القرية، وقد أخبرنا بالكثير عن هذا الأمر".

"آه، كان يعرف أمورًا كثيرة؛ فقد عمل هنا من قبله الكثير من أفراد عائلته. كانوا جميعًا يعيشون بالقرب من هنا، ويعرفون قدرًا كبير من المعلومات المتعلقة بما جرى في الأعوام الماضية؛ لكنهم لم يتوصلوا إلى هذه المعلومات بأنفسهم، بل سمعوا بها من الآخرين، حسنًا يا سيدتي، لن أعطلكما، جئت فحسب لأعبر لكما عن امتناني".

فقالت توبينس: "هذا لطف منك، شكرًا جزيلًا".

"أعتقد أنكما ستحضران شخصًا آخر ليهتم بالحديقة".

فقالت توبينس: "أظن ذلك، فنحن لا نجيد أعمال البستنة. هل... لعلك..."، وترددت شاعرة بأنها ربما تتحدث في شيء غير مناسب في التوقيت غير المناسب، ثم استطردت: "ربما تعرفين شخصًا يود أن يأتي ويعمل لدينا".

"حسنًا، لا أستطيع إفادتك بشيء الآن، لكنني سأبقي الأمر في ذهني، وسأرسل لكما هنري، ابني الثاني، سأرسله لكما إذا سمعت عن أحد يريد أن يعمل هنا. حسنًا، طاب نهاركما".

فقال تومي بينما كانا يدخلان المنزل: "ماذا كان لقب إيزاك؟ لا أستطيع أن أتذكره".

"أظن إيزاك بودليكوت".

"إذن فلقبها هو السيدة بودليكوت، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "بلى، أعتقد أن لديها العديد من الأبناء، عددًا من الصبية وفتاة، وهم يعيشون جميعًا معًا في هذا الكوخ الواقع في منتصف طريق مارشتون. هل تعتقد أنها تعرف من قتل إيزاك؟.

فقال تومي: "لا أعتقد ذلك، لا يبدو عليها أنها تعرف شيئًا".

فقالت توبينس: "لا أعرف تحديدًا كيف كانت ستبدو لو أنها تعرف هوية القاتل، فمن الصعب معرفة ذلك، صحيح؟".

"أعتقد أنها أتت فحسب لتشكرك على الزهور؛ فمظهرها لا ينم عن الرغبة في الانتقام، فلو كانت تعرف هوية القاتل لأخبرتنا بها".

فقالت توبينس: "ربما يكون هذا صحيحًا، وربما لا".

ودخلت المنزل وهي غارقة في التفكير.

الفصل ٨

ذكريات عن العم

في صباح اليوم التالي، كانت توبينس تقدم بعض الملاحظات لعامل كهرباء كان قد جاء لإجراء تعديلات على أجزاء من عمله لم يكن قد أنجزها على النحو المطلوب.

وفجأة قاطعها ألبرت قائلًا: "هناك صبي على الباب يريد التحدث إليك يا سيدتي".

"أوه، ما اسمه؟".

"لم أسأله، إنه ينتظر بالخارج".

أمسكت توبينس بقبعة الحديقة ووضعتها فوق رأسها وهبطت الدرج.

كان هناك صبي يبلغ من العمر حوالي اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا يقف مبدلًا وضعية قدميه بينما يغلب عليه التوتر خارج الباب.

فقال: "أرجو ألا أكون قد أزعجتك بمجيئي".

فقالت توبينس: "دعني أخمن، أنت هنري بودليكوت، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح، فذلك الشخص الذي كان يُجْرَى تحقيق بشأنه في الأمس، هو... أظن أنني أستطيع أن أصفه بأنه عمي، أنا لم أحضر أية تحقيقات من قبل".

أوقفت توبينس نفسها قبل أن تقول: "هل استمتعت بالتحقيق؟"؛ إذ بدا كأن هنري على وشك أن يصف شيئًا ممتعًا.

فقالت توبينس: "لقد كانت فاجعة، أليس كذلك؟ إنه لشيء محزن".

فقال هنري: "أوه، حسنًا، إيزاك كان رجلًا مسنًّا، ولا أعتقد أنه كان من المتوقع أن يعيش لفترة أطول، فقد كان يصيبه سعال شديد في فصل الخريف، ما يبقي جميع من في المنزل مستيقظين. لقد جئت فقط لأسأل إذا ما كان هناك أي شيء تريدين مني أن أفعله في حديقة المنزل. لقد فهمت من والدتي أن لديك بعض الخس الذي يحتاج إلى تشذيب، وكنت أتساءل عما إذا كنت تودين أن أفعل هذا الأمر من أجلك. إنني أعرف مكانه لأنني أحيانًا كنت أزور العم إيزاك في عمله وأتحدث إليه، بوسعي أن أفعل ذلك الآن إذا كنت ترغبين".

فقالت توبينس: "أوه، هذا لطف كبير منك، اذهب وأرني".

فذهب الاثنان إلى الحديقة وصعدا إلى المكان المقصود.

"هذا هو، لقد زرع متلاصقا بجانب بعضه البعض، ومن ثم سيكون عليك أن تنزع بعضًا منه وتضعه هناك، بعد أن تكون قد تركت بين الواحدة والأخرى الفراغات المناسبة".

وأردفت معترفة: "أنا لا أعرف أي شيء عن زراعة الخس، ولكني أعرف قليلا عن زراعة الزهور، أما البازلاء، والبروكلي، والبراعم، والخس، والخضراوات الأخرى، فإنني لا أجيد زراعتها مطلقًا. أظن أنك لا تريد أن تعمل بستانيًّا في الحديقة، أليس كذلك؟".

"نعم، ما زلت أدرس، لكنني أبيع الجرائد وأعمل بجني بعض الفاكهة في فصل الصيف".

فقالت توبينس: "أجل، حسنًا، إذا سمعت بأحد يريد أن يعمل بستانيًّا، وأخبرتني بذلك، سأكون سعيدة للغاية".

"أجل، سأفعل ذلك، حسنًا، وداعًا يا سيدتي".

"أرني فحسب ما ستفعله بالخس، أريد أن أعرف".

فوقفت بجانب هنري بودليكوت تشاهد التشذيب البارع الذي كان يجريه في نبات الخس.

"لقد أصبحت الآن على ما يرام، إنها نباتات جميلة، أليس كذلك؟ إنها من نوع الويب، أليس صحيحًا؟ إنها تبقى لفترة طويلة".

فقالت توبينس: "لقد انتهينا من زراعة خس التوم ثمبث".

"هذا صحيح، إنها تنمو مبكرًا، أليس كذلك؟ إنها جيدة ومقرمشة".

فقالت توبينس: "حسنًا، شكرًا جزيلا".

استدارت بعيدًا وسارت نحو المنزل، قبل أن تلاحظ أنها فقدت وشاحها فعادت أدراجها مرة أخرى، حينها عاود هنري بودليكوت السير نحوها بعدما كان على وشك أن يغادر المكان.

فقالت توبينس: "لقد فقدت وشاحي، هل هو... أوه، إنه هناك فوق تلك الشجيرة". فأعطاها هنري إياه، ثم وقف ينظر إليها مبدلًا وضعية قدميه. كان يبدو قلقًا للغاية ومضطربًا حتى سألته توبينس عما به.

فقالت: "هل هناك أي شيء؟".

فبدل هنري وقفته مجددًا، ونظر إليها، ثم بدل وضعية قدمه مرة أخرى، ولعب في أنفه وفرك أذنه اليسرى ثم حرك قدميه في نوع من الإيقاع.

"مجرد شيء... كنت أتساءل عما إذا كنت... أعني... إن لم تمانعي أن أسألك..."

فقالت توبينس: "حسنًا؟"، ثم توقفت ونظرت له في استفسار.

فاحمر وجه هنري وواصل تبديل وضعية قدميه.

وقال: "حسنًا، لم أكن أود أن...لم أود أن أسألك، لكنني كنت أتساءل...أقصد أن الناس يقولون...لقد قالوا أشياء...أعني لقد سمعتهم يقولون..."

فقالت توبينس: "أجل؟ سمعت ماذا؟". كانت توبينس تتساءل عما يزعج هنري، وعما قد يكون قد سمعه بشأن حياة

السيد تومي والسيدة توبينس، المستأجرين الجديدين لمنزل ذات الغار.

"أوه، يقولون... يقولون كيف أنك أنت وزوجك كنتما تقبضان على الجواسيس أو ما شابه خلال الحرب الأخيرة، حيث أدركتما أن هناك جاسوسًا ألمانيًا يدعي أنه شخص آخر، ومن ثم كشفتما حقيقته، وخضتما الكثير من المغامرات حتى تبين كل شيء في النهاية. أعني أنكما كنتما... لا أعرف الاسم تحديدًا... أظن أنكما كنتما تعملان في المخابرات السرية، وكذلك يقولون إنكما أديتما عملًا رائعًا. كان ذلك بالطبع منذ زمن بعيد لكن القضية كانت تتعلق بشيء... بشيء يرتبط بنشيد أطفال".

فقالت توبينس: "هذا صحيح، كان النشيد هو جوسي جوسي جاندر".

"جوسي، جوسي جاندر! إنني أتذكر ذلك، لقد كان منذ عدة أعوام، ويذر ويل يو واندر؟" .

فقالت توبينس: "هذا صحيح: في الطابق العلوي، في الطابق السفلي، في حجرة سيدتي، هناك وجد رجلًا مسنًا لا يؤدي صلواته، فجذبه من ساقه اليسرى وألقى به على الدرج.
أعتقد أن هذا صحيح؛ لكنني ربما أضفت كلمات من نشيد أطفال آخر".

فقال هنري: "حسنًا، أنا لم، حسنًا، أعني أنه من الرائع أن نعيشا هنا مثل أي شخص آخر، أليس كذلك؟ لكنني لا أعرف ما علاقة أناشيد الأطفال بالقضية".

فقالت توبينس: "أوه كانت هناك شفرة، أو كود".

فقال هنري: "تقصدين أنه كان يجب أن يقرأ النشيد بطريقة معينة؟".

فقالت توبينس: "شيء من هذا القبيل. على أية حال، لقد كُشف الأمر برمته".

فقال هنري: "حسنًا، أنت لا تمانعين أن أخبر صديقي بذلك، أليس كذلك؟ إنه صديقي العزيز كلارنس، أعرف أن اسمه سخيف؛ فنحن جميعًا نسخر منه لهذا السبب، لكنه صديق جيد، وسيسعد كثيرًا حين يعرف أنكما تعيشان هنا معنا".

ونظر لـ توبينس بإعجاب.

وعاود يقول: "رائع".

فقالت توبينس: "أوه، لقد وقعت هذه القضية منذ زمن طويل، أظن في أربعينيات القرن".

"أكانت شيئًا ممتعًا أم أنكما كنتما تشعران بالهلع؟".

فقالت توبينس: "مزيج بين الشيئين، ولكنني أعتقد أنني شعرت أكثر بالخوف".

"أوه، حسنًا، كنت أتوقع أنه لا بد أن ينتابك الخوف أيضًا، أجل، لكن من الغريب أن تأتيا إلى هنا وتتورطا في قضية مماثلة. لقد كان ضابطًا بحريًا، أليس كذلك؟ أعني أنه تظاهر بأنه ضابط إنجليزي في سلاح البحرية، لكنه لم يكن كذلك، بل كان ألمانيًا، فهذا ما قاله كلارنس".

فقالت توبينس: "شيء من هذا القبيل".

"إذن فربما هذا هو سبب مجيئكما إلى هنا؛ إذ إن قريتنا شهدت بعض الأمور في الماضي - أمورًا وقعت منذ زمن بعيد للغاية، لكن أحداثها كانت متشابهة؛ حيث باع أحد الضباط رسومات تتعلق بإحدى الغواصات. على أية حال، إنها مجرد قصص سمعت الناس يتداولونها فيما بينهم".

فقالت توبينس: "أفهم ذلك، نحن لم نأت إلى هنا لهذا السبب، بل أتينا فحسب لإعجابنا بهذا المنزل، لكنني سمعت الشائعات ذاتها تدور بين الناس إلا أنني لا أعرف بالضبط ما حدث".

"حسنًا، سأحاول معرفة ذلك وسأخبرك بالأمر يومًا ما... فأحيانًا يصعب تبين الحقيقة من الخرافات لكن الأمور لا تعرف دائما بشكل صحيح".

"كيف تمكن صديقك كلارنس من معرفة كل هذه المعلومات؟".

"حسنًا، لقد سمع بالأمر من مايك الذي عاش هنا لفترة قصيرة بجوار الحداد، لكنه غادر القرية منذ فترة طويلة، غير أنه سمع أقاويل كثيرة من أناس مختلفين، وكان عمنا إيزاك يعرف الكثير عن الأمر؛ إذ كان يقول لنا أحيانًا بعض المعلومات".

فقالت توبينس: "إذن فقد كان إيزاك يعرف الكثير من المعلومات بشأن الواقعة؟".

"أوه أجل، هذا ما جعلني أتساءل - حينما تلقى ضربة على رأسه قبل أيام - عما إذا كان ذلك هو السبب في مقتله، فربما كان

يعرف معلومات كثيرة عن القضية وراح يخبرك بها، فقتلوه؛ إن هذا ما يفعلونه في هذه الأيام، يقتلون من يمتلك معلومات عن أي شيء قد يورطهم مع الشرطة أو ما شابه".

"أتعتقد أن عمك إيزاك... كان يعرف معلومات كثيرة عن القضية؟".

"حسنًا، أعتقد أنها معلومات قيلت له، فقد سمع الكثير من هنا ومن هناك؛ إنه لم يكن يتحدث في الأمر كثيرًا، لكنه كان يفعل أحيانًا في المساء بينما يدخن غليونه أو يستمع إلينا، أقصد أنا وكلارنس وصديقي الآخر توم جيلينجهام الذي كان شغوفًا أيضًا لمعرفة الأمر، وكان عمي إيزاك يقول لنا كل شيء؛ غير أننا لم نكن نعرف إذا ما كان ما يقوله حقيقة أم مجرد قصص من صنع خياله، لكنني أعتقد أنه وجد أشياء وعرف أماكن أشياء أخرى، فكان يقول إنه إذا عرف بعض الناس أماكن تلك الأشياء فسيكون شيئًا مثيرًا للاهتمام".

فقالت توبينس: "أهكذا كان الأمر؟ حسنًا، أعتقد أن ذلك سيكون مثيرًا للاهتمام لنا أيضًا. يجب أن تحاول تذكر بعض من الأشياء التي كان يقولها أو يشير إليها في بعض الأحيان لأن من شأن ذلك أن يقودنا إلى معرفة قاتله؛ لأنها جريمة قتل وليست حادثة عرضية، أليس كذلك؟".

"كنا نظن في البداية أنها لا بد أن تكون حادثة عرضية؛ إذ إنه كان يعاني مرض القلب أو ما شابه وكان يخشى عليه من حين لآخر أو يصاب بدوار أو نوبة، لكنني ذهبت إلى التحقيق كما تعرفين وكان الأمر يبدو أنه قتل عمدًا".

فقالت توبينس: "أجل، أعتقد أنها جريمة قتل متعمدة".

فقال هنري: "وبالنسبة لك، ألا تعرفين لماذا قُتل؟".

فنظرت توبينس إلى هنري، وبدا لها كما لو أنهما كلبان بوليسيان يتشممان الرائحة ذاتها.

فقالت: "أظن أن موته كان متعمدًا، وأعتقد أنك بحكم قرابتك له، وكذلك أنا، نريد أن نعرف من ارتكب هذه الجريمة الشنيعة والوحشية، لكن ربما تعرف يا هنري أو لديك فكرة عن الأمر".

فقال هنري: "ليست لديَّ فكرة سليمة، مجرد أشياء أسمعها، غير أنني أعرف أناسًا يقول عنهم عمي إيزاك، أو كان يقول، إنهم يكنون نحوه حقدًا وغلًا؛ لأنه كان يعرف الكثير عنهم وعما يعرفونه وعما حدث في الماضي، لكنهم فارقوا الحياة منذ أعوام كثيرة ما لا يجعل المرء يتذكرهم".

فقالت توبينس: "حسنًا، أعتقد أنك يجب أن تساعدنا يا هنري".

"هل تعنين أنك ستسمحين لي بأن أبحث معك عن القاتل؟ أعني أن أكتشف شيئًا يتعلق بالأمر؟".

فقالت توبينس: "أجل، هذا إذا استطعت أن تمسك لسانك عما تكتشفه، أعني أن تخبرني به، لكن لا تتحدث عنه مع كل أصدقائك؛ إذ إن الأمر بهذه الطريقة سينتشر بين الناس".

"أتفهم ذلك، وربما حينها يخبرون القاتلين ويصيبونك أنت والسيد تومي بالأذى، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "ربما، وأتمنى ألا يفعلوا ذلك".

فقال هنري: "حسنًا، هذا طبيعي، في حال صادفت أي شيء أو سمعت أي شيء، سآتي وسأعرض عليك أن أقوم لك ببعض الأعمال في المنزل، ما رأيك؟ وحينها سأستطيع أن أقول لك ما أعرفه دون أن يسمعنا أحد، لكنني لا أعرف أي شيء حاليًا. ولكن لي أصدقاء"، ثم تراجع للوراء فجأة واتخذ وضعية بدا أنه استلهمها من شيء رآه في التليفزيون واستطرد: "إن الناس لا يعرفون أنني أعرف أشياء كثيرة، فهم لا يعتقدون أنني أنصت إليهم وأسجل في ذاكرتي كل شيء يقولونه بينما يفصحون عن الشيء الذي يعرفونه، أو عن الآخرين الذين يعلمون بالأمر وما إلى ذلك... حسنًا إذا بقي المرء صامتًا فسيتمكن من سماع الكثير من الأشياء، وأنا أعتقد أن كل ذلك مهم، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "بلى، أعتقد أنه مهم، لكننا يجب أن نكون أكثر حذرًا يا هنري، أتفهم ذلك؟".

"أجل، سأكون حذرًا بالطبع... سأكون حذرًا كما يجب أن يكون؛ كان عمي إيزاك يعرف الكثير عن هذا المكان".

"أتعني عن هذا المنزل، أم هذه الحديقة؟".

"كان يعرف بعض القصص المتعلقة بهذا المنزل، وكذلك الأماكن التي يذهب إليها الناس والأشياء التي كانوا يفعلونها، والأماكن التي كانوا يتقابلون بها، كما كان يعرف الأماكن التي يمكن أن تستخدم كمخبأ للأشياء، فأحيانًا ما كان يتحدث عن هذه الأمور، لكن أمي لم تكن تنصت إليه، إذ كانت تعتقد أن كل ما يقوله مجرد هراء، وكذلك كان يفعل أخي الأكبر جوني، لكنني كنت أستمع إلى ما يقوله وكان كلارنس مهتمًا بالأمر، فهو يحب

تلك النوعية من الأمور؛ إذ كان يقول لي: "اسمع يا تشك، إن الأمر أشبه بفيلم بوليسي"، وهكذا كنا نتحدث عن الأمر معًا".

"هل سمعت أي أحد من قبل يتحدث عمن تسمى ماري جوردان؟".

"أجل، بالطبع، إنها الفتاة الألمانية الجاسوسة، أليس كذلك؟ لقد حصلت على أسرار تتعلق بسلاح البحرية من ضباط بحريين، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أظن أنه شيء من هذا القبيل"، كانت توبينس تشعر بأنه من الآمن أن تلتزم بتلك الرواية، في حين كانت في نفسها تعتذر لروح ماري جوردان.

"أظن أنها كانت ودودة للغاية، أليس كذلك؟ وجميلة أيضًا؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، لا أعرف، أعني أنها ربما تكون قد ماتت بينما لم يتجاوز عمري الثلاثة أعوام".

"أجل، بالطبع، لا بد أن الأمر كذلك، فأحيانًا ما يسمع المرء الناس وهم يتحدثون عنها".

٢

دخلت توبينس بملابس الحديقة من الباب الجانبي وهي تلهث قليلًا، فقال لها تومي: "تبدين متحمسة للغاية ومنقطعة الأنفاس يا توبينس".

فقالت توبينس: "حسنًا، هذا صحيح بعض الشيء".

"لا تقولي إنك أرهقت نفسك بالعمل في الحديقة".

"كلا، في الواقع لم أكن أفعل أي شيء على الإطلاق، بل كنت أقف فحسب بجانب الخس بينما أتحدث أو يتحدث إليَّ أحدهم، أيًا كانت الطريقة التي تصف بها ذلك..."

"من الذي كان يتحدث إليك؟".

فقالت توبينس: "صبي".

"هل كان يعرض المساعدة في العناية بالحديقة؟".

فقالت توبينس: "ليس بالضبط، رغم أن هذا سيكون لطيفاً جدًا، لكنه في الواقع كان يعرب عن إعجابه".

"بالحديقة؟".

فقالت توبينس: "كلا، كان يبدي إعجابه بي".

"بك؟".

فقالت توبينس: "لا تندهش، ولا تبد استغرابك؛ فذلك المديح يأتي أحيانًا عندما لا تتوقعه".

"أوه، ما الذي أثار إعجابه بك، أكان يعجب بجمالك أم بحديقتك بصورة عامة؟".

فقالت توبينس: "كان يعجب بالماضي الخاص بي".

"بماضيك!".

"أجل، كان يشعر بسعادة غامرة حين علم أنني كنت السيدة التي كشفت النقاب عن أحد الجواسيس الألمان في الحرب الأخيرة، ذلك الجاسوس الذي كان يتخفى في صورة ضابط بحري متقاعد".

فقال تومي: "يا إلهي، قضية إن أوه إم مرة أخرى. يا إلهي! ألا يمكن أن ننسى هذه القضية؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، لست متأكدة من أنني أريد أن أنساها، ولماذا ننساها؟ فلو كنا ممثلين مشهورين لكنا أحببنا أن نتذكر ذلك".

فقال تومي: "أفهم قصدك".

"وأعتقد أنه ربما يكون مفيدًا للغاية فيما نحاول فعله هنا".

"إذن كان صبيًا... كم عمره؟".

"أوه، أعتقد أنه في نحو العاشرة أو الثانية عشرة من عمره، إنه يبدو في العاشرة لكنه في الثانية عشرة، حسبما أظن، ولديه صديق يدعى كلارنس".

"ما شأن هذا بذاك؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، ليس له شأن حاليًا، لكنه وكلارنس حليفان وأظن أنهما يودان المشاركة في قضيتنا، من خلال اكتشاف الأشياء أو إخبارنا ببعض الأمور".

فقال تومي: "إذا كان في عمر العاشرة أو الثانية عشرة، فكيف له أن يخبرنا بأشياء أو يتذكر أشياء نريد معرفتها؟ أي نوع من الأشياء قال إنه يمكنه أن يخبرنا بها؟".

فقالت توبينس: "معظم جمله كانت قصيرة وتتكون في الغالب من عبارات مثل: "حسنًا، كما تعرفين"، أو: "كما ترين، الأمر أشبه بذلك"، أو "أجل، كما تعرفين"، فقد كانت جملة: "كما تعرفين" جزءًا أساسيًا من كل شيء يقوله".

"وكانت كلها أشياء لا تعرفينها؟".

"لا، بل كانت محاولات لتفسير أشياء سمع بها".

"من أي شخص سمعها؟".

"حسنًا، ليس بشكل مباشر، إذا جاز القول، ولا يمكن أن أسميها معرفة غير مباشرة، بل أعتقد أنها ربما ترتقي إلى معرفة انتقلت له من طرف ثالث، أو رابع، أو خامس، أو سادس، كما أنها مبنية على ما سمعه كلارنس، وما سمعه صديق كلارنس الذي يدعى ألجرنون، وعلى ما قال ألجرنون إن جيمي سمعه...".

فقال تومي: "كفى، كفى، وما الذي سمعوه؟".

فقالت توبينس: "من الصعب أن أقول لك، لكنني أعتقد أنني أستطيع أن أشير إليك ببعض ملامحه. لقد سمعوا عن أماكن محددة ذكرت أمامهم أو قصص رويت لهم ويتلهفون للمشاركة فيما جئنا هنا لنفعله".

"ألا وهو؟".

"اكتشاف شيء مهم، شيء من المعروف أنه مخبأ هنا".

فقال تومي: "آه، مخبأ، كيف، وأين ومتى؟".

فقالت توبينس: "هناك قصص مختلفة تتعلق بهذه الأسئلة الثلاثة، لكن الأمر مثير للاهتمام، عليك أن تعترف بذلك يا تومي".

فقال تومي في تفكر إن الأمر ربما يكون كذلك.

فقالت توبينس: "للأمر علاقة بـ إيزاك المسن، أعتقد أن إيزاك كان يعرف بالتأكيد الكثير من الأمور التي كان من الممكن أن يخبرنا بها".

"وأنت تعتقدين أن كلارنس و.... ما اسم هذا الآخر؟".

فقالت توبينس: "سأحاول تذكره، إن الأمر يختلط عليَّ بشأن أسماء الأشخاص الذين سمع منهم هذا الكلام، هؤلاء الذين يحملون أسماء كبيرة مثل ألجرنون أو الذين يحملون أسماء عادية مثل جيمي وجوني ومايك".

ثم قالت توبينس فجأة: "تشك".

فقال تومي: "تشك ماذا؟".

"كلا، لم أقصد ذلك، أعتقد أنه اسمه، أقصد الصبي، أعتقد أن اسمه تشك".

"يبدو اسمًا غريبًا جدًّا".

"اسمه الحقيقي هنري، لكنني أعتقد أن أصدقاءه ينادونه بـ تشك".

"مثل تشك يرتدي المعطف".

"تقصد بوب يرتدي المعطف".

"حسنًا، أعلم أن هذه هي كلمات الأغنية، لكن جملة تشك يرتدي المعطف تبدو لي الشيء ذاته".

"أوه تومي، ما أريد أن أقوله لك هو أننا يجب أن نستمر فيما نفعله، خاصة الآن، هل ينتابك الشعور ذاته؟".

فقال تومي: "أجل".

"حسنًا، هذا ما كنت أتوقعه، لكن علينا أن نستمر في ذلك وسأقول لك السبب: أرى أن السبب الرئيسي هو إيزاك، هناك شخص قتل إيزاك... قتله لأنه علم شيئًا - شيئًا قد يمثل خطرًا على أحدهم، وعلينا أن نجد هذا الشخص".

فقال تومي: "ألا تعتقدين أن الأمر مجرد... أحد تلك الأشياء، التي يسمونها شغبًا مما يمارسه هؤلاء الأشخاص الذين ينطلقون رغبة في قتل أحد الأشخاص دون إبداء أهمية بهويته باستثناء سنه التي تكون كبيرة حتى لا يستطيع مقاومتهم".

فقالت توبينس: "بطريقة ما، لكنني لا أعتقد أن الأمر كان كذلك. أعتقد أن *هناك* شيئًا، لا أعرف إذا كانت كلمة مخبأ هي الكلمة المناسبة لوصفه، لكن هناك شيئًا في هذا المنزل - شيئًا يلقي الضوء على أمر حدث في الماضي - شيئًا تركه أحدهم هنا أو وضعه هنا أو أعطاه لشخص آخر ليحفظه هنا أو يضعه في مكان ما؛ لكنه شيء لا يريد أحدهم أن يتم كشفه، وكان إيزاك يعلم بهذا الأمر ولا بد أنه كان يخشى إخبارنا بذلك لأن الحديث الدائر حولنا حاليًا هو أننا ضد الجواسيس أو أيًا كانت مسمياتهم الآن، فنحن نشتهر بذلك، والأمر يرتبط بطريقة ما بـ ماري جوردان وما يتعلق بها".

فقال تومي: "ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية".

فقالت توبينس: "أجل، وقد قتل إيزاك، يجب أن نجد القاتل وأن نكتشف الدافع وراء جريمته، وإلا..."

فقال تومي: "يجب أن تكوني حذرة، ينبغي أن تعتني بنفسك يا توبينس، فإذا كان أحدهم قتل إيزاك لأنه يظن أنه سيتحدث عن أشياء ماضية كان قد سمع عنها، فربما سيكون سعيدًا لانتظارك ليلًا في إحدى الزوايا المظلمة وتكرار جريمته ثانية. فمن سيفعل ذلك، سيستبعد أن تثار الشكوك حول فعلته؛ لأنه سيعتقد أن الناس سيقولون: "أوه ها هو ذا شغب آخر يحدث".

فقالت توبينس: "أجل، هكذا يحدث عندما تتلقى السيدات المسنات ضربة فوق رءوسهن ويمتن، وهذه هي النتيجة السيئة لكونك ذا شعر رمادي وتعاني التهابا طفيفا في المفاصل. إنني صيد سهل لأي أحد، فيجب أن أحترس على نفسي. هل تعتقد أنني يجب أن أحمل معي عصا صغيرة؟".

فقال تومي: "كلا، بالطبع".

"لماذا؟ هل تعتقد أنني سأرتكب بعض الأخطاء وهي في حوزتي؟".

"بل أعتقد أنك قد تتعثرين في جذع إحدى الأشجار، إنك دائمًا ما تسقطين، وربما تؤذين نفسك بها بدلا من استخدامها للحماية".

فقالت توبينس: "أوه، أتعتقد حقًا أنني سأرتكب أية حماقة من هذا القبيل؟".

فقال تومي: "أجل، إنني متأكد من أنك قادرة على ذلك".

فقالت توبينس: "يمكنني أن أحمل معي سكينًا زمبركية".

فقال تومي: "لا ينبغي أن أحمل معي أي شيء على الإطلاق، بل يجب أن أظهر البراءة وأتحدث فحسب عن البستنة، وأن نقول، على سبيل المثال، إننا لسنا متأكدين من أننا نحب المنزل وأن لدينا خططًا للرحيل إلى مكان آخر، هذا ما أقترحه".

"من الذي يجب أن أقول له ذلك؟".

فقال تومي: "أوه، أي أحد؛ فالأمر سينتشر مثل النار في الهشيم".

فقالت توبينس: "دائمًا ما يحدث هذا، فالمكان هنا بيئة مناسبة لانتشار الأخبار والأحاديث. هل ستقول الشيء ذاته يا تومي؟".

"حسنًا، ربما أقول إننا لا نحب المنزل بالقدر الذي كنا نظنه".

فقالت توبينس: "لكنك تريد أن تواصل فيما نفعله، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "أجل، إنني متورط به بالفعل".

"هل فكرت كيف سنحقق ذلك؟".

"سأواصل ما أفعله حاليًا، لكن ماذا عنك يا توبينس؟ هل لديك أية خطط؟".

فقالت توبينس: "ليس بعد، لكن لديَّ بعض الأفكار - يمكنني أن أحصل على مزيد من المعلومات من... ما اسمه؟".

"في البداية هنري... ثم كلارنس".

الفصل ٩

فرقة الصبية

بعد أن غادر تومي إلى لندن، أخذت توبينس تتجول بالمنزل محاولة أن تجد نشاطًا تمارسه لعله يحقق لها نتائج مرضية؛ غير أن ذهنها كان خاليًا هذا الصباح من أية أفكار براقة.

وبينما كان يغلب عليها الشعور بأنها تعود إلى نقطة البداية، صعدت إلى حجرة الكتب وجالت بها متفحصة عناوين المجلدات المختلفة التي كانت في معظمها كتبًا للأطفال، لكن المرء لا يمكنه أن يذهب إلى أبعد من ذلك، أليس كذلك؟ فقد فعلت ما يمكن لأي شخص أن يفعله، وكانت شبه متيقنة من أنها فحصت كل كتاب موجود في هذه الحجرة؛ وأن ألكسندر باركنسون لم يكشف عن المزيد من أسراره.

كانت تقف في الحجرة عابسة الوجه تمرر أصابعها عبر شعرها، وتركل الرف السفلي الذي يضم كتبًا تكاد تكون أغلفتها منفصلة عن الكتب، عندما جاء ألبرت.

وقال: "هناك شخص ينتظر بالأسفل ويريد مقابلتك يا سيدتي".

قالت توبينس: "ماذا تعني بشخص؟ أهو شخص أعرفه؟".

"لا أعرف، لا أعتقد ذلك، إنهم صبية، صبية بصحبتهم فتاة أو اثنتان، أظن أنهم يريدون تبرعًا لشيء أو ما شابه".

"أوه، ألم يذكروا أسماءهم أو أي شيء؟".

"أوه، قال أحدهم إنه يسمى كلارنس وإنك تعرفينه".

فقالت توبينس: "أوه، كلارنس"، ثم فكرت لوهلة:

أكان هذا ثمار حديث الأمس؟ على أية حال، لا ضير من متابعة الأمر.

فقالت: "هل الصبي الآخر معهم؟ ذلك الذي كنت أتحدث إليه بالأمس في الحديقة؟".

"لا أعرف، فكلهم يشبهون بعضهم، ويبدون متسخين وما إلى ذلك".

فقالت توبينس: "أوه حسنًا، سأنزل لهم".

عندما هبطت إلى الطابق الأرضي التفتت في استفسار إلى مرشدها ألبرت.

فقال ألبرت: "أوه، إنني لم أسمح لهم بالدخول إلى المنزل، ظننت أن ذلك سيكون أكثر أمنًا؛ فأنت لا تدرين ما الذي يمكن أن تفقديه في هذه الأيام. إنهم ينتظرون في الحديقة بالخارج، وطلبوا مني أن أخبرك بأنهم يقفون بجانب منجم الذهب".

فقالت توبينس: "بجانب ماذا؟".

"منجم الذهب".

فقالت توبينس: "أوه".

"في أي مكان هذا؟".

فأشارت توبينس.

وقالت: "أعتقد أنني أعرف، إنه خلف حديقة الأزهار، بجوار ممر أزهار الأضاليا؛ حيث يوجد هناك نوع من المجرى المائي، لكن لا أعرف إذا ما كان جدولًا أو قناة أو بركة تحوي السمك الذهبي. على أية حال، أعطني حذائي المطاطي، كما أنه من الأفضل أن أرتدي معطفي الواقي من المطر في حال دفعني أحدهم بالماء".

"كنت سأرتديه لو كنت مكانك يا سيدتي، فالسماء على وشك أن تهطل بالأمطار".

فقالت توبينس: "يا إلهي! مطر، مطر، دائمًا ما يهطل المطر".

خرجت إلى الحديقة وأسرعت نحو ما يبدو أنه وفد مهم في انتظارها، وكان هناك ما يقرب من عشرة إلى اثني عشر شخصًا من أعمار مختلفة، وكان معظمهم صبية ترافقهم فتاتان ذواتا شعر طويل، بينما كانت الحماسة تبدو عليهم جميعًا، فقال أحدهم بصوت حاد بينما كانت توبينس تقترب منهم:

"ها هي ذي آتية! ها هي ذي، والآن من الذي سيتحدث إليها؟ اذهب يا جورج، فأنت أفضل من تتحدث إليها، إنك دائمًا ما تتولى هذه الأمور".

فقال كلارنس: "حسنًا، أنت لن تتحدث حاليًا، أنا من سيتحدث".

"اخرس يا كلارنس، أنت تعرف أن صوتك ضعيف، وأنك تظل تسعل خلال الحديث".

"والآن انظر هنا، هذا دوري، أنا..."

فاقتحمت توبينس عليهم الحديث، وقالت: "صباح الخير جميعا، لقد أتيتم لرؤيتي بشأن أحد الأمور، أليس كذلك؟ فما هو هذا الأمر؟".

فقال كلارنس: "لدينا شيء لك".

"لدينا معلومات، وهذا ما تبحثين عنه، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "هذا يرجع إلى نوع المعلومات، فما نوعها؟".

"أوه، إنها معلومات لا تتعلق بهذه الأيام بل بالماضي السحيق".

فقالت إحدى الفتيات التي بدت أنها القائد الفكري للمجموعة: "إنها معلومات تاريخية، بل مثيرة للاهتمام جدًا إذا كنت تجرين بحثًا بشأن الماضي".

فقالت توبينس: "أفهم ذلك"، قالتها وهي تضمر بداخلها حقيقة أنها لم تكن تفهم شيئًا، ثم أردفت: "ما هذا المكان؟".

"إنه منجم الذهب".

فقالت توبينس: "أوه، هل هناك أي ذهب به؟".

قالتها وهي تنظر إلى الفتاة.

ففسر لها أحد الصبية الأمر قائلًا: "حسنًا، إنها بركة للسمك الذهبي، كانت فيما مضى تضم سمكًا ذهبيًا له ذيول كثيرة، حيث جاء من اليابان أو ما شابه. أوه، كانت أسماكًا رائعة، وكان ذلك في عصر السيدة فورستر، فقد مر عليه... أوه، مر عليه عشر سنوات".

فقالت إحدى الفتيات: "بل أربعة وعشرون عامًا".

فقال أحد الأصوات الخفيضة: "بل ستون عامًا، حدث كل ذلك منذ ستين عامًا، كانت البركة تضم الكثير من الأسماك الذهبية، وكان يقال إنه سمك نفيس؛ أحيانًا ما كان يموت، وأحيانًا يأكل بعضه البعض، وأحيانًا أخرى يطفو على السطح".

فقالت توبينس: "حسنًا، بماذا تريدون أن تخبروني؟ فليس هناك أية أسماك ذهبية هنا".

فقالت القائدة الفكرية: "كلا، إنها معلومات".

تحدثت أصوات كثيرة معا، فلوحت توبينس بيدها.

وقالت: "لا تتحدثوا جميعًا في وقت واحد، ليتفضل واحد أو اثنان منكم فقط بالحديث. ما الأمر؟".

"هناك أمر ربما ينبغي أن تعرفي عنه بشأن أشياء خُبئت هنا فيما مضى، خُبئت وقيل إنها مهمة للغاية".

فقالت توبينس: "وكيف علمتم بذلك؟".

أثار ذلك سيلًا من الردود، ولم يكن من السهل على توبينس أن تسمع الجميع في وقت واحد.

"إنها جيني".

فقال أحد الأصوات: "عن طريق بين، عم جيني".

"كلا، عن طريق هاري، أجل، هاري، هاري ابن عم توم؛ حيث كانت جدته هي من أخبرته بذلك، وكانت قد عرفته من جوش، لا أعرف من هو جوش، أعتقد أنه كان زوجها... كلا، لم يكن زوجها، بل عمها".

فقالت توبينس: "يا إلهي!".

نظرت إلى الصبية ثم انتقت أحدهم.

وقالت: "كلارنس، أنت كلارنس، أليس كذلك؟ أخبرني صديقك عنك، ماذا تعرف عن الأمر؟".

"حسنًا، إذا أردت معرفة الأمر، فعليك بالذهاب إلى ن ق م".

فقالت توبينس: "أذهب إلى ماذا؟".

"ن ق م".

"وما هو ن ق م؟".

"ألا تعرفينه؟ ألم يخبرك أحد عنه؟ إنه نادي القصر للمتقاعدين".

فقالت توبينس: "يا إلهي! يبدو أنه فخم جدًا".

فقال صبي يبلغ حوالي تسعة أعوام: "ليس كذلك على الإطلاق، إنه فحسب مكان يجتمع فيه كبار السن من المتقاعدين ليثرثروا معًا، يقول البعض إنهم يفصحون عن أشياء يعرفونها فيما يتعلق بالحرب الأخيرة وما بعدها، إنهم يعرفون أشياء كثيرة".

فقالت توبينس: "أين يكون هذا النادي؟".

"إنه في نهاية القرية، عند منتصف طريق مورتون كروس. إذا كنت متقاعدة، فبوسعك أن تحصلي على تذكرة لدخوله وهناك ستجدين ألعابًا وأشياء كثيرة، إن الأمر ممتع للغاية. بعض منهم طاعن في السن، والبعض الآخر أصم وأعمى وما إلى ذلك؛ لكنهم يحبون التجمع معًا".

فقالت توبينس: "حسنًا، أود أن أزور هذا المكان، هل هناك أي موعد محدد للذهاب إلى هناك؟".

"حسنًا، تستطيعين الذهاب في أي وقت تريدينه، لكن من الأنسب أن تكون الزيارة في فترة ما بعد الظهيرة، أجل، فحينها يستطيعون الإبلاغ بأن هناك صديقًا قادمًا إليهم وعندئذ يحصلون على أشياء إضافية من أجل الشاي، مثل البسكويت المحلى، ورقائق البطاطس، وما شابه. ما رأيك يا فريد؟".

تقدم فريد إلى الأمام وانحنى أمام توبينس انحناءة مسرحية

وقال: "سأكون سعيدًا جدًا بذلك، لنتقابل في الثالثة والنصف تقريبًا".

فقال كلارنس: "كن على طبيعتك، ولا تتحدث بهذه الطريقة".

فقالت توبينس: "سيسرني كثيرًا إجراء هذه الزيارة"، ثم نظرت إلى الماء وأردفت: "لا أستطيع منع نفسي من الشعور بالأسف؛ لأنه لم تعد هناك أية أسماك ذهبية بالبركة".

"كان لا بد أن تشاهدي تلك التي كان لها خمسة ذيول، لقد كانت أسماكًا رائعة. ذات مرة سقط كلب أحدهم بالبركة، كان كلب السيدة فاجيت".

فعارض أحدهم كلامه وقال: "كلا، لم يكن كلب السيدة فاجيت، بل كلب سيدة أخرى تدعى فوليو وليس فاجيت..."

"اسمها فوليات، وهو ينطق بحرف ف مخفف".

"آه، لا تكن سخيفًا، لقد كانت شخصية أخرى تمامًا، كانت السيدة فرينش، واسمها ينطق بالشين المشددة".

فقالت توبينس: "هل غرق الكلب؟".

"كلا، لم يغرق، كان مجرد جرو صغير، وحينما رأته أمه انزعجت وذهبت لتجذب طرف فستان السيدة فرينش، فقد كانت عند إحدى الأشجار تقتطف بعض ثمرات التفاح، فعندما جذبت الأم طرف ثوبها، أتت السيدة فرينش ورأت الجرو وهو يغرق فقفزت داخل المياه وأخرجته. عندئذ تبللت ولم يعد الثوب الذي كانت ترتديه صالحًا للارتداء مرة أخرى".

فقالت توبينس: "يا إلهي! يبدو أن هناك أشياء كثيرة حدثت هنا، حسنًا، سأنتظر اثنين أو ثلاثة منكم عند العصر ليرافقوني إلى نادي المتقاعدين".

"أي ثلاثة؟ من سيذهب؟".

فاندلعت في الحال جلبة كبيرة.

"أنا سأذهب... كلا، لن أذهب... كلا، ستذهب بيتي... كلا، لن تذهب، لقد ذهبت قبل أيام، أعني أنها ذهبت إلى السينما قبل أيام، ولا تستطيع أن تذهب مرة أخرى".

فقالت توبينس: "حسنًا، اتفقوا فيما بينكم، وتعالوا إلى هنا في الثالثة والنصف".

فقال كلارنس: "أتمنى أن تستمتعي بهذه الزيارة".

فقالت القائدة الفكرية بحزم: "ستكون للزيارة أهمية تاريخية".

فقال كلارنس: "أوه، اخرسي يا جانيت"، ثم التفت إلى توبينس وقال: "إنها دائمًا هكذا، وهذا لأنها تذهب إلى المدرسة الثانوية. إنها تتباهى بذلك، ألا ترين؟ لم تكن المدرسة الشاملة مناسبة لها، حيث أثار أبواها هرجًا ومرجًا وهي حاليًا في المدرسة الثانوية، وهذا هو السبب في أنها تتصرف هكذا طوال الوقت".

٢

فرغت توبينس من تناول الغداء، وتساءلت عما إذا كانت هناك حلقة أخرى من المقابلة التي تمت هذا الصباح. هل حقا سيأتي أحد إليها ويرافقها بعد الظهيرة إلى نادي المتقاعدين؟ هل هناك بالفعل من كان يحمل هذا الاسم أم أنه مجرد شيء اخترعه الأطفال؟ لكن توبينس رأت أنه من الممتع في جميع الأحوال أن تجلس وتنتظر حتى يأتي إليها أحدهم.

لكن الأطفال جاءوا في موعدهم المحدد؛ ففي الثالثة والنصف دق جرس المنزل، فنهضت توبينس من مقعدها المجاور للمدفأة، وارتدت على عجل قبعتها *تحسبًا* للمطر، قبل أن يظهر ألبرت ليرافقها إلى الباب الأمامي.

فهمس في أذنها: "لن أدعك تذهبين مع أي أحد هكذا".

فقالت توبينس هامسة: "انظر يا ألبرت، هل هناك حقًا مكان يسمى ن ق م؟".

فقال ألبرت الذي كان دائمًا ما يظهر معرفته الكاملة بالعادات الاجتماعية: "لقد ظننت أن الأمر يتعلق ببطاقات التعريف، تلك التي تتركينها لدى الناس عندما تغادرين أو تصلين عندهم".

"أظن أنه مكان له علاقة بالمتقاعدين".

"آه، أجل، هناك مكان من هذا النوع، أجل، لقد بُني منذ سنتين أو ثلاث سنوات. إنه يقع عند نهاية القرية بعد أن تجتازي دار العبادة وتنعطفي ناحية اليمين. إنه مبنى قبيح، لكنه مناسب للسيدات المسنات ولإجراء المقابلات، وتوجد هناك ألعاب كثيرة، كما أن الكثير من السيدات يذهبن إلى هناك لتقديم المساعدة، وإقامة الحفلات، فهو أشبه بجمعية النساء، لكنه مخصص للسيدات المسنات فحسب، فجميعهن هناك طاعنات في السن، ومعظمهن فاقدات السمع".

فقالت توبينس: "أجل، أجل، يبدو الأمر كذلك".

انفتح الباب الأمامي، وكانت جانيت، بحكم تفوقها الفكري، تقف في المقدمة، ومن ورائها كلارنس الذي كان يقف خلفه صبي طويل أحول العينين بدا أن اسمه بيرت.

فقالت جانيت: "مساء الخير يا سيدة توبينس، الجميع سعيد بزيارتك، أظن أنه من الأفضل أن تأخذي معك المظلة، فتوقعات الطقس ليست جيدة هذا اليوم على الإطلاق".

فقال ألبرت: "أنا ذاهب في هذا الاتجاه؛ ولذلك سأرافقك في جزء من الطريق".

كانت توبينس ترى بلا شك أن ألبرت يمثل لها دائمًا الحماية، غير أنها لم تكن تعتقد أن جانيت، أو بيرت أو كلارنس يمثلون خطرًا عليها، واستغرق السير عشرين دقيقة حتى وصلوا إلى المبنى الأحمر واجتازوا البوابة وصولًا إلى الباب حيث استقبلتهم امرأة سمينة تبلغ من العمر حوالي سبعين عامًا.

فقالت: "أوه، لدينا زوار"، فربتت السيدة كتف توبينس وقالت: "إنني سعيدة جدًا لأنك تمكنت من المجيء يا عزيزتي، إنني غاية في السعادة، أجل جانيت، أشكرك جزيلًا، أجل، من هذه الناحية، أجل، ليست هناك حاجة لوجودكم أيها الأولاد إلا إذا كنتم ترغبون في المكوث".

فقالت جانيت: "أوه أعتقد أن الصبية سيصابون بإحباط شديد إذا لم يبقوا هنا لسماع القليل عن الأمر".

"حسنًا، أعتقد أنه لا يوجد الكثير منا هنا، ربما يكون من الأفضل للسيدة توبينس ألا تقلق من ذلك. من فضلك يا جانيت

اذهبي إلى المطبخ وأخبري مولي بأننا مستعدون لاحتساء الشاي".

لم تكن زيارة توبينس من أجل الشاي، غير أنها لم تكن تستطيع الإفصاح عن ذلك، ولقد جاء الشاي سريعًا، لكنه كان خفيفًا جدًّا وقُدّم معه بعض البسكويت والشطائر يتوسطهما بعض المعجنات ذات المذاق السيئ، فجلسوا وبدوا متحيرين بعض الشيء.

فأتى وجلس بجانبهم رجل مسن كثيف اللحية، بدا لـ توبينس أنه قارب على المائة.

وقال لـ توبينس محدثًا إياهًا على طريقة النبلاء: "أعتقد يا سيدتي أنه من الأفضل أن أتحدث إليك أولا لأنني الأكبر سنًا هنا وسمعت قصصًا تتعلق بالماضي أكثر من أي شخص آخر، فقد سمعت الكثير عن تاريخ هذا المكان، كما سمعت الكثير من الأشياء التي حدثت هنا، لكن لا يمكننا أن نتعمق في كل شيء في وقت واحد، أليس كذلك؟ لكننا جميعا... أوه، سمعنا جميعًا عن الأمور التي حدثت في الماضي".

فأسرعت توبينس بالقول قبل أن يدخلها الرجل في موضوع لا يلقى أهمية لديها: "أعلم أنه قد وقعت هنا أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام، ليس في الحرب الأخيرة، بل إبان الحرب التي سبقتها، أو ربما قبل ذلك. ولا أظن أن ذكرياتك ستعود إلى تلك الفترة، لكن المرء يتساءل عما إذا كنت سمعت أشياء ممن هم أكبر منك سنًا".

فقال الرجل المسن: "آه، هذا صحيح، هذا صحيح، لقد سمعت الكثير من الأمور من عمي لين. لقد كان رجلًا عظيمًا، وكان يعرف الكثير من الأمور التي حدثت هنا؛ حيث كان الأمر يتعلق بواقعة حدثت في المنزل المطل على رصيف الميناء، وكان ذلك قبل الحرب الأخيرة، أجل، كانت واقعة مشينة، تخص تلك الجماعة التي يسمونها فاكيستس..."

فقالت إحدى السيدات المتقدمات في السن: "الفاشيون"، كانت سيدة أنيقة ذات شعر رمادي تلف حول رقبتها شالًا مهترئًا من الدانتيل.

"حسنًا، فاشي إذا أحببت قولها بهذه الطريقة، فما الذي يهم في ذلك؟ آه أجل، كان الرجل المتورط في الواقعة أحد هؤلاء الفاشيين، أجل، فكان أشبه بذلك الرجل الموجود في إيطاليا والذي يدعى موسوليني أو ما شابه، أليس كذلك؟ على أية حال، كان هذا الرجل له اسم مريب كهذا، أعتقد أنه موسيلس أو كوكليس، أوه لقد خلف هنا الكثير من الدمار، وكان يجري مقابلات وأشياء من هذا القبيل، وكان من بدأ ذلك شخص يدعى موسلي".

فقالت توبينس وهي تفكر فيما إذا كان من الحكمة أن تقول هذا أم لا: "لكن إبان الحرب الأولى كانت هناك فتاة تدعى ماري جوردان، أليس كذلك؟".

"آه بلى، يقال إنها كانت فاتنة، وإنها كانت تحصل على أسرار من البحارين والجنود".

تحدثت سيدة مسنة بصوت رفيع وقالت:

"إنه ليس في البحرية وليس في الجيش،

لكنه مجرد رجل بالنسبة لي.

ليس في سلاح البحرية، وليس في الجيش، إنه في سلاح الجو الملكي!".

وعندما وصلت إلى هذا الحد، شرع رجل مسن في قول أنشودته:

"إنه طريق طويل لتيبيراري،

إنه طريق طويل،

إنه طريق طويل لتيبيراري

وبقية الأمر لا أعرفه".

فقالت سيدة صارمة المظهر، بدا أنها إما أن تكون زوجته أو ابنته: "هذا يكفي يا بين، هذا كاف تمامًا".

فغنت سيدة أخرى مسنة بصوت متهدج:

"جميع الفتيات الجميلات تحب بحارًا،

جميع الفتيات الجميلات تحب ملاحًا،

جميع الفتيات الجميلات تحب بحارًا،

وأنتم تعرفون ما يكون عليه البحارة".

فقال العم بين: "أوه، اخرسي يا موديا، نحن تعبنا من ذلك، دعي السيدة تسمع شيئًا، دعيها تسمع شيئًا، لقد أتت إلى هنا لتستمع إلى بعض المعلومات. إنها تريد أن تعرف معلومات عن الشيء

المخبأ الذي أثار ضجة حوله، أليس كذلك؟ بل تريد أن تعرف كل ما يتعلق بالأمر".

فقالت توبينس في ابتهاج: "هذا يبدو مثيرًا جدًا للغاية، شيء تم إخفاؤه!".

"آه أجل، كان ذلك قبل عصري بفترة طويلة لكنني سمعت عن كل ما يتعلق به، أجل، كان ذلك قبل عام ١٩١٤، لكنها مجرد أقاويل تناقلت من شخص لآخر، فلم يكن أحد يعرف بالضبط ماهية هذا الشيء، ولماذا أثيرت كل هذه الضجة حوله".

فقالت سيدة عجوز: "كان شيئًا يتعلق بسباق الزوارق بين جامعتي أكسفورد وكامبريدج، وقد ذهبت لرؤيته في إحدى المرات، ذهبت لمشاهدة سباق الزوارق في لندن أسفل الجسور، أوه كان يومًا رائعًا، وقد فازت حينها جامعة أكسفورد بفارق بسيط".

فقالت امرأة متجهمة ذات شعر رمادي قاتم: "كل ما تتحدثين عنه ليس إلا هراء، أنت لا تعرفين أي شيء عن الأمر. إنني أعرف معلومات أكثر منك بكثير رغم أن الأمر حدث قبل ميلادي بفترة طويلة. إن عمتي الكبرى ماتيلدا هي من أخبرتني، وقد علمت بالأمر من عمتها لو، وكان ذلك قبل ميلادهما بأربعين عامًا. كانت هناك ضجة كبيرة حول هذا الشيء المخبأ، وذهب الناس حينها ليبحثوا عنه. اعتقد بعض منهم أنه منجم ذهب، أجل، سبيكة ذهبية جلبت من أستراليا أو ما شابه".

فقال رجل مسن يدخن غليونًا بطريقة توحي بكراهيته العامة لزملائه: "لقد مزجوه مع السمك الذهبي".

"إنه ليس في البحرية وليس في الجيش،

لكنه مجرد رجل بالنسبة لي.

ليس في سلاح البحرية، وليس في الجيش، إنه في سلاح الجو الملكي!".

وعندما وصلت إلى هذا الحد، شرع رجل مسن في قول أنشودته:

"إنه طريق طويل لتيبيراري،

إنه طريق طويل،

إنه طريق طويل لتيبيراري

وبقية الأمر لا أعرفه".

فقالت سيدة صارمة المظهر، بدا أنها إما أن تكون زوجته أو ابنته: "هذا يكفي يا بين، هذا كاف تمامًا".

فغنت سيدة أخرى مسنة بصوت متهدج:

"جميع الفتيات الجميلات تحب بحارًا،

جميع الفتيات الجميلات تحب ملاحًا،

جميع الفتيات الجميلات تحب بحارًا،

وأنتم تعرفون ما يكون عليه البحارة".

فقال العم بين: "أوه، اخرسي يا موديا، نحن تعبنا من ذلك، دعي السيدة تسمع شيئًا، دعيها تسمع شيئًا، لقد أتت إلى هنا لتستمع إلى بعض المعلومات. إنها تريد أن تعرف معلومات عن الشيء

المخبأ الذي أثار ضجة حوله، أليس كذلك؟ بل تريد أن تعرف كل ما يتعلق بالأمر".

فقالت توبينس في ابتهاج: "هذا يبدو مثيرًا جدًّا للغاية، شيء تم إخفاؤه!".

"آه أجل، كان ذلك قبل عصري بفترة طويلة لكنني سمعت من كل ما يتعلق به، أجل، كان ذلك قبل عام ١٩١٤، لكنها مجرد أقاويل تناقلت من شخص لآخر، فلم يكن أحد يعرف بالضبط ماهية هذا الشيء، ولماذا أثيرت كل هذه الضجة حوله".

فقالت سيدة عجوز: "كان شيئًا يتعلق بسباق الزوارق بين جامعتي أكسفورد وكامبريدج، وقد ذهبت لرؤيته في إحدى المرات، ذهبت لمشاهدة سباق الزوارق في لندن أسفل الجسور، أوه كان يومًا رائعًا، وقد فازت حينها جامعة أكسفورد بفارق بسيط".

فقالت امرأة متجهمة ذات شعر رمادي قاتم: "كل ما تتحدثين عنه ليس إلا هراء، أنت لا تعرفين أي شيء عن الأمر. إنني أعرف معلومات أكثر منك بكثير رغم أن الأمر حدث قبل ميلادي بفترة طويلة. إن عمتي الكبرى ماتيلدا هي من أخبرتني، وقد علمت بالأمر من عمتها لو، وكان ذلك قبل ميلادهما بأربعين عامًا. كانت هناك ضجة كبيرة حول هذا الشيء المخبأ، وذهب الناس حينها ليبحثوا عنه. اعتقد بعض منهم أنه منجم ذهب، أجل، سبيكة ذهبية جلبت من أستراليا أو ما شابه".

فقال رجل مسن يدخن غليونًا بطريقة توحي بكراهيته العامة لزملائه: "لقد مزجوه مع السمك الذهبي".

فقال شخص آخر: "كان هذا الشيء يقدر بالكثير من الأموال، أيًا كان هو، وإلا لما كان تم إخفاؤه، أجل، وقد أتى الكثير من رجال الحكومة والأمن أيضًا للبحث عنه، لكنهم لم يعثروا على أي شيء".

"آه حسنًا، لم يكن لديهم الأدلة الصحيحة، فدائمًا ما تكون هناك دلائل، شريطة أن تعلمي أين تبحثين عنها".

فأومأت امرأة مسنة أخرى بطريقة تنم عن الحكمة وقالت: "دائمًا ما يكون هناك دلائل".

فقالت توبينس: "يا له من شيء مثير للاهتمام! أين، أعني أين توجد تلك الأدلة؟ في القرية أم خارجها أم..."

كان هذا تعليقًا بائسًا من توبينس؛ إذ إنه جلب على الأقل ستة ردود مختلفة في وقت واحد.

"في المور، خلف تاور ويست".

"كلا، خلف ليتل كيني".

"كلا، كان في الكهف المجاور لشاطئ البحر في بالدي هيد، حيث توجد الصخور الحمراء، هناك نفق قديم للمهربين، لا بد أنه رائع. يقول البعض إنه لا يزال موجودًا".

"لقد سمعت ذات مرة قصة تتعلق بالمياه الإسبانية القديمة، وهي تعود إلى عهد أرمادا، حيث غرقت هناك سفينة إسبانية كانت مليئة بالعملات الذهبية".

الفصل ١٠

الهجوم على توبينس

قال تومي عند عودته في تلك الليلة: "يا إلهي! تبدين متعبة جدًا يا توبينس، ماذا كنت تفعلين؟ يبدو عليك الإرهاق الشديد".

فقالت توبينس: "إنني في شدة الإرهاق، ولا أظن أنني سأتعافى مطلقًا، يا إلهي".

"ما الذي كنت تفعلينه؟ أتمنى ألا تكوني قد صعدت إلى الطابق العلوي وتفحصت المزيد من الكتب أو ما شابه".

فقالت توبينس: "كلا، كلا، لا أريد أن أتفحص الكتب مرة أخرى، سأترك الكتب وشأنها".

"حسنًا، ماذا هناك إذن؟ ما الذي كنت تفعلينه؟".

"هل تعرف ما هو ق ن م؟".

فقال تومي: "كلا، حسنًا، أجل، إنه شيء..."

فقاطعته توبينس: "أجل، ألبرت يعرف ذلك، لكنه ليس الشيء الذي تقصده. سأخبرك في الحال، لكن من الأفضل أولا أن تتناول شرابًا منعشًا لأنني سأتناول واحدًا".

وهكذا أطلعت تومي على أحداث ما بعد ظهيرة هذا اليوم، فقال تومي مرة أخرى: "يا إلهي! هل الأمور التي أقحمت نفسك بها يا توبينس مثيرة للاهتمام؟".

فقالت توبينس: "لا أعرف، فعندما يتحدث ستة أشخاص في الوقت ذاته، ويكون معظمهم غير قادر على التحدث بطريقة صحيحة، وكذلك يقولون أشياء مختلفة... فلن تعرف حقًا ما الذي يقولونه، لكن أجل، أعتقد أنني حصلت على بعض الأفكار للتعامل مع الأمور".

"ماذا تعنين؟".

"حسنًا، هناك كثير من الروايات تدور حول شيء تم إخفاؤه هنا فيما مضى، وأنه كان سرًا يرتبط بحرب عام ١٩١٤، أو حتى قبل ذلك".

فقال تومي: "حسنًا، نحن نعرف ذلك بالفعل، أليس كذلك؟ أعني أننا على علم بذلك".

"بلى، لكن هناك بعض الحكايات القديمة التي لا تزال تتردد هنا في القرية، وقد حصل الجميع على معلوماته من عماته أو أعمامه مثل العمة ماريا، والعم بين اللذين حصلا على معلوماتهما من أعمامهما أيضا مثل العم ستيفن أو العمة روث

أو من الجدة. إن للأمر جذورًا تتغلغل في أعماق الماضي، وربما يكون هناك شيء واحد من هذه الحكايات صحيح".

"لكنه مفقود وسط كل الأشياء الأخرى!".

فقالت توبينس: "أجل، مثل الإبرة في كومة القش! سأذهب إلى بعض الأشخاص الذين تحدثت إليهم ممن قد يخبرونني بشيء *سمعوا* به من الآخرين؛ ولكن يجب أن أقابلهم، كل على حدة، على الأقل لفترة وجيزة، ليخبروني بالضبط بما أخبروهم به أعمامهم وعماتهم مثل العمة أجاثا أو العمة بيتي أو العم جيمس، وبعد ذلك سأذهب إلى الشخص الذي يليه، فربما يعطيني أحدهم بعض المعلومات؛ فلا بد أن يكون هناك شيء موجود في مكان ما".

فقال تومي: "أجل، أعتقد أن هناك شيئًا، لكننا لا نعرف ماهيته".

"حسنًا، هذا ما نحاول فعله، أليس كذلك؟".

"بلى، لكن ألا يجب أن تكون لديك فكرة عن *ماهية* الشيء قبل أن تبحثي عنه؟".

فقالت توبينس: "لا أعتقد أن هذا الشيء هو سبائك ذهبية كانت على متن سفينة حربية إسبانية، ولا أعتقد أنه شيء مخبأ في نفق المهربين".

فقال تومي في أمل: "قد نجد بعضًا من المشروبات الفرنسية الفاخرة".

فقالت توبينس: "ربما، لكن ذلك لن يكون ما نبحث عنه، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "لا أعرف، أعتقد أنه ربما يكون ما أبحث عنه عاجلًا أم آجلًا، على أية حال، إنه شيء ينبغي أن أستمتع بالبحث عنه، قد يكون بالطبع خطابًا أو ما شابه، كخطاب عاطفي استخدم في ابتزاز أحدهم منذ ستين عامًا، لكن لا أعتقد أنه سيكون ذا جدوى في هذه الأيام، أليس كذلك؟".

"نعم، لا أعتقد ذلك، لكن علينا أن نكون فكرة عنه إن آجلًا أم عاجلًا. هل تعتقد يا تومي أننا سنعثر على شيء؟".

فقال تومي: "لا أعرف، لكنني حصلت على القليل من المساعدة اليوم".

"أوه، عن ماذا؟"

"عن التعداد".

"عن ماذا؟".

"التعداد، يبدو أنه كان قد أجرى تعدادًا في عام محدد... لقد دونته، وكان يمكث في منزل آل باركنسون حينها أشخاص كثيرون".

"كيف اكتشفت كل ذلك؟".

"أوه، من خلال وسائل مختلفة من البحث قامت بها السيدة كولدن، مسئولة البحث الخاصة بي".

"لقد بدأت أشعر بالغيرة من السيدة كولدن".

"حسنًا، لا داعي لذلك، إنها امرأة مسنة وليس بها قدر من الجمال".

فقالت توبينس: "هذا جيد، لكن ما علاقة التعداد بالشيء الذي نبحث عنه؟".

"حسنًا، عندما قال ألكسندر: "*لا بد أنه واحد منا*"، ربما كان يعني شخصًا تواجد بالمنزل آنذاك، وبناء عليه، فلا بد أنه سجل اسمه في التعداد، وهذا ينطبق على أي أحد قضى ليلته في هذا المنزل، وأعتقد أن هناك سجلات بتلك الأشياء في ملفات التعداد، وفي حال عرفت من كان يتواجد بالمنزل حينها - وأنا لا أعني أنني أعرفهم حاليًا، لكنني أستطيع أن أعرفهم من خلال أناس تربطني بهم معرفة - فحينئذ أعتقد أنني ربما أحصل على قائمة قصيرة بأسماء الأشخاص الذين تواجدوا في تلك الليلة بمنزل آل باركنسون".

فقالت توبينس: "حسنًا، ما تقوله صحيح. لكن دعنا نتناول شيئًا فربما حينها أشعر بتحسن وليس بدوار من محاولة الاستماع إلى أصوات مبحوحة جدًا تتحدث في وقت واحد".

٢

أعد ألبرت وجبة طيبة، غير أن مذاق طعامه لم يكن يسير على وتيرة واحدة؛ فأحيانًا ما تجده يتألق في طهي أطعمة شهية، وكانت تلك الليلة تجسيدًا لهذا الأمر من خلال ما أطلق عليه بودينج الجبن، بينما كان يفضل تومي وتوبينس أن يطلقا عليه حميرة الجبن، فاستنكر ألبرت قليلًا تسميتهما الخاطئة.

وقال: "خميرة الجبن شيء مختلف، فهي تحتاج إلى زلال بيض مخفوق أكثر من الذي يحتاج إليه بودينج الجبن".

فقالت توبينس: "لا يهم، إن مذاق الطعام شهي جدًا سواء أكان بودينج الجبن أم خميرة الجبن".

كان تومي وتوبينس منغمسين في تناول الطعام ولم يتبادلا الملاحظات مثلما اعتادا، غير أنهما عندما احتسيا فنجانين من القهوة الثقيلة، اتكأت توبينس في مقعدها إلى الخلف وأطلقت تنهيدة عميقة وقالت:

"أشعر الآن بأنني عدت إلى نفسي. ألم تغتسل قبل العشاء يا تومي؟".

فقال تومي: "لم أكن أستطيع أن أنتظر حتى أغتسل، إلى جانب أنني لا أتوقع ما تريدينه، فربما تجعلينني أصعد إلى حجرة الكتب وأقف فوق سلم مليء بالتراب لأبحث بين الرفوف".

فقالت توبينس: "أنا لست قاسية إلى هذا الحد، انتظر دقيقة، دعنا نر أين نحن الآن".

"أين نحن أم أين أنت؟".

فقالت توبينس: "في الواقع، أين أنا الآن، فهذا هو الشيء الوحيد الذي أعرفه، أليس كذلك؟ أنت تعرف أين أنت وأنا أعرف أين أنا، ربما هذا هو الأمر".

فقال تومي: "ربما كذلك".

"هلا مررت لي حقيبتي، إلا إذا كنت قد تركتها في حجرة العشاء!".

"عادة ما تفعلين ذلك لكنك هذه المرة لم تفعليها، إنها أسفل قدم مقعدك، كلا... الجانب الآخر".

أخذت توبينس حقيبتها.

وقالت: "كانت هذه الحقيبة هدية جميلة جدًا، أعتقد أنها مصنوعة من جلد تمساح حقيقي، لكن يصعب عليَّ أحيانًا أن أضع بها الأشياء".

فقال تومي: "ومن الواضح أنه من الصعب أيضًا إخراج الأشياء منها".

كانت توبينس تكاد تتصارع مع الحقيبة.

وبإرهاق شديد قالت: "دائمًا ما يصعب عليك إخراج الأشياء من الحقائب باهظة الثمن، لكن الحقائب التي تُصْنَع من السلال تكون مريحة أكثر؛ إذ إنها مرنة وتتحرك في جميع الجهات مثل البودينج. آه! أعتقد أنني وجدته".

"ما هو؟ إنه يشبه قائمة الغسيل".

"بل إنه دفتر صغير اعتدت أن أدون به الأشياء التي تحتاج إلى الغسيل، أو التغيير، مثل أغطية الوسائد الممزقة أو ما شابه؛ لكنني رأيت أنه لا يزال يمكنني استخدامه؛ لأنني استخدمت منه فحسب ثلاث أو أربع صفحات؛ فقد دونت به الأشياء التي سمعناها من الآخرين، ورغم أن كثيرًا منها لا يشير إلى أي شيء لكن هذا ما فعلته، وقد أضفت إليها التعداد عندما ذكرته لأول

مرة، ورغم أنني لا أعرف ما جدواه حاليًا أو ما كنت تعني به، لكنني أضفته على أية حال".

فقال تومي: "جيد".

"وقد دونت أيضًا اسم السيدة هندرسون وشخص يدعى دودو".

"من تكون السيدة هندرسون؟".

"حسنًا، لا أظن أنك ستتذكرها ولا أحتاج إلى الرجوع إلى ذلك الآن؛ لكنهما اسمان دونتهما عندما أشارت إليهما السيدة... ما اسمها... السيدة المسنة، السيدة جريفين. وكذلك دونت رسالة أو ملاحظة... شيئًا يتعلق بجامعتي أكسفورد وكامبريدج، كما أنني صادفت شيئًا آخر في أحد الكتب القديمة".

"عن ماذا... جامعتي أكسفورد وكامبريدج؟ هل تقصدين ذلك الطالب؟".

"لست متأكدة إذا ما كان الأمر يتعلق بطالب أم لا، لكنني أعتقد أنه كان مراهنة على سباق الزوارق".

فقال تومي: "لكن هذه المعلومة ليست مفيدة".

"حسنًا، من يدري؟ إذن هناك السيدة هندرسون وشخص آخر يعيش في منزل يسمى شجرة التفاح، وهناك شيء وجدته في ورقة متسخة داخل أحد الكتب في الطابق العلوي، لا أعرف إذا كنت قد وجدتها في كتاب *كاتريونا* أم في كتاب يدعى *ظل العرش*".

فقال تومي: "إنه عن الثورة الفرنسية، لقد قرأته عندما كنت صبيًا".

"حسنًا، لا أفهم كيف جاءت هذه الكلمات بهذا الكتاب، لكنني دونتها على أية حال".

"حسنًا، ما هي؟".

"يبدو أنها ثلاث كلمات مدونة بالقلم الرصاص، جرين، ج-ر-ي-ن، وهين، ه-ي-ن، ولو، ل مشددة-و".

فقال تومي: "دعيني أخمن، جرين ترمز إلى ابتسامة القط تشيشاير، وهين ترمز إلى هيني بيني، وهي قصة خيالية، ولو ترمز..."

فقالت توبينس: "آه؟".

فقال تومي: "لو...، لا يبدو أن لها معنى".

فتحدثت توبينس سريعًا: "هناك أيضًا السيدة هينلي، ومنزل شجرة التفاح، إنني لم أزرها بعد، إنها تسكن في ميدوسايد".

ثم سردت سريعًا: "والآن، أين نحن؟ السيدة جريفين، جامعتا أكسفورد وكامبريدج، رهان على زورق سباق، التعداد، القط تشيشاير، وقصة هيني بيني، حيث ذهبت الدجاجة إلى دوفريفيل، وهانس أندرسن أو ما شابه، ولو... أظن أن كلمة لو تعني عندما ذهبوا إلى هناك، أعني إلى دوفريفيل.

ثم استطردت: "لا أعتقد أن هناك شيئًا آخر".

"هناك سباق أو رهان الزوارق لجامعتي أكسفورد وكامبريدج".

"أظن أن الاحتمال الأرجح هو أننا سخفاء، لكن أعتقد أننا إذا استمررنا طويلًا في هذه السخافة، فقد نخرج بشيء ثمين من

وسط القمامة، تمامًا كما وجدنا هذا الكتاب المهم بين الرفوف بالطابق العلوي".

فقالت توبينس في تأمل: "جامعتا أكسفورد وكامبريدج، هذا يجعلني أفكر في أمر، يجعلني أتذكر شيئًا، ماذا يمكن أن يكون؟" .

"ماتيلدا؟" .

"كلا، ليس ماتيلدا، لكن..."

فقال تومي وعلى شفتيه ابتسامة عريضة: "عربة الحب الحقيقي، أين يمكن أن أجد الحب الحقيقي؟".

فقالت توبينس: "توقف عن الابتسام، جرين-هين-لو، إنها لا تعني شيئًا، لكن هناك شعورًا يراودني...أوه!".

"ماذا هناك؟".

"أوه يا تومي، لدي فكرة، بالطبع".

"عن ماذا؟".

فقالت توبينس: "لو، لو، جرين هو ما جعلني أفكر في الأمر. إنك تبتسم مثل القط تشيشاير، جرين، هين وبعد ذلك لو، بالطبع، لا بد أن يكون الأمر كذلك".

"عم تتحدثين؟".

"عن زورق سباق جامعتي أكسفورد وكامبريدج".

"لماذا تجعلك جملة جرين هين لو تفكرين في زورق سباق جامعتي أكسفورد وكامبريدج؟".

فقالت توبينس: "سأعطيك ثلاثة تخمينات".

"حسنًا، سأستسلم في الحال لأنني أعتقد أن هذه الكلمات لا تعني شيئًا".

"بل لها معنى بالفعل".

"ماذا، سباق الزوارق؟".

"كلا، لا شيء يتعلق بسباق الزوارق، اللون، أعني الألوان".

"ماذا تقصدين يا توبينس؟" .

"جرين هين لو، لقد قرأناها بطريقة خاطئة، كان لا بد أن نقرأ بالعكس".

"ماذا تقصدين؟ ول، ثم نيه، إنها لا تعنى شيئًا، ولا يمكن أن يؤدي عكس حروف الكلمات إلى شيء".

"كلا، خذ فحسب الكلمات الثلاث، كما فعل ألكسندر في الكتاب، ذلك الكتاب الأول الذي فحصناه، واقرأها بالعكس، لو هين جرين".

اكفهر وجه تومي.

فقالت توبينس: "ألم تفهم بعد؟ لوهينجرين بالطبع، الإوز، الأوبرا، لوهينجرين وانجر".

"حسنًا، ما علاقة ما نتحدث عنه بالإوزة".

"بل هناك علاقة، إنني أقصد القطعتين الخزفيتين اللتين وجدناهما، مقاعد الحديقة هذه، أتتذكرهما؟ أحدهما كان أزرق غامقًا والآخر فاتحًا، وقد قال لنا إيزاك - على الأقل أعتقد أن إيزاك هو من قال ذلك: "هذا أكسفورد، وهذا كامبريدج".

"حسنًا، إن مقعد أكسفورد تهشم، أليس كذلك؟".

"بلى، لكن مقعد كامبريدج لا يزال موجودًا، إنه ذو اللون الأزرق الفاتح، لوهينجرين. أظن أن هناك شيئًا مخبأ في أحد المقعدين. تومي، الشيء التالي الذي علينا فعله هو الذهاب إلى كامبريدج وفحص ذلك المقعد ذي اللون الأزرق الفاتح، إنه لا يزال موجودًا في الكيه كيه، هل يمكننا أن نذهب الآن؟".

"ماذا، إنها الحادية عشرة مساءً، كلا".

"إذن سنذهب غدًا، ليس عليك أن تذهب إلى لندن في الغد، أليس صحيحا؟".

"بلى".

"حسنًا، لنذهب غدًا ونتفحصه".

٣

قال ألبرت: "لا أعرف ماذا ستفعلين بشأن الحديقة، فلقد عملت فيما مضى بإحدى الحدائق لفترة قصيرة، لكن خبرتي قليلة بالخضراوات. بالمناسبة، هناك صبي هنا يريد أن يراك يا سيدتي".

فقالت توبينس: "أوه، صبي، هل تعني ذلك الصبي ذا الشعر الأحمر؟".

"كلا، أعني الصبي الآخر، ذلك الذي ينسدل شعره الأشعث الأصفر حتى نصف ظهره، إن اسمه سخيف، يبدو قريبًا من اسم رويال كلارنس".

"كلارنس، وليس رويال كلارنس".

فقال ألبرت: "حسنًا، إنه ينتظر عند الباب الأمامي، قال إنه يستطيع مساعدتك بطريقة ما".

"نعم، نما إلى علمي أنه كان يساعد إيزاك من فترة لأخرى".

كان كلارنس يجلس فوق كرسي متداعٍ من القش في الشرفة أو الفرانـدة، أيًا كان اسمها، وبدا أنه يتناول إفطارًا سريعًا من رقائق البطاطس بينما يحمل قالبًا من الشيكولاتة في يده اليسرى.

فقال: "صباح الخير يا سيدتي، أتيت لأعرض عليك مساعدتي".

فقالت توبينس: "حسنًا، نحن نحتاج بالطبع إلى من يساعدنا، أعتقد أنك كنت تساعد إيزاك فيما مضى".

"نعم، كنت أفعل ذلك من حين لآخر، لكنني لا أستطيع قول إنني أعرف كثيرًا عن البستنة، وكذلك إيزاك؛ فقد حدثني كثيرًا عن الأوقات الرائعة التي قضاها مع الأشخاص الذين كان يعمل لديهم، حيث كان يقول إنه البستاني الرئيسي للسيد بولينجو الذي كان يعيش على ضفاف النهر في منزل كبير، لكنه تحول حاليًا إلى مدرسة، فلقد قال إنه كان البستاني الرئيسي هناك، لكن جدتي تقول إنه لا يوجد شيء من الحقيقة في هذا الكلام".

فقالت توبينس: "حسنًا، لا يهم، في الواقع، كنت أريد أن أخرج المزيد من الأشياء من تلك الصوبة".

"تقصدين المستنبت، المستنبت الزجاجي؟ كيه كيه، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "هذا صحيح، من الغريب أنك تعرف الاسم الصحيح لها".

"أوه حسنًا، دائمًا ما كان يطلق عليها هكذا؛ فالجميع كانوا يسمونها بهذا الاسم، وكان يقال إنه اسم ياباني، لكني لا أعرف ما إذا كان ذلك حقيقيًا أم لا".

فقالت توبينس: "هيا نذهب إليها".

فتكوَّن موكب مكون من تومي، وتوبينس، والكلب هانيبال، وألبرت الذي ترك غسل أواني الإفطار من أجل أمر أكثر أهمية قد ينبثق من خلف الستار، ولقد أظهر هانيبال سعادة بالغة بعد أن اشتم كل الروائح المفيدة في الحي؛ فقد رافقهم إلى باب كيه كيه، وأخذ يتشمم المكان بطريقة مثيرة للاهتمام.

فقالت توبينس: "أهلاً، هانيبال، هل ستساعدنا؟ هل تقول لنا شيئًا؟".

فقال كلارنس: "ما نوع هذا الكلب؟ قال أحدهم إنه من الكلاب التي تطارد الفئران، أهذا حقيقي؟".

فقال تومي: "أجل، هذا صحيح، إنه من نوع مانشستر تيرير، إنه من سلالة إنجليزية قديمة ويتميز بلونه الأسود الضارب إلى الصفرة".

التفت هانيبال، الذي كان يدرك أن الحديث يدور حوله، وحرك جسمه، وهز ذيله بحيوية كبيرة، ثم جلس وبدا متفاخرًا بنفسه.

فقال كلارنس: "إنه يعض، أليس كذلك؟ الجميع يقولون ذلك".

فقالت توبينس: "إنه كلب حراسة جيد جدًا، فهو يعتني بي".

فقال تومي: "هذا صحيح، فعندما أكون غائبًا، يعتني بك، فقد قال ساعي البريد إنه كاد يعضه قبل أربعة أيام".

فقالت توبينس: "إن الكلاب تفعل هكذا مع سعاة البريد، هل تعرف أين مفتاح كيه كيه؟".

فقال كلارنس: "أجل، إنه معلق في السقيفة حيث توجد أواني الزهور".

فذهب وعاد بعد فترة وجيزة ومعه مفتاح كان صدئًا فيما مضى، لكنه أصبح حاليًا مدهونًا بالزيت.

وقال: "لا بد أن إيزاك هو من كان يدهنه بالزيت".

فقالت توبينس: "أجل، إنه لم يكن يعمل جيدًا من قبل".

فتح تومي باب كيه كيه.

فبدا مقعد كامبريدج الخزفي المزخرف بالإوز جميلاً بعض الشيء، وكان من الواضح أن إيزاك نظفه وغسله بعد أن اقترحت توبينس نقله إلى الشرفة للجلوس عليه متى كان الطقس لطيفًا.

فقال كلارنس: "كان هناك مقعد آخر ذو لون أزرق قاتم، كان إيزاك يسميهما أكسفورد وكامبريدج".

"أهذا حقيقي؟".

"أجل، أكسفورد ذو اللون الأزرق القاتم وكامبريدج ذو اللون الأزرق الفاتح، أوه، وكان أكسفورد هو المقعد الذي تهشم، صحيح؟".

"أجل، أشبه بما حدث لسباق الزوارق".

"هناك شيء حدث في هذا الحصان الهزاز، أليس كذلك؟ فهناك فوضى عارمة في كيه كيه".

"بلى".

"اسمه ماتيلدا، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "بلى، لقد أجرينا له عملية جراحية".

بدا أن كلارنس رأى ذلك مسليًا جدًا، فضحك بشدة.

وقال: "لقد أجريت عملية لعمتي الكبرى إديث، حيث أخذوا جزءًا من داخل جسدها لكنها تعافت بعد ذلك".

لكنه بدا محبطًا بعض الشيء.

فقالت توبينس: "أظن أنه لا توجد طريقة لتفحص ذلك الشيء من الداخل".

"تستطيعين تهشيمه، مثلما حدث مع المقعد ذي اللون الأزرق القاتم".

"أجل، ليست هناك طريقة أخرى، أليس كذلك؟ يا لها من فتحات جميلة تلك التي تتخذ شكل حرف S وتحيط بقمة المقعد، بوسع المرء أن يضع بها الأشياء مثل صندوق البريد".

فقال تومي في ود: "بلى، يمكن ذلك، إنها فكرة مثيرة للاهتمام، مثيرة للاهتمام جدًا يا كلارنس".

بدا كلارنس سعيدًا.

ثم قال: "يمكنكم فك المسامير الخاصة به".

فقالت توبينس: "إذن فكها، أتستطيع ذلك؟ من أخبرك بذلك؟".

"إيزاك، لقد رأيته يفعل ذلك كثيرًا، كان يقلبه رأسًا على عقب ثم يبدأ في تحريك الجزء العلوي به، لكنه أحيانًا ما كان يجده متيبسًا؛ لذلك كان يضع قليلًا من الزيت حول التصدعات الموجودة به وما إن يتغلغل بها الزيت، كان يلف هذا الجزء".

"أوه".

"الطريقة الأسهل هي أن نقلبه رأسًا على عقب".

فقالت توبينس: "يبدو أن كل شيء هنا يجب أن يقلب رأسًا على عقب، كان علينا أن نفعل ذلك مع الحصان ماتيلدا قبل أن نستطيع فحصه".

بدا المقعد كامبريدج مشاكسًا لبرهة قبل أن يبدأ الخزف فجأة في الدوران ليتمكنوا بعد فترة وجيزة من فك المسامير تمامًا.

فقال كلارنس: "أظن أن به الكثير من القمامة".

فأتى هانيبال ليقدم مساعدته؛ إذ كان يحب المساعدة في أي شيء يجري أمامه؛ فكان يرى أنه لا يمكن لأمر أن يكتمل إلا بمساعدته أو الضرب بمخالبه، لكن بالنسبة له كان أنفه هو من يقوم بالمهمة، فخفض أنفه، وزمجر بلطف، ثم تراجع خطوات وجلس.

فقالت توبينس: "لا تحب القمامة يا هانيبال، أليس كذلك؟"، ثم نظرت إلى داخل المقعد حيث الفوضى المزعجة الموجودة به.

فقال كلارنس: "واه!".

"ماذا هناك؟".

"لقد جرحت نفسي، هناك شيء يتدلى من أحد المسامير بهذا الجانب. لا أعرف إذا ما كان مسمارًا أما ماذا، إنه شيء، آه!".

فقال هانيبال الذي كان قد اشترك معهم فيما يفعلونه: "وفف، وفف!".

"هناك شيء يتدلى من أحد المسامير بالداخل، أجل، أمسكت به، كلا، لقد انزلق، ها، لقد أمسكت به".

فأخرج كلارنس لفافة من القماش المشمع القاتم.

فأتى هانيبال وجلس فوق قدم توبينس، ثم زمجر.

فقالت توبينس: "ماذا حدث يا هانيبال؟".

فزمجر هانيبال مرة أخرى، فانحنت توبينس ومررت يدها فوق رأسه وأذنه.

وقالت: "ماذا هناك يا هانيبال؟ هل كنت تريد لجامعة أكسفورد أن تفوز، لكن كامبريدج هي التي فازت، ثم وجهت حديثها لـ تومي وقالت: "هل تتذكر كيف سمحنا له بأن يشاهد سباق الزوارق على التلفاز؟".

فقال تومي: "أجل، كان غاضبًا جدًا من النهاية وبدأ ينبح حتى إننا لم نعد نسمع أي شيء على الإطلاق".

فقالت توبينس: "حسنًا، نحن لا نزال نرى أشياء كانت تمثل شيئًا، لكن إذا كنت تتذكر، فهو لم يرقه فوز كامبريدج".

فقال تومي: "بالطبع، لأنه درس في جامعة أكسفورد للكلاب".

ترك هانيبال توبينس وذهب لـ تومي وهز ذيله في امتنان.

فقالت توبينس: "لقد أعجبه حديثك الذي بدا حقيقيًا جدًا. إنني أعتقد أنه تلقى تعليمه في الجامعة المفتوحة للكلاب".

فقال تومي ضاحكًا: "وماذا كانت دراساته الرئيسية هناك؟".

"التخلص من العظام".

"أنت تعرفين طبعه".

"أجل، أعرفه، ذات مرة وبحماقة شديدة أعطاه ألبرت عظمة كاملة لقدم خروف. في البداية، وجدته في غرفة الاستقبال يضعها أسفل إحدى الوسائد، فأجبرته على الخروج من باب الحديقة وأغلقته، ونظرت من النافذة فرأيته يتجه نحو أحد أواني الزهور التي كنت أزرع بها نبات سيف الغراب، حيث دفن

العظمة بحرص شديد؛ فهو منظم جدًا فيما يتعلق بعظامه. إنه لا يحاول مطلقا أن يأكلها، بل دائمًا ما يضعها جانبًا ليوم يجوع فيه".

فقال كلارنس مشتركًا في هذا الحوار المتعلق بتقاليد الكلب: "هل كان يخرجها مرة أخرى؟".

فقالت توبينس: "أعتقد أنه أحيانًا ما كان يفعل ذلك عندما تكون عظمة قديمة، ويكون استمرار دفنها هو الشيء الأفضل لها".

فقال كلارنس: "كلبنا لا يحب بسكويت الكلاب".

فقالت توبينس: "إنه يتركه في الطبق ويتناول اللحم أولا".

فقال كلارنس: "لكن كلبنا يحب الكعك الإسفنجي".

تشمم هانيبال الكأس المستخرجة من داخل كامبريدج، ثم استدار فجأة ونبح.

فقالت توبينس: "انظر إذا ما كان هناك أي أحد بالخارج، ربما يكون بستانيًا، فأحدهم أخبرني قبل أيام، أعتقد أنها السيدة هيرينج، أنها تعرف رجلًا مسنًا كان بستانيًا ماهرًا في عصره، وأنه كان يؤدي بعض الأعمال لأناس مختلفين".

فتح تومي الباب وذهب إلى الخارج في صحبة هانيبال.

ثم قال: "لا يوجد أحد هنا".

فنبح هانيبال، ثم زمجر، ثم ظل ينبح بصخب شديد.

فقال تومي: "إنه يعتقد أن هناك شخصًا أو شيئًا في تلك الحشائش، ربما ينبش أحدهم بحثًا عن واحدة من عظامه، أو ربما هناك أرنب؛ فهانيبال سخيف جدًا بشأن الأرانب، إنه يحتاج إلى الكثير من الشجاعة قبل أن يطارد أي أرنب؛ حيث يبدو أنه يشعر بود نحوهم. إنه يطارد الحمام والطيور الكبيرة، ولحسن الحظ لم يصطد أحدها مطلقًا".

كان هانيبال يتشمم حول الحشائش، فزمجر، ثم بدأ ينبح بصوت عال، وكان من حين لآخر يلتفت إلى تومي.

فقال تومي: "أظن أن هناك قطة وسط الحشائش، فأنت تعرفين ما يكون عليه عندما يعتقد أن هناك قطة بالمكان. هناك القطة الكبيرة السوداء التي تجوب المكان هنا وكذلك القطة الصغيرة، تلك التي نطلق عليها كيتي".

فقالت توبينس: "تلك هي القطة التي دائمًا ما تدخل المنزل، يبدو أنها تتسلل من بين التشققات الصغيرة، أوه، توقف يا هانيبال، عد إلى هنا".

سمعها هانيبال والتفت مظهرًا درجة عالية من الشراسة، فرمق توبينس وتراجع قليلًا، ثم أعاد التركيز مرة أخرى على الحشائش وبدأ ينبح بشراسة.

فقال تومي: "هناك شيء يزعجه، تعال يا هانيبال".

اهتز جسد هانيبال ورأسه، ونظر إلى تومي، ثم نظر إلى توبينس وهجم على الحشائش نابحًا بصوت عال.

فدوى صوت مفاجئ لانفجارين كبيرين.

فصاحت توبينس: "يا إلهي، لا بد أن أحدهم يصطاد أرانب".

فقال تومي: "تراجعي، تراجعي إلى داخل كيه كيه يا توبينس".

فحلق شيء فوق أذنه، وكان هانيبال، الذي أصبح في حالة تأهب، يركض حول الحشائش.

فركض تومي وراءه.

وقال: "إنه يطارد أحدًا، يطارد أحدهم أسفل التل، إنه يجري مثل المجنون".

فقالت توبينس: "من هو... ماذا هناك؟".

"هل أنت بخير يا توبينس؟".

فقالت توبينس: "كلا، أنا لست بخير. هناك شيء... شيء، أعتقد أنه ارتطم بأسفل كتفي، هل كان... ماذا كان هذا؟".

"كان هناك شخص يطلق الرصاص علينا، شخص كان يختبئ داخل الحشائش".

فقالت توبينس: "لقد كان يراقب ما نفعله، هل تعتقد أن الأمر كذلك؟".

فقال كلارنس في أمل: "أظن أنهم الأيرلنديون، الجيش الجمهوري الأيرلندي، إنهم يحاولون تفجير هذا المكان".

فقالت توبينس: "لا أعتقد أنه وراء هذه الواقعة دافع سياسي".

فقال تومي: "ادخلوا المنزل بسرعة، هيا، من الأفضل أن تأتي أيضًا معنا يا كلارنس".

فقال كلارنس في تردد: "ألا تعتقد أن كليكما سيعضني؟".

فقال تومي: "كلا، أعتقد أنه مشغول حاليًا".

ما لبث أن انعطفوا إلى باب الحديقة حتى ظهر هانيبال فجأة، حيث كان يجري فوق التل لاهثًا، فتحدث إلى تومي بالطريقة التي يتحدث بها الكلاب؛ إذ حرك جسده ووضع قدمه فوق رجل تومي وحاول أن يجذبه في الاتجاه الذي كان قد أتى منه للتو.

فقال تومي: "إنه يريد مني أن أذهب معه وراء الرجل الذي كان يطارده".

فقالت توبينس: "حسنًا، لا تفعل ذلك، فإن كان هناك أي شخص عند التل، فستكون معه بندقية أو مسدس أو أية وسيلة لإطلاق النار. أنا لن أدعك تتعرض لإطلاق النار، ليس في سنك هذه. فمن سيعتني بي إذا حدث لك أي شيء؟ تعال، دعنا نذهب إلى الداخل".

فدخلوا المنزل مسرعين، ثم خرج تومي إلى الصالة وتحدث في الهاتف.

فقالت توبينس: "ماذا تفعل؟".

فقال تومي: "أتصل بالشرطة، لا ينبغي أن أدع شيئًا مثل هذا يمر مرور الكرام، ربما يستطيعون التوصل إلى من فعل ذلك، في حال أسرعنا بإبلاغهم".

فقالت توبينس: "أعتقد أنني أريد شيئًا أضعه فوق كتفي، فالدماء تسيل على ردائي المفضل".

فقال تومي: "إن رداءك لا يهم".

ظهر ألبرت في تلك اللحظة ومعه حقيبة الإسعافات الأولية.

وقال: "يا إلهي! أتعني أن هناك رجلًا قذرًا أطلق الرصاص على السيدة توبينس؟ ما الذي سيحدث بعد ذلك في تلك البلدة؟".

"أنت لست بحاجة إلى الذهاب للمستشفى، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "نعم، لا أحتاج إلى ذلك، إنني بخير لكنني أريد ضمادة كبيرة أو ما شابه لوضعها فوق الجرح قبل أن أضع عليه بعض البلسم".

"لديَّ بعض اليود".

"لا أريد اليود، إنه يحرق، كما أنهم يقولون حاليًا في المستشفيات إنه ليس الشيء الأنسب لوضعه على الجروح".

فقال ألبرت: "أعتقد أن البلسم هو الشيء الذي تستنشقينه من جهاز المستنشق".

فقالت توبينس: "هذا أحد استخداماته، لكنه جيد جدًا لوضعه فوق الخدوش أو الندوب أو إذا جرح الأطفال أنفسهم أو ما شابه. هل الشيء على ما يرام؟".

"أي شيء، ماذا تعنين يا توبينس؟".

"الشيء الذي أخرجناه من مقعد كامبريدج لوهينجرين، هذا ما كنت أقصده. ذلك الشيء الذي كان معلقًا على أحد المسامير. ربما يكون شيئًا مهمًا، فلو أنهم رأونا، وحاولوا قتلنا، وحاولوا أن يحصلوا على هذا الشيء أيًا كان هو، فلا بد أنه شيء مهم!".

الفصل ١١

هانيبال يتخذ إجراءً

كان تومي يجلس مع مفتش الشرطة نوريس في مكتبه، وكان ذلك الأخير يومئ برفق.

ويقول: "أتمنى أن نصل إلى نتائج إيجابية يا سيد تومي، لقد قلت إن الطبيب كروسفيلد جاء ليعالج زوجتك".

فقال تومي: "أجل، علمت منه أن الأمر ليس خطيرًا، مجرد خدش ونزيف من وقع الرصاصة، وأنها ستكون على ما يرام؛ إذ قال إن حالتها ليست بالخطيرة".

فقال المفتش نوريس: "غير أنها، حسبما أظن، ليست في سن صغيرة".

فقال تومي: "إن عمرها يتجاوز السبعين عامًا، فكلانا يتقدم في العمر، كما تعرف".

فقال المفتش نوريس: "أجل، أجل، إلى حد بعيد، فمنذ أن جئتما للعيش هنا وأنا أسمع عنها خيرًا بين أبناء القرية؛

فالناس هنا يحبونها كثيرًا، كما سمعنا عن أنشطتها المختلفة، وكذلك أنشطتك".

فقال تومي: "أوه، يا إلهي".

فقال المفتش نوريس بصوت رقيق: "لا يمكن للمرء أن يتخلص من ماضيه، سواء أكان جيدًا أم سيئًا، ولا يمكن أن ينساه الناس سواء أكان مجرمًا أم بطلًا؛ ولكن أؤكد لك أننا سنبذل كل ما بوسعنا لإماطة اللثام عن الأمر. ألا تستطيع أن تصف لي هذا الشخص الذي أطلق الرصاص؟".

فقال تومي: "بلى، عندما رأيته كان يجري وكان كلبنا يطارده، أظن أنه لم يكن متقدمًا في السن، أعني أنه كان يجري بسهولة".

"أتظنه ما بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة فما فوق؟".

فقال تومي: "بل كان أكبر من ذلك".

فقال المفتش: "ألم تتلقيا أية مكالمات هاتفية أو خطابات، أو مطالبات مالية أو ما شابه؟".

فقال تومي: "نعم، لم نتلق أي شيء من هذا القبيل".

"كم مضى على مجيئكما هنا؟".

فأخبره تومي بالمدة.

فقال المفتش: "همم، ليست بالفترة الطويلة، علمت أنك تذهب إلى لندن معظم أيام الأسبوع".

فقال تومي: "أجل، إذا كنت تريد معرفة التفاصيل..."

فقال المفتش نوريس: "كلا، كلا، كلا، لا أحتاج إلى أية تفاصيل، أما الشيء الوحيد الذي يجب أن أقوله لك هو... أن تقلل من انتقالاتك وتبقى في المنزل للعناية بالسيدة لوبينس..."

فقال تومي: "كنت أنوي فعل ذلك، أعتقد أن هذا عذر جيد بالنسبة لي كي لا أظهر كثيرًا في المقابلات المختلفة التي أعقدها في لندن".

"حسنًا، سنفعل كل ما بوسعنا لمراقبة الأمور، وإذا تمكنا من القبض على هذا المعتدي..."

فقال تومي: "هل تشعر...ربما لا يجب أن أطرح هذا السؤال، لكن هل تشعر بأنك تعرفه؟ هل تعرف اسمه أو دوافعه؟".

"حسنًا، إننا نعرف الكثير من المعلومات عن بعض الشباب الذين يعيشون هنا، إننا نعرف أكثر مما يعتقدون أننا نعرفه؛ فأحيانًا لا نكشف عن كم المعلومات التي في حوزتنا عن الآخرين لأنها الطريقة المثلى للقبض عليهم في النهاية، حيث نكتشف حينها من المتورط معهم، وما إذا كان هناك من يدفع لهم لارتكاب هذه الأشياء، أم أنهم ارتكبوها من تلقاء أنفسهم؛ لكن أعتقد... حسنًا، أعتقد أن هذا الشخص لا يسكن هذا الحي".

فقال تومي: "لماذا تعتقد ذلك؟".

"آه، حسنًا، إن المرء يستمع إلى أمور كثيرة، وكذلك يحصل على معلومات من أحياء ومناطق مختلفة".

نظر تومي والمفتش إلى بعضهما، وظلا على ذلك لمدة خمس دقائق لم ينطقا خلالها بكلمة واحدة، مكتفيين فحسب بتبادل النظرات.

فقال تومي: "حسنًا، أنا... لقد فهمت، أجل، ربما أكون فهمت الأمر".

فقال المفتش نوريس: "هل تسمح لي بقول شيء؟".

فقال تومي والشك يعتريه: "أجل، تفضل".

"نما إلى علمي أنكما تحتاجان إلى بستاني لحديقتكما".

"لقد قُتل بستاني حديقتنا، كما أظن أنك تعرف".

"أجل، أعرف كل شيء عن الأمر، إنه إيزاك بودليكوت، أليس كذلك؟ كان رجلاً مسنًا وماهرًا، وكان من حين لآخر يروي قصصًا خيالية عن أشياء رائعة فعلها في حياته، لكنه كان شخصية مشهورة وجديرة بالثقة".

فقال تومي: "لا يمكنني أن أتخيل لماذا قتلوه أو من الذي قتله، ولا يبدو أنه توجد لديه فكرة عن ذلك أو تمكن من كشف الأمر".

"تقصد *أننا* لم نكشف لغز الجريمة، حسنًا. إن تلك الأمور تستغرق بعض الوقت حتى تتكشف، فلا يمكن أن يتبدد غموضها خلال التحقيق، وقد انتهى الطبيب الشرعي في تقريره إلى أنها "جريمة قتل ضد مجهول"، وأحيانًا ما تكون هذه هي البداية لإماطة اللثام عن القاتل. حسنًا، ما كنت سأقوله هو أنه قد يأتي أحدهم إليكما ويسألكما عما إذا كنتما تريدان أحدًا للاعتناء

بحديقتكما؛ وسيقول إن بوسعه المجيء يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع، أو ربما أكثر، وسيخبرك بأنه عمل لأعوام لدى السيد سولومون، تذكر هذا الاسم"

فقال تومي: "السيد سولومون".

بدا أن المفتش نوريس يغمز بعينه.

وقال: "أجل، لقد *كان* يعيش هنا منذ زمن بعيد وعمل لديه عدد كبير من البستانيين المختلفين. لست متأكدًا من الاسم الذي سيعطيه لكما هذا الرجل، فلا أتذكره، ربما يكون كريسبن، أما عمره فيتراوح ما بين الثلاثين والخمسين عامًا أو أكثر، وكان يعمل لدى السيد سليمان، فإذا أتى أي شخص وقال إن بوسعه أن يعمل بستانيًا لديكم *ولم* يذكر السيد سولومون، فما كنت لأوافق عليه لو أنني في مكانكما. هذا مجرد تحذير".

فقال تومي: "أفهم، أفهم، أتمنى أن أكون قد فهمت".

فقال المفتش نوريس: "هذا هو مربط الفرس، إنك سريع البديهة يا سيد تومي، حسنًا، أظن أنه كان يتوجب عليك أن تكون كذلك خلال ممارستك لأنشطك، هل هناك أي شيء آخر تريد معرفته؟".

فقال تومي: "لا أعتقد ذلك، لا أعرف ما الذي يمكن أن أسأل عنه".

"سنجري بعض التحريات، ولكن ليس بالضرورة في هذه الناحية، ربما نجري تحريات في لندن أو مناطق أخرى. سنفعل جميعًا كل ما بوسعنا. حسنًا، إنك تعرف ذلك، صحيح؟".

قال تومي: "أود إبعاد توبينس...أود أن أمنع زوجتي من توريط نفسها في بعض الأمور لأن... لكن ذلك صعب".

فقال المفتش نوريس: "إن النساء دائمًا صعبات المراس".

كرر تومي هذه الملاحظة لاحقًا بينما كان يجلس على طرف السرير بجانب توبينس وهي تتناول العنب.

فقال: "هل تأكلين حقًا عناقيد العنب؟".

فقالت توبينس: "غالبًا، إنني أستغرق وقتًا طويلًا في نزعها، أليس كذلك؟ لا أعتقد أن هذا يضايقك".

فقال تومي: "حسنًا، إذا كان هذا لا يضايقك حاليًا، وكنت تفعلين ذلك طوال حياتك، فلا أعتقد أنه سيضايقني".

"ماذا قالت الشرطة؟".

"تمامًا كما توقعنا".

"هل يعرفون من قد يكون هذا الشخص؟".

"يقولون إنهم لا يعتقدون أنه من أهل القرية".

"مع من كنت تتحدث؟ إنه المفتش واتسون، أليس كذلك؟".

"نعم، إنه المفتش نوريس".

"أوه، إنني لا أعرفه، وماذا قال أيضًا؟".

"قال إن النساء دائمًا صعبات المراس".

فقالت توبينس: "حقًا! هل كان يعرف أنك ستأتي وتخبرني بذلك؟".

فقال تومي: "ربما لا"، ثم وقف وأردف: "يجب أن أجري بعض الاتصالات بلندن، فأنا لن أذهب إلى هناك لعدة أيام".

"تستطيع الذهاب وأنت مطمئن، إنني آمنة هنا! فـ ألبرت سيعتني بي، كما أن الطبيب كروسفيلد طيب القلب ويعتني بي كثيرًا".

"يجب أن أخرج لأشتري بعض الأشياء من أجل ألبرت، هل تريدين أي شيء؟".

فقالت توبينس: "أجل، أود أن تشتري لي بطيخة، إنني أشعر برغبة شديدة في تناول الفاكهة، الفاكهة وحسب".

فقال تومي: "حسنًا".

٢

اتصل تومي بلندن.

"الكولونيل بيكاواي؟".

"أجل، مرحبًا، آه، أنت تومي، أليس كذلك؟".

"آه، لقد تعرفت على صوتي، أريد أن أقول لك..."

فقال الكولونيل بيكاواي: "إن الأمر يتعلق بـ توبينس، لقد عرفت كل شيء، ليست هناك حاجة للحديث، ابق في المنزل كما تشاء لبضعة أيام أو حتى أسبوع، ولا داعي لأن تأتي إلى لندن حاليًا، لكن بلغني بأي شيء يحدث".

"ربما يكون هناك بعض الأشياء التي يجب أن نوصلها لك".

"حسنًا، احتفظ بها حتى نتقابل، واطلب من توبينس أن تبحث عن مكان لتخبئها به حتى يحين الوقت المناسب".

"إنها ماهرة في هذا الشيء، مثل كلبنا، إنه يخبئ العظام في الحديقة".

"سمعت أنه طارد الرجل الذي أطلق عليكما النار، وأخرجه من المكان..."

"يبدو أنك تعرف كل شيء عن الأمر".

فقال الكولونيل بيكاواي: "نحن دائمًا ما نعرف كل شيء هنا".

"لقد تمكن كلبنا من عضه ورجع وهو يحمل في فمه جزءًا من بنطلونه".

الفصل ١٢

أكسفورد، وكامبريدج، ولوهينجرين

نفخ الكولونيل بيكاواي دخان غليونه وقال: "صديقي العزيز، أعتذر لأنني أرسلت في طلبك على وجه السرعة، لكنني رأيت أن هناك حاجة لرؤيتك".

فقال تومي: "كما أظن أنك تعلم، فقد حدث لنا لاحقًا أمر غير متوقع".

"آه! لماذا تعتقد أنني أعرف ما تتحدث عنه؟".

"لأنك دائمًا تعرف كل شيء هنا".

فضحك الكولونيل بيكاواي.

"هاه! تقتبس كلماتي لتحدثني عن نفسي، أليس كذلك؟ أجل، هذا ما أقوله، إننا نعرف كل شيء، وهذا هو سبب وجودنا هنا. هل كان الأمر خطيرًا؟ إنني أتحدث عن زوجتك كما تعرف".

"كلا، لكن لم يكن كذلك، لكنه كان من الممكن أن يكون أكثر سوءًا، وأظن أنك تعرف معظم التفاصيل، أم أنك تريد مني أن أقصها عليك؟".

فقال الكولونيل بيكاواي: "بوسعك أن ترويها لي سريعًا، فهناك بعض الأمور التي لم أسمع بها، وهي ما تتعلق بـ لوهينجرين. جرين... هين... لو. إن زوجتك ذكية جدًا، فالكلمات تبدو لا معنى لها، ومع ذلك استطاعت معرفتها".

فقال تومي: "لقد أحضرت لك ما عثرنا عليه حتى الآن. لقد أخفيناه في صندوق الطحين إلى أن تمكنت من المجيء إليك، إذ لم أرغب في إرسالها عن طريق البريد".

"نعم، أحسنتما صنعًا..."

"وجدناه داخل صندوق من الصفيح، ليس صفيحًا بل معدن أفضل من ذلك، كان صندوقًا معلقًا في لوهينجرين، مقعد لوهينجرين ذي اللون الأزرق الفاتح والذي يسمى كامبريدج، ذلك المقعد الخزفي الخاص بالحديقة".

"إنني أتذكر تلك المقاعد حينما كنت صغيرًا، كان لدى عمتي في الريف زوجان منها".

"كان الصندوق ملفوفًا بإحكام في قماش من المشمع بداخله خطابات. إنها متهرئة بعض الشيء، لكن إذا تعاملنا معها بحرص..."

"أجل، بوسعنا التعامل مع هذه النوعية من الأشياء".

فقال تومي: "ها هي ذي كما أن لديَّ قائمة بالأشياء التي دوناها أنا وتوبينس، منها ما سمعنا بها ومنها ما قيل إلينا".

"هل هي أسماء؟".

"أجل، ثلاثة أو أربعة أسماء، أكسفورد وكامبريدج، وطلاب جامعتي أكسفورد وكامبريدج الذين كانوا يمكثون هناك، لكن لا أعتقد أن هناك شيئًا في ذلك؛ لأنه يشير ببساطة إلى مقاعد لوهينجرين البورسلين".

"أجل، أجل، أجل، هناك بعض الأشياء الأخرى المثيرة للاهتمام".

فقال تومي: "عقب إطلاق النار علينا، أبلغت الشرطة في الحال".

"جيد جدًا".

"بعد ذلك، طلب مني في اليوم التالي أن أذهب إلى قسم الشرطة، حيث قابلت هناك المفتش نوريس، فلم أكن قد التقيته من قبل، أظن أنه لا بد أن يكون ضابطًا جديدًا".

فقال الكولونيل بيكاواي وهو ينفخ المزيد من الدخان: "أجل، ربما يكون مكلفًا بمهمة خاصة".

فسعل تومي.

وقال: "أظن أنك تعرف كل شيء عنه".

فقال الكولونيل بيكاواي: "أجل، إننا نعرف كل شيء هنا، إنه شخص جيد، وهو من يتولى التحقيق في هذ الواقعة. ربما يستطيع أهل القرية التعرف على من كان يلاحقكما، وإخبار

الشرطة بأشياء يعرفونها عنه، ألا تعتقد يا سيد تومي أنه من الأفضل أن تترك المكان أنت وزوجتك لفترة من الوقت؟".

فقال تومي: "لا أعتقد أنني أستطيع أن أفعل ذلك".

فقال الكولونيل بيكاواي: "أتعني أن توبينس سترفض؟".

فقال تومي: "مرة أخرى يبدو أنك تعرف كل شيء. لا أعتقد أنني أستطيع أن أبعد توبينس عن الأمر؛ فهي ليست معتلة أو تعاني إصابة خطيرة، كما أن لديها شعورًا حاليًا بـ... بأننا على وشك أن نكتشف شيئًا، لكننا لا نعرف ماهيته ولا نعرف ما الذي يجب أن نبحث عنه أو نفعله".

فقال الكولونيل بيكاواي: "واصلا استقصاء الأمر، وهذا كل ما بوسعكما فعله بشأن قضية من هذا القبيل"، ثم دق بإصبعه على الصندوق المعدني، وأردف: "هذا الصندوق الصغير سيخبرنا بشيء طالما أردنا معرفته، سنعرف من الذي كان متورطًا منذ عشرات السنين في هذه القضية ويمارس أعمالًا قذرة من خلف الكواليس".

"لكن بلا شك..."

"أعرف أنك ستقول إن أيًا كان ذلك الشخص فقد مات حاليًا، هذا حقيقي، غير أن ذلك سيخبرنا بما كان يجري، وكيف سارت الأمور، ومن الذي ساعد في ذلك وحرض عليه، ومن الذي ورث أو مارس العمل ذاته؛ فذلك سيقودنا إلى معرفة الأشخاص الذين لا تبدو لهم أهمية كبيرة، لكنهم ربما يتمتعون بأهمية أكبر مما نظن، وسنتمكن كذلك من معرفة الناس الذين كانوا

على اتصال بالمجموعة ذاتها - كما يطلق عليهم المرء؛ هذه الأيام يشير المرء إلى أي شيء باسم مجموعة، ربما تضم أناسًا مختلفين حاليًا لكنهم يحملون الأفكار ذاتها، والحب ذاته للعنف والشر، بل ويتواصلون مع الأشخاص ذاتهم، وكذلك مجموعات أخرى. بعض من هذه المجموعات لا تشوبها شائبة، لكن هناك أيضًا مجموعات سيئة لمجرد أنهم مجموعات؛ فهذا نوع من الأساليب تعلمناه في الخمسين إلى المائة عام الماضية، فقد تعلمنا أنه إذا توحد واحتشد الناس معًا، فبوسعهم أن ينجزوا أمورًا مدهشة، بل ويلهموا الآخرين لتحقيق الإنجازات".

"هل لي أن أطرح عليك سؤالًا؟".

فقال الكولونيل بيكاواي: "يمكن لأي أحد دائمًا أن يسأل، فنحن نعلم كل شيء هنا لكننا لا نفصح أحيانًا عما نعرفه، يجب أن أنبهك إلى ذلك".

"هل اسم سولومون يعني لك أي شيء؟".

فقال الكولونيل بيكاواي: "آه، السيد سليمان، من أين جئت بهذا الاسم؟".

"لقد ذكره لي المفتش نوريس".

"أجل، إذا كنت ستسترشد بما يقوله نوريس، فإنك تسير على الطريق الصحيح. بوسعي أن أفصح لك عن بعض المعلومات بشأن السيد سولومون؛ إذ إنك لن تقابله شخصيًا، فلا مانع لديَّ لأن أقول لك إنه مات".

فقال تومي: "أوه، أفهم ذلك".

فقال الكولونيل بيكاواي: "ربما لا تفهم الأمر بكل جوانبه، نحن نستخدم اسمه أحيانًا، فمن المفيد أن يكون هناك اسم تستطيع أن تستخدمه في أمور محددة، وهذا الاسم يكون لشخص حقيقي لم يعد موجودًا بالحياة، لكنه يحظى بتقدير كبير في الحي الذي كان يعيش به. إنها لمصادفة أن تأتي لتعيش في منزل ذا لوريس، ونحن نأمل أن يكون ذلك في صالحنا، لكن لا أريد أن يسبب ذلك كارثة لك أو لزوجتك، وأفضل طريقة لتفادي ذلك هي الشك في كل شخص وفي كل شيء".

فقال تومي: "إنني أثق بشخصين هنا فحسب، الأول ألبرت الذي يعمل لدينا منذ أعوام..."

"أجل، أتذكر ألبرت، إنه الصبي ذو الشعر الأحمر، أليس كذلك؟".

"لم يعد صبيًا الآن..."

"ومن ذلك الشخص الآخر الذي تثق به؟".

"كلبي هانيبال".

"همم، يبدو أن هناك شيئًا في جعبتك. إنه الطبيب واتس الذي كتب بداية تلك الترنيمة: "يسعد الكلاب بالنباح والعض، تلك هي طبيعتهم"...إلى أي نوع ينتمي هذا الكلب، أهو أسترالي؟".

"كلا، إنه من نوع مانشستر تيرير".

"آه، إنه من سلالة إنجليزية قديمة ويتميز بلونه الأسود الضارب إلى الصفرة. إن حجمه لا يماثل حجم الدوبرمان لكنه ماهر".

الفصل ١٣

زيارة من السيدة مولينز

كانت توبينس تسير في ممر الحديقة عندما دنا منها ألبرت بخطوات مسرعة قادمًا من المنزل.

وقال: "هناك سيدة تنتظرك".

"سيدة؟ أوه، من تكون؟".

"قالت إنها السيدة مولينز، وإن إحدى سيدات القرية أوصتها بزيارتك".

فقالت توبينس: "أوه، بالطبع، بشأن الحديقة، أليس كذلك؟".

"بلى، لقد ذكرت شيئًا بشأن الحديقة".

فقالت توبينس: "أعتقد أنه من الأفضل أن تحضرها هنا بالخارج".

فقال ألبرت ممارسًا دوره ككبير الخدم المحنك: "سمعًا وطاعة يا سيدتي".

فدخل المنزل وعاد بعد عدة دقائق وبصحبته امرأة طويلة أشبه في مظهرها بالرجال، ترتدي بنطلونًا صوفيًا وسترة من الصوف المزركش.

فقالت: "هناك رياح باردة هذا الصباح".

كان لها صوت عميق وأجش.

وأردفت: "أنا أيرس مولينز، أوصتني السيدة جريفين بزيارتك. أنت بحاجة إلى من يساعدك على الاعتناء بالحديقة، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس مصافحة إياها: "صباح الخير، إنني سعيدة برؤيتك. بلى، نحن نحتاج إلى بعض المساعدة في الحديقة".

"انتقلتما لتوكما إلى هذا المنزل، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "حسنًا، أشعر كأنما مر على ذلك أعوام، لأنه لوقت قريب كان العمال يشتغلون بالمنزل".

فقالت السيدة مولينز ضاحكة بصوت عميق وأجش: "آه أجل، أعرف ما يكون عليه الأمر حين يمتلئ المنزل بالعمال، لكنك أصبت حين انتقلت إلى المنزل قبل أن يبدأ العمل به، فتلك الأعمال لا تنتهي إلا بمجيء سكان المنزل، بل أحيانًا ما تضطرين لاستدعاء العمال مرة أخرى لإنهاء شيء غفلوا عنه، إن حديقتك جميلة، لكنها مهملة بعض الشيء، أليس كذلك؟".

"أجل، يبدو أن أصحاب المنزل السابقين لم يهتموا كثيرًا بمظهرها".

"كانوا يسمون آل جونز أو ما شابه، أليس كذلك؟ لكنني لم أكن أعرفهم؛ فقد عشت معظم وقتي على الجانب الآخر من المدينة عند ألمور. إنني أعمل هناك في بيتين، أحدهما أذهب إليه مرتين في الأسبوع، بينما أذهب إلى الآخر يومًا واحدًا. في الواقع، إن يومًا واحدًا لا يكفي للعناية بالحديقة، لقد كان إيزاك يعمل لديكما، أليس كذلك؟ كان رجلًا لطيفًا. من المحزن أن يقتل على أيدي هذه العصابات العنيفة التي دائمًا ما تقتل الناس بهذه الطريقة. لقد أجري التحقيق بشأن الواقعة منذ أسبوع، وقد سمعت أن القاتل لا يزال مجهولًا حتى الآن. إن تلك العصابات تطوف في مجموعات صغيرة ثم تهاجم الناس، إنه لشيء بغيض، وكلما صغر سنهم، زادت قذارتهم. لديك نباتات منغولية جميلة للغاية، إنها من نوع *سولانجين*، صحيح؟ إن لديك أفضل الأنواع منها. دائمًا ما يرغب الناس في الأنواع الأكثر غرابة لكنني أعتقد أن من الأفضل أن تجلبي الأنواع التقليدية حين يتعلق الأمر بنبات المنغولية".

"نحن نهتم أكثر بزراعة الخضراوات".

"أجل، تريدين بناء حديقة جيدة، أليس كذلك؟ يبدو أنها لم تكن تتلقى العناية المطلوبة فيما مضى؛ فالناس يعتقدون أنه من الأفضل شراء الخضراوات بدلًا من زراعتها".

فقالت توبينس: "لطالما رغبت في زراعة ثمرات البطاطس والبازلاء الجديدة، والفاصوليا الفرنسية أيضًا؛ لأنك تستطيعين حصادها وتناولها وهي نضرة".

"هذا صحيح، يمكنك أيضًا زراعة الفاصوليا الخضراء فمعظم البستانيين يفخرون كثيرًا بزراعتهم هذا النوع من الفاصوليا حتى إنهم يتركونها تصل في طولها إلى ثلاثين سنتيمترًا؛ فهم يعتقدون أنها فاصوليا رائعة، ومن ثم يحصلون على جوائز في العروض المحلية. لكنك على حق، فالخضراوات النضرة ممتعة في تناولها".

ظهر ألبرت فجأة.

وقال: "السيدة ريدكليف على الهاتف يا سيدتي. تريد أن تعرف إذا ما كنت تستطيعين تناول الغداء معها غدًا".

"أخبرها بأنني أعتذر عن ذلك؛ لأننا قد نذهب إلى لندن غدا. أوه... انتظر لحظة يا ألبرت، انتظر حتى أكتب شيئًا".

أخرجت لفة صغيرة من الورق من حقيبتها، وكتبت بها بعض الكلمات ثم أعطتها لـ ألبرت.

وقالت: "أخبر السيد تومي بأن السيدة مولينز هنا وأننا نتواجد في الحديقة. لقد نسيت أن أفعل ما طلبه مني، أعطه اسم وعنوان الشخص الذي سيراسله، لقد كتبته هنا..."

فقال ألبرت: "سمعًا وطاعة يا سيدتي"، ثم اختفى.

وعادت توبينس للحديث عن الخضراوات.

وقالت: "أظن أنك مشغولة جدًا؛ إذ إنك تعملين بالفعل ثلاثة أيام في الأسبوع".

"أجل، وكما قلت فإن المنازل التي أعمل بها تقع في الجانب الآخر من المدينة. إنني أعيش في كوخ صغير هناك".

في تلك اللحظة خرج تومي من المنزل وفي صحبته هانيبال الذي كان يركض في دوائر كبيرة حتى وصل أولًا إلى توبينس، فوقف ثابتًا لوهلة مظهرًا مخالبه، ثم اندفع نحو السيدة مولينز ونبح عليها نباحًا عنيفًا، فتراجعت خطوات إلى الوراء في خوف.

فقالت توبينس: "هذا كلبنا المرعب، إنه لا يعض، أو بالأحرى نادرًا ما يعض أحدًا، لكنه عادة ما يعض ساعي البريد".

فقالت السيدة مولينز: "كل الكلاب تعض سعاة البريد".

فقالت توبينس: "إنه كلب حراسة ماهر جدًا؛ فهو من نوع مانشستر تيرير، وهم من كلاب الحراسة البارعين، إنه يحمي المنزل بطريقة رائعة؛ فهو لا يسمح لأحد أن يقترب منه أو يدخله، كما أنه يعتني بي كثيرًا، إنه يحرسني كما لو أنني مهمته الرئيسية في الحياة".

"أوه حسنًا، أظن أن ذلك بالطبع شيء جيد في هذه الأيام".

فقالت توبينس: "أعلم ذلك، إذ تحدث الكثير من عمليات السلب والنهب، فالكثير من أصدقائنا تعرضوا للسرقة، وبعض من هذه السرقات وقعت في وضح النهار بطرق عجيبة، فتجدين اللصوص يضعون السلالم ويخلعون أجزاء من النوافذ متظاهرين بأنهم ينظفونها؛ فهم يلجئون إلى كل أنواع الحيل؛ لذلك من الأفضل أن يكون هناك كلب شرس في المنزل".

"أعتقد أنك على حق".

فقالت توبينس: "ها هو ذا زوجي، إنها السيدة مولينز يا تومي، فقد أخبرتها السيدة جريفين بأننا نريد شخصًا يعتني بحديقتنا".

"ألا تجدين أن هذا العمل شاق عليك يا سيدة مولينز؟".

قالت السيدة مولينز بصوتها العميق: "بالطبع نعم. أوه، إنني أستطيع حراثة الأرض، فالأمر يحتاج فحسب إلى معرفة الطريقة الصحيحة لحرثها. ليست الفاصوليا المحلاة وحدها هي ما تحتاج إلى حفر الخنادق، بل إن كل شيء يحتاج إلى الحفر والحراثة والتسميد؛ فالأرض يجب أن تمهد وتجهز للزراعة، وحينها سيحدث اختلاف كبير".

واصل هانيبال النباح.

فقالت توبينس: "أعتقد يا تومي أنه من الأفضل أن تأخذ هانيبال وتعود به إلى المنزل، فيبدو أنه هذا الصباح في مزاج شرس".

فقال تومي: "حسنًا".

قالت توبينس للسيدة مولينز: "لماذا لا تدخلين المنزل وتحتسين مشروبًا؟ إنه صباح حار بعض الشيء وأعتقد أن ذلك سيكون شيئًا جيدًا، أليس كذلك؟ فبوسعنا أن نناقش بعض الخطط معًا".

فظل هانيبال حبيس المطبخ بينما كانت السيدة مولينز تتناول كوبًا من العصير، وتتحدث مع توبينس في بعض

الاقتراحات، ثم نظرت في ساعتها وقالت إنها يجب أن تعود في الحال إلى المنزل.

"لديَّ موعد ولا بد ألا أتأخر عليه"، فودعتهم على عجل وغادرت المكان.

فقالت توبينس: "تبدو على ما يرام".

فقال تومي: "أعلم، لكن المرء ليس بوسعه أن يتأكد..."

فقالت توبينس في شك: "لكن يمكنه أن يطرح بعض الأسئلة!".

"لا بد أنك متعبة من التجول بالحديقة، من الأفضل أن نؤجل استكشافات هذا اليوم إلى يوم آخر، فقد أمرك الطبيب بالراحة".

الفصل ١٤

حملة الحديقة

قال تومي: "أفهمت يا ألبرت؟".

كان تومي يقف مع ألبرت في حجرة إعداد الطعام حيث كان ألبرت يغسل صينية الشاي التي كان قد جلبها لتوه من حجرة نوم توبينس.

فقال ألبرت: "أجل يا سيدي، فهمت".

"أعتقد أنك ستتلقى بعض التحذيرات من هانيبال".

فقال ألبرت: "إنه كلب جيد ولا يظهر الاستحسان إلى الجميع بالطبع".

فقال تومي: "كلا، هذه ليست طبيعته، إنه ليس من هذه الكلاب التي ترحب باللصوص وتهز ذيولها على الشخص الخطأ. إن هانيبال يعرف بعض الأشياء، لكنني أوضحت لك الأمر، أليس كذلك؟".

"بلى، لا أعرف ماذا أفعل لو أن السيدة... أأفعل ما قالته السيدة توبينس أم أخبرها بما قلته أم...".

فقال تومي: "أعتقد أنك يجب أن تلجأ إلى قدر من الدبلوماسية، سأجعلها تلزم سريرها اليوم. إنني أتركها في عهدتك".

كان ألبرت قد فتح الباب لشاب يرتدي كنزة صوفية.

فنظر إلى تومي في شك قبل أن يدخل الزائر ويتقدم خطوات إلى الأمام راسمًا على شفتيه ابتسامة طيبة.

وقال: "هل أنت السيد تومي؟ لقد سمعت أنك تحتاج إلى أحد للاعتناء بحديقتكم، وأظن أنكم انتقلتم إلى المنزل منذ فترة قصيرة، أليس كذلك؟ لقد لاحظت في طريقي إلى هنا أن الممر مكسو بالعشب، إنني كنت أعمل هنا منذ عامين لدى السيد سولومون، لا بد أنك سمعت عنه".

"السيد سولومون، أجل، لقد أخبرني عنه أحدهم".

"اسمي كريسبن، أنجوس كريسبن، هل من الممكن أن ألقي نظرة على الحديقة؟".

٢

قال السيد كريسبن بينما يصحبه تومي في جولة بين أواني الزهور والخضراوات: "لا يبدو أن أحدًا كان يهتم بالحديقة منذ فترة طويلة".

قال تومي: "هذا هو المكان الذي كانوا يزرعون به السبانخ حيث الممر الموجود أمام المطبخ. أما في الخلف فكانت هناك بعض الصوبات الزجاجية، كما كانوا يزرعون البطيخ".

"يبدو أن لديك هنا معرفة جيدة بالمكان".

"حسنًا، لقد سمع المرء الكثير عما حدث في الماضي. فتجد أن السيدات المسنات يخبرنك بأواني الزهور، وقد أخبر ألكسندر باركنسون الكثير من أصدقائه عن أوراق نبات قفاز الثعلب".

"لا بد أنه كان صبيًا ذكيًا".

"حسنًا، كان ذهنه مليئًا بالأفكار، كما كان شغوفًا بالجرائم، ولقد كتب رسالة مشفرة في أحد مؤلفات ستيفنسون: وهو *السهم الأسود*".

"إنها رواية جيدة، أليس كذلك؟ لقد قرأتها منذ خمسة أعوام، أما قبل ذلك فلم أكن قد قرأت لهذا المؤلف إلا رواية *المخطوف*، عندما كنت أعمل لدى..."، تردد السيد كريسبن.

فبادره تومي قائلًا: "السيد سولومون؟".

"أجل، أجل، هذا هو اسمه. لقد سمعت بعض المعلومات من إيزاك، ونما إلى علمي، إن لم يكن ما سمعته مجرد شائعات، أن إيزاك كان يبلغ مائة عام، وأنه عمل لديكم هنا".

فقال تومي: "أجل، كان إيزاك بالنسبة لسنه رجلًا مدهشًا جدًا، كما أنه كان يعرف الكثير من الأشياء التي كان يخبرنا بها دائمًا، رغم كونها لم تحدث في عصره".

"نعم، كان يروقه الحديث عن الماضي، وكان هناك من أهل القرية من يستمع إلى حكاياته وقصصه، أظن أنك سمعت منه قدرًا لا بأس به من المعلومات".

فقال تومي: "حتى الآن، لا يتعدى الأمر كونه قائمة من أسماء تعود إلى الماضي، لكنها لا تعني لي شيئًا".

"أهي موثوق بها أم مجرد أسماء سمعتها من الآخرين؟".

"معظمها كذلك، فقد سمعت زوجتي بكثير منها ودونتها في قوائم. لا أعرف إذا ما كان أي منها يعني شيئًا، لكنني أعددت أيضًا قائمة ببعض الأسماء التي وصلت لي بالأمس".

"أوه، ما المعلومات التي لديك؟".

فقال تومي: "التعداد، هناك تعداد أجري حينها، لقد دونت تاريخ حدوثه وسأعطيك إياه، وكذلك أسماء الأشخاص الذين قضوا ليلتهم بالمنزل هنا ومن ثم سجلوا أسماءهم به، إذ أقيمت حفلة كبيرة في هذا اليوم، كانت حفلة عشاء كبيرة".

"إذن فلديك علم بمن تواجد هنا بالمنزل في تاريخ محدد... تاريخ ربما يكون مثيرًا للاهتمام؟".

فقال تومي: "أجل".

"قد تكون لهذه المعلومة قيمة وأهمية كبيرة. إنك انتقلت لتوك إلى هنا، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "بلى، لكننا نرغب في الرحيل".

"ألم يعجبكما المنزل؟ إنه منزل لطيف، وهذه الحديقة... هذه الحديقة يمكن أن تكون بديعة للغاية؛ إذ بها بعض الشجيرات

الجميلة، غير أنها تحتاج إلى القليل من التشذيب، فبها أشجار وشجيرات زائدة، وشجيرات غير مزهرة ينم مظهرها عن أنها لن تزهر مرة أخرى، فلا أعرف لماذا تريدون الرحيل من هنا".

فقال تومي: "إن ماضي هذا المكان ليس لطيفًا على الإطلاق".

فقال السيد كريسبن: "الماضي، وما علاقة الماضي بالحاضر؟".

"يظن المرء أن الماضي غير ذي قيمة، وأننا ينبغي ألا نكترث له، لكنه دائمًا ما يترك وراءه أحدهم، لا أعني أنه على قيد الحياة؛ لكن ذكراه تحيا من جديد عندما يحدثك الناس عنه. إنك مستعد لفعل القليل من..."

"القليل من أعمال البستنة من أجلكما؟ أجل، بالطبع. إنها الشيء الذي أحبه، إن البستنة هوايتي".

"لقد أتت السيدة مولينز بالأمس".

"مولينز؟ مولينز؟ هل هي بستانية؟".

"أعتقد أن السيدة... السيدة جريفين هي من قالت لزوجتي عنها وأرسلتها إلينا".

"هل اتفقت معها أم لا؟".

فقال تومي: "ليس بالضبط، في الواقع، لدينا هنا كلب حراسة مفعم بالحماسة، وهو من نوع مانشستر تيرير".

"أجل، إنها فصيلة ماهرة في الحراسة، وأظن أنه يعتقد أن زوجتك هي مهمته الأولى والأخيرة، وأنه لا يسمح لها بأن تذهب إلى أي مكان وحدها، فهو دائمًا بجانبها".

فقال تومي: "هذا صحيح تمامًا، وهو مستعد أن يقطع من يلمسها إربًا".

"إنها كلاب لطيفة، وحنونة، ومخلصة جدًّا ، لكنها عنيدة، ولديها أنياب حادة. أعتقد أنه من الأفضل أن أعتني به".

"إنه على ما يرام حاليًّا، فهو بالطابق العلوي في المنزل".

فقال كريسبن في تفكر: "السيدة مولينز، أجل، أجل، هذا مثير للاهتمام".

"لماذا؟".

"أوه، أعتقد أن الأمر مثير للاهتمام لأن... حسنًا، لم أكن أعرفها بهذا الاسم بالطبع. هل يتراوح عمرها ما بين الخمسين والستين عامًا؟" .

"أجل، إنها سيدة ريفية وخشنة الطبع".

"أجل، ولها علاقات في البلدة أيضًا. لا بد أن يكون إيزاك أخبرك عنها، لقد سمعت أنها عادت لتعيش هنا في القرية، ولكن ليس من فترة طويلة، إن الأشياء تترابط مع بعضها ".

فقال تومي: "أظن أنك تعرف أشياء عن هذا المكان أكثر مني".

"لا أعتقد ذلك، لكن إيزاك لا بد له أن يكون قد روى لك عنه الكثير، إذ كان يقول إنه يعرف أشياء كثيرة وقصصًا قديمة،

هذا كرته كانت جيدة؛ فالناس من كبار السن كانوا يتبادلون أقاويل من هذا القبيل، أجل، في تلك النوادي المخصصة لكبار السن، حيث كانوا يتحدثون عن قصص وروايات، منها ما هو أكاذيب، ومنها ما يستند إلى حقائق. أجل، إن الأمر برمته مثير للاهتمام، وأعتقد أن إيزاك كان يعرف كثيرًا من المعلومات".

فقال تومي: "ما حدث لـ إيزاك شيء مؤسف، أريد أن أصل إلى قاتله. لقد كان رجلًا لطيفًا معنا، وكان يفعل كل ما بوسعه لمساعدتنا. على أية حال، هيا، دعنا نواصل جولتنا في الحديقة".

الفصل ١٥

هانيبال يعود إلى الخدمة مع السيد كريسبن

دق ألبرت باب حجرة النوم، وعندما سمع صوت توبينس: "ادخل"، أطل برأسه من خلف الباب،

وقال: "لقد حضرت السيدة مولينز التي أتت صباح أمس وتريد التحدث إليك لبعض الوقت، فقد فهمت منها أن الأمر يتعلق بالحديقة، وقد قلت لها إنك راقدة في الفراش وإنني لست متأكدًا من أنك تستطيعين استقبال أحد".

فقالت توبينس: "يا لها من كلمات تستخدمها يا ألبرت! حسنًا، دعها تصعد إلى هنا".

"كنت على وشك أن أحضر لك قهوة الصباح".

"حسنًا، يمكنك أن تحضرها وتحضر معها فنجانًا آخر، فهناك قهوة تكفي لفردين، أليس كذلك؟".

"أوه، بلى، يا سيدتي".

"عظيم جدا، إذن أحضرهما وضعهما فوق المنضدة هناك، وبعد ذلك اصطحب السيدة مولينز إلى هنا".

فقال ألبرت: "وماذا عن هانيبال؟ هل آخذه إلى أسفل وأبقيه في المطبخ؟".

"إنه لا يحب أن يبقى حبيسًا في المطبخ، أدخله فحسب إلى الحمام ثم أغلق عليه الباب".

لم يكن سهلًا على ألبرت أن يدفع هانيبال داخل الحمام؛ حيث ظل يقاومه وينبح بشدة، ممتعضًا من الإهانة التي لحقت به.

فصرخت توبينس به: "اخرس! اخرس!".

امتثل هانيبال إلى أوامر توبينس بشأن النباح، وجثم على الأرض ممددًا مخالبه أمامه، ثم حشر أنفه أسفل الباب وظل يزمجر.

قالت السيدة مولينز: "أوه، السيدة توبينس، معذرة إذا كنت قد أزعجتك، لكنني في الواقع ظننت أنك تودين إلقاء نظرة على هذا الكتاب المتعلق بالبستنة. إنه يحوي نصائح واقتراحات بشأن الزراعة في هذا الوقت من العام. فبوسعنا أن نزرع بعض الشجيرات النادرة جدًا، التي تناسب هذه التربة رغم أن بعض الناس يقول إنها ليست كذلك... يا إلهي، إنه لطف كبير منك، أجل، أود فنجانًا من القهوة. من فضلك اسمحي لي بأن أصبها من أجلك، فالأمر يصعب عليك وأنت تمكثين في الفراش.

أتساءل، ربما..." نظرت السيدة مولينز إلى ألبرت، الذي جذب بلطف أحد المقاعد.

وقال: "تفضلي يا سيدتي".

"أوه أجل، شكرًا جزيلًا. هل يدق جرس الباب بالأسفل؟".

فقال ألبرت: "أظن أنه ميلك أو ربما يكون البقال، فهذا موعده، اسمحا لي بالانصراف".

خرج ألبرت من الغرفة وأغلق الباب خلفه، فزمجر هانيبال مرة أخرى.

فقالت توبينس: "هذا كلبي، إنه منزعج من أنني لم أسمح له بالانضمام إلينا لكنه يحدث ضوضاء كبيرة".

"هل أضيف سكرًا إلى فنجانك يا سيدة توبينس؟".

فقالت توبينس: "قطعة واحدة".

صبت السيدة مولينز فنجان القهوة، فقالت توبينس: "لا تضيفي لبنًا".

وضعت السيدة مولينز القهوة بجانب توبينس وذهبت لتصب لها فنجانًا آخر.

وفجأة تعثرت قدمها فتشبثت بإحدى الطاولات؛ لكنها وقعت على ركبتيها مطلقة صرخة فزع.

فقالت لها توبينس: "هل جرحت نفسك؟".

"كلا، كلا، لكنني كسرت الزهرية، فقد تعثرت قدماي في شيء خشن ومن ثم تهشمت. ما الذي ستقولينه عني الآن يا سيدة توبينس؟ أؤكد لكِ أنه حادث عرضي".

فقالت توبينس بلطف: "بالطبع، دعيني أر، إن الأمر ليس بهذا السوء، لقد كسرت إلى نصفين، ما يعني أننا يمكننا أن نلصقها ونعيدها إلى ما كانت عليه مرة أخرى، ولن يظهر ذلك بها".

فقالت السيدة مولينز: "إنني لا أزال أشعر بالانزعاج من الأمر".

"أعلم أنك تمرّين بوعكة صحية، وأنني لم يكن ينبغي أن آتي لك اليوم، لكنني أردت أن أقول لك..."

فبدأ هانيبال في النباح مرة أخرى.

فقالت السيدة مولينز: "أوه، الكلب المسكين، هل لي أن أسمح له بالخروج من الحمام؟".

فقالت توبينس: "من الأفضل ألا تفعلي ذلك، فمن يدري ما الذي سيفعله".

"يا إلهي! هل يدق جرس الباب مرة أخرى؟".

فقالت توبينس: "كلا، سيجيب ألبرت على الهاتف، وبإمكانه أن يبعث لي برسالة إذا لزم الأمر".

لكن تومي هو من أجاب على الهاتف.

فقال: "مرحبًا، أجل؟ أوه، نعم. من؟ أجل... أجل. أوه، عدو، عدو مؤكد. أجل، لا بأس. لقد اتخذنا التدابير المضادة، أجل، شكرًا جزيلا".

فوضع سماعة الهاتف ونظر إلى السيد كريسبن.

فقال السيد كريسبن: "أهو تحذير؟".

فقال تومي: "أجل".

ثم واصل النظر إلى السيد كريسبن.

"من الصعب أن تعرف، أليس كذلك؟ أقصد أنه يصعب عليك أن تعرف عدوك من صديقك".

فقال تومي: "وعندما تعرف أحيانًا ما يكون قد فات الأوان. بوابة المصير، كهف الكوارث".

فنظر له السيد كريسبن في دهشة.

فقال تومي: "معذرة، تعودنا لسبب أو لآخر في هذا المنزل على إلقاء الشعر".

"إنها قصيدة للشاعر فليكر، أليس كذلك؟ وهي تسمى "أبواب بغداد" أم أنها "أبواب دمشق"؟".

فقال تومي: "هلا أتيت معي إلى الطابق العلوي! إن توبينس تستريح فحسب، فهي لا تعاني أية أمراض أو حتى إنفلونزا".

فقال ألبرت معاودًا الظهور فجأة: "لقد أحضرت إليها فنجانًا من القهوة، إلى جانب فنجان آخر للسيدة مولينز التي تتواجد معها في الحجرة وتتحدث إليها عن كتاب عن البستنة أو ما شابه".

فقال تومي: "أعرف، أجل، أجل، إن كل شيء يسير على ما يرام. أين هانيبال؟".

"حبيس الحمام".

"هل أغلقت الباب بإحكام، فهذا لن يروق له كما تعرف".

"كلا يا سيدي، لقد فعلت فحسب ما قلته لي".

فصعد تومي إلى الطابق العلوي وتبعه السيد كريسبن. دق تومي على الباب دقة صغيرة ثم دخل، حينها أطلق هانيبال من الحمام مزيدًا من النباح الصريح المشوب بالتحدي، ليقفز بعد ذلك على الباب من الداخل، فينفتح المزلاج، ويخرج هانيبال من الحمام إلى داخل غرفة النوم، فألقى نظرة سريعة على السيد كريسبن، ثم تقدم واندفع بكل قوته، مزمجرًا بقوة، نحو السيدة مولينز.

فقالت توبينس: "يا إلهي، يا إلهي".

فقال تومي: "ولد جيد يا هانيبال، ولد جيد، ألا تعتقد ذلك؟".

فالتفت إلى السيد كريسبن.

فقال كريسبن: "إنه يعرف أعداءه، أليس كذلك...كما يعرف أعداءك أيضًا".

فقالت توبينس: "يا إلهي! هل عضك هانيبال؟".

فوقفت مولينز عابسة الوجه نحو هانيبال وقالت: "نعم، عضة قوية".

فقال تومي: "إنها العضة الثانية التي تتلقينها منه، أليس كذلك؟ فقد سبق أن طاردك بين الحشائش، صحيح؟".

فقال السيد كريسبن: "إنه ذكي، أليس كذلك يا عزيزتي دودو؟ مر زمن طويل منذ أن التقيت بك في آخر مرة، أليس كذلك؟".

نهضت السيدة مولينز، ورمت توبينس وتومي والسيد كريسبن بسهام نظراتها.

فقال السيد كريسبن: "مولينز، معذرة، إنني أجهل آخر التطورات، هل هذا اسم الزواج أم أنك تعرفين الآن بالسيدة مولينز؟".

"إنني إيرس مولينز، كما كنت دائمًا".

"آه، ظننت أنك دودو، فدائمًا ما عرفتك بهذا الاسم. حسنًا يا عزيزتي، أعتقد أنه من اللطيف أن أراك، لكنني أظن أنه من الأفضل أن نخرج من هنا سريعًا. احتسي قهوتك، أظن أنها على ما يرام. سيدة توبينس، إنني سعيد بمقابلتك، أنصحك ألا تحتسي *قهوتك*".

"يا إلهي! دعوني أسكب هذا الفنجان".

مضت السيدة مولينز قدمًا، فوقف كريسبن بينها وبين توبينس.

وقال: "كلا، يا عزيزتي دودو، لم أكن لأفعل ذلك، أنا من سيقوم بحيازة هذا الفنجان، إنه ينتمي إلى المنزل، وسيكون لطيفًا بالطبع أن أحلل ما به، فربما أحضرت معك جرعة صغيرة من السم، أليس كذلك؟ فمن السهل أن تضعيها في الفنجان بينما تمررينها إلى المعتل أو المفترض بأنه معتل".

"أؤكد لك أنني لم أفعل شيئًا من هذا القبيل، أوه، هلا أبعدت عني كلبك".

كان هانيبال يظهر رغبة شديدة في جذبها إلى الدرج.

فقال تومي: "إنه يريد أن يخرجك من المنزل، فله عادة في ذلك؛ إذ يروق له أن يعض الناس بينما تخرج من الباب الأمامي.

آه، آلبرت، أهذا أنت، كنت أعرف أنك ستقف وراء باب الحجرة الأخرى. هل رأيت ما حدث؟".

أطل ألبرت برأسه من حجرة الاستقبال.

وقال: "شاهدت كل شيء، لقد رأيتها من خلال شق بجوار مفصل الباب وهي تضع شيئًا في فنجان السيدة توبينس، وكانت بارعة جدًا مثل الساحرة".

فقالت السيدة مولينز: "لا أعرف ما تعنيه، فأنا... يا إلهي، يا إلهي، يجب أن أرحل، فأنا لديَّ موعد، إنه مهم جدًا".

فاندفعت خارج الحجرة وهبطت الدرج، فرمقها هانيبال وركض وراءها. لم يظهر السيد كريسبن أي عداء نحوها، لكنه أسرع أيضًا في اللحاق بها.

فقالت توبينس: "أتمنى أن تكون ماهرة في الجري، لأنه إن لم تكن كذلك فسوف يلحق بها هانيبال، إنه كلب حراسة ماهر، أليس كذلك؟".

"توبينس، كان هذا السيد كريسبن الذي أرسله لنا السيد سولومون، لقد أتى في الوقت المناسب، أليس كذلك؟ أعتقد أنه كان ينتظر ليرى ما قد يمكن أن يحدث. لا تكسري هذا الفنجان ولا تلقي بالقهوة حتى نجلب زجاجة أو ما شابه لنضعها بها حتى يتم تحليلها ونكتشف ما بها. ارتدي أفضل ثيابك واذهبي إلى حجرة الجلوس لنحتسي بعض المشروبات قبل تناول الغداء".

٢

قالت توبينس: "ولكن بعد كل ذلك، فنحن لا نعرف ماذا نفهم مما حدث أو ما هي طبيعة الأمر".

وهزت رأسها في جزع، ثم نهضت من مقعدها وذهبت نحو المدفأة.

فقال تومي: "هل تحاولين وضع الخشب بها؟ دعيني أفعل عنك ذلك، فالطبيب نصحك بألا تتحركي كثيرًا".

فقالت توبينس: "إن ذراعي تحسنت حاليًا، فإن رآني أي شخص سيعتقد أنه كسر أو ما شابه، فهو مجرد كشط أو خدش".

فقال تومي: "لديك ما تفخرين به أكثر من ذلك، وهي تلك الرصاصة التي أصبت بها في الحرب".

فقالت توبينس: "في الواقع، كانت الحرب أهون من ذلك".

فقال تومي: "لا يهم، أعتقد أننا تعاملنا مع مولينز بطريقة جيدة جدًا".

فقالت توبينس: "وكان هانيبال بارعًا جدًا، أليس كذلك؟".

فقال تومي: "بلى، لقد أخبرنا بكل شيء حينما قفز على الحشائش، وقد ساعده أنفه في ذلك، فلديه حاسة شم قوية".

فقالت توبينس: "لا يمكن أن أقول إن أنفي حذرني، فقد ظننت فحسب أنها مجرد استجابة لصلواتنا، ونسيت أننا من المفترض أن نجلب شخصًا كان يعمل لدى السيد سولومون.

هل أخبرك السيد كريسبن بأي شيء آخر؟ أظن أن كريسبن ليس اسمه الحقيقي".

فقال تومي: "ربما لا".

"هل جاء هنا في مهمة سرية؟ أعتقد أن هناك الكثير منا هنا".

فقال تومي: "كلا، ليس بالضبط. أظن أنه أرسل لغرض أمني، ألا وهو الاعتناء بك".

فقالت توبينس: "ليعتني بي وبك، أين هو الآن؟".

"يتعامل مع السيدة مولينز".

"أجل، حسنًا، كم أن هذه الأحداث المثيرة تجعل المرء يشعر بالجوع، إنني جائعة جدًا، لا يوجد شيء أود تناوله أكثر من سلطعون حار مع صلصة الكريمة الممزوجة بقليل من مسحوق الكاري".

فقال تومي: "لقد تعافيت، إنني سعيد بسماعك تتحدثين عن الطعام بهذه الطريقة".

فقالت توبينس: "إنني لم أكن مريضة، بل مصابة، وهذا أمر مختلف تمامًا".

فقال تومي: "حسنًا، على أية حال لا بد أن تدركي أنني فعلت ذلك عندما خرج هانيبال، وأخبرنا بأن هناك عدوًا على مقربة يختبئ بين الحشائش، يجب أن تعرفي أن السيدة مولينز هي الشخص الذي كان يرتدي زي رجل ويختبئ بين الحشائش عندما أطلقت النار عليك..."

فقالت توبينس: "وبعد ذلك، ظننت أنها ستحاول مرة أخرى، فمكثت أنا بإصابتي في الفراش وأعددت أنت الترتيبات، أهذا صحيح يا تومي؟".

فقال تومي: "صحيح تمامًا، كما ظننت أنها ستدرك أن رصاصتها أصابتك وأنك طريحة الفراش".

فقالت توبينس: "وهكذا جاءت مفعمة بالوجدان الأنثوي".

فقال تومي: "وأعتقد أن ترتيباتنا كانت جيدة جدًا، وكان ألبرت يراقب الموقف، ويشاهد كل خطوة تأخذها، وكل شيء تفعله..."

فقالت توبينس: "ولذلك أحضر لي صينية بها فنجان من القهوة، وأضاف فنجانًا آخر للسيدة مولينز".

"هل رأيت مولينز، أو دودو، كما أطلق عليها كريسبن، وهي تضع أي شيء في فنجان قهوتك؟".

قالت توبينس: "كلا، لم أرَ ذلك، لكن بدا أن قدمها تعرقلت في شيء فأسقطت هذه الطاولة الصغيرة التي كانت عليها الزهرية، ثم اعتذرت بشدة، وكان كل اهتمامي منصبًا بالطبع على الزهرية المكسورة وما إذا كانت ستصلح مرة أخرى أم لا، ومن ثم لم أرها وهي تفعل ذلك".

فقال تومي: "لكن ألبرت رآها، رآها من خلال مفصل الباب حيث أحدث به شقًا حتى يتمكن من خلاله أن يرى كل شيء".

"وكانت فكرة جيدة أن نحبس هانيبال في الحمام ونترك الباب نصف مقفول؛ إذ إن هانيبال، كما نعرف، بارع جدًا في

فتح الأبواب غير المغلقة بإحكام، بل التي تبدو مغلقة، فحينها لا يحتاج منه الأمر إلا إلى قفزة كبيرة حتى يخرج مثل النمر البنغالي".

فقال تومي: "أجل، هذا وصف جيد جدًا".

"أظن أن السيد كريسبن، أو أيًا كان اسمه، قد أنهى تحرياته، ولكن كيف يعتقد أن السيدة مولينز لها صلة بـ ماري جوردان، أو بشخصية خطيرة مثل جوناثان كين الذي يرجع إلى الماضي..."

"لا أعتقد أنه موجود في الماضي فحسب، بل أظن أن هناك نسخة جديدة منه، أي إعادة ميلاد له إذا جاز القول؛ فهناك الكثير من الأعضاء الشباب المحبين للعنف، إلى جانب مجتمع قطاع الطرق المرحين إن كان هناك أي شيء يسمى بذلك، وكذلك صفوة الفاشيين الذين يتباكون على أيام هتلر الرائعة ومجموعته المرحة".

فقالت توبينس: "كنت أقرأ لتوي رواية *الكونت هانيبال*، إنها من أفضل أعمال المؤلف ستانلي جي ويمان، حيث كانت بين كتب ألكسندر بالطابق العلوي".

"وماذا عن ذلك؟".

"حسنًا، رأيت أن الليلة تشبه البارحة، وأن الحال دائمًا ما كانت كتلك، فانظر إلى كل هؤلاء الأطفال المساكين الذين انطلقوا في حملات دينية مفعمين بالحماس الزائف. وانظر إلى تلك الفتيات والفتيان الذين يمثلون أمام المحاكم كل يوم، لأنهم قتلوا متقاعدًا هزيلًا أو كهلًا لديه أموال قليلة في البنك،

وهناك أيضًا مذبحة سان بارتيليمي؛ فكل تلك الأشياء تحدث مرة أخرى، حتى إن الفاشيين الجدد جاء ذكرهم قبل أيام في سياق يتصل بجامعة محترمة جدًا، وأظن أن أحدًا لن يخبرنا بشيء. هل تعتقد حقًا أن السيد كريسبن سيجد شيئًا عن المخبأ الذي لم يكتشفه أحد بعد؟ فدائمًا ما تُخبَّأ السرقات والأشياء في الخزانات الأرضية، أعتقد أنها مكان رطب لإخفاء الأشياء به. هل تعتقد أنه حين ينهي تحرياته سيعود إلى هنا ويواصل الاعتناء بي... وبك يا تومي؟".

فقال تومي: "لا أحتاج إليه ليعتني بي".

فقالت توبينس: "أوه، لا داعي للتكبر".

فقال تومي: "أعتقد أنه سيأتي ليودعنا".

"أوه، أجل، هذا لأن أخلاقه حميدة، أليس كذلك؟".

"سيرغب في التأكد من أنك أصبحت على ما يرام مرة أخرى".

"إنني مصابة فحسب وقد فحصني الطبيب".

فقال تومي: "إنه مولع بالبستنة".

"أعلم ذلك، فقد عمل لدى صديق له من المفترض أنه يدعى السيد سولومون، وهو مات منذ عدة أعوام، لكنني أعتقد أن ذلك سيكون غطاء جيدًا؛ لأنه يمكنه أن يقول إنه عمل لديه والناس سيعرفون ذلك، وهكذا سيبدو حسن *النية*".

فقالت توبينس: "أجل، أظن أن المرء يجب أن يفكر في كل تلك الأشياء".

دق جرس الباب الأمامي واندفع هانيبال من الحجرة مثل النمر ليقتل أي غريب قد يرغب في دخول المنزل الذي يحرسه.

وعاد تومي يحمل خطابًا.

وقال: "إنه مرسل لنا، هل لي أن أفتحه؟".

فقالت توبينس: "أجل".

ففتحه.

وقال: "حسنًا، هذا يوسع أمامنا آفاق المستقبل".

"ما هذا؟".

"إنها دعوة من السيد روبنسون لتناول العشاء معه في أي يوم من أيام الأسبوع ما بعد القادم، وذلك في منزله الريفي في مكان ما في ساسكس، عندما تتعافين تمامًا".

فقالت توبينس: "هل تعتقد أنه سيخبرنا بأي شيء؟".

فقال تومي: "ربما".

فقالت توبينس: "هل آخذ معي قائمة المعلومات الخاصة بي؟ إنني أتذكر ما بها".

ثم قالت بسرعة:

"السهم الأسود، ألكسندر باركنسون، مقاعد أكسفورد وكامبريدج، جرين... هين... لو، كيه كيه، معدة ماتيلدا، قابيل وهابيل، عربة الحب الحقيقي..."

فقال تومي: "كفى، هذا يبدو جنونًا".

"حسنًا، إن الأمر برمته جنون. هل تعتقد أنه سيكون هناك شخص آخر مدعو على هذا العشاء؟".

"ربما يكون الكولونيل بيكاواي".

فقالت توبينس: "في تلك الحالة من الأفضل أن آخذ معي دواء السعال، أليس كذلك؟ على أية حال، أريد أن أرى السيد روبنسون؛ إذ إنني لا أصدق أنه سمين وأصفر اللون كما تقول... أوه... لكن يا تومي، أليس هذا هو الأسبوع الذي قالت ديبورا إنها ستحضر فيه مع أحفادنا ليمكثوا معنا؟".

فقال تومي: "كلا، إنهم سيأتون في نهاية الأسبوع *القادم* كالعادة".

فقالت توبينس: "شكرًا يا إلهي، إذن فالأمر على ما يرام".

الفصل ١٦

الطيور تهاجر جنوبًا

"هل هذه هي السيارة؟".

خرجت توبينس من الباب الأمامي تحدق بفضول إلى منعطف الممر، منتظرة على أحر من الجمر قدوم ابنتها ديبورا وأطفالها الثلاثة.

فأطل ألبرت من الباب الجانبي.

وقال: "إنهم لم يأتوا بعد. لقد كان البقال هو من حضر يا سيدتي. أتتخيلين أن سعر البيض ارتفع *مرة أخرى*، إنني لن أنتخب هذه الحكومة ثانية، لن *أصوت* لها، بل سأعطي صوتي إلى الليبراليين".

"هل يمكن أن آتي وأساعدك الليلة في إعداد حلوى الروائد والفراولة؟".

"لقد أعددتها يا سيدتي، فقد شاهدتك كثيرًا بينما تعدينها وتعلمت كيف تطهينها".

فقالت توبينس: "ستصبح طباخًا ماهرًا يا ألبرت، إنها الحلوى المفضلة لدى جانيت".

"أجل، وكذلك أعددت كعكة العسل الأسود؛ لأن السيد أندروا يحبها".

"هل جميع الحجرات جاهزة؟".

"أجل، فالسيدة شاكبوري أتت مبكرًا هذا الصباح، كما أنني وضعت صابون خشب الصندل في حمام حجرة السيدة ديبورا، فهو الصابون المفضل لديها".

تنفست توبينس الصعداء عندما علمت أن كل شيء جاهز لاستقبال عائلتها.

انطلق صوت بوق سيارة بالخارج، وبعد عدة دقائق وصلت إلى ممر السيارات السيارة التي كان يقودها تومي ليصل الضيوف بعدها بلحظة عند عتبة باب المنزل؛ كانت الابنة ديبورا لا تزال امرأة جميلة جدًا، رغم أنها قاربت على الأربعين من عمرها، وكان أندروا يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، بينما كانت جانيت في الحادية عشرة من عمرها، أما روزالي فكانت في السابعة.

هتف أندروا: "مرحبًا يا جدتي".

وقالت جانيت: "أين هانيبال؟".

ثم قالت روزالي بمزاج يميل إلى الرغبة في الانفجار في البكاء: "أريد احتساء الشاي".

تبادل الجميع التحيات، وتولى ألبرت إنزال متعلقات العائلة التي كانت تضم ببغاء، وحوض سمك ذهبي، وقفص حيوان الهامستر.

فقالت ديبورا وهي تعانق أمها: "إذن فهذا هو المنزل الجديد، إنه يعجبني، يعجبني كثيرًا".

وقالت جانيت: "أيمكننا أن نتجول في الحديقة؟".

وقال تومي: "بعد أن نحتسي الشاي".

كررت روزالي قولها: "أريد احتساء الشاي"، وعلى وجهها تعبير يقول: "الأهم فالمهم".

دخل الجميع حجرة العشاء حيث كان الشاي جاهزًا، فتناولوه برضا عام.

وبعد أن انتهوا من احتساء الشاي، توجهوا إلى الحديقة، حيث تجول الأطفال لاكتشاف جمالها في صحبة تومي وهانيبال الذي ركض ليشاركهم هذه السعادة، فقالت ديبورا: "ما كل هذا الذي أسمعه عنك يا أمي؟".

كانت ديبورا دائمًا تتعامل بصرامة مع والدتها؛ إذ كانت ترى أنها بحاجة إلى حماية وعناية، فقالت: "ماذا *تفعلين*؟".

فقالت توبينس: "أوه، نستقر حاليًا في هذا المنزل ونستمتع به".

فنظرت ديبورا في عدم اقتناع.

وقالت: "إنك تفعلين أشياء، أليس كذلك يا أبي؟".

كان تومي قد عاد يحمل على ظهره روزالي، بينما كانت جانيت تتفقد المكان الجديد، أما أندروا فكان يتجول متخذًا أسلوب شخص بالغ.

فعادت ديبورا إلى هجومها وقالت: "أنت تفعلين بعض الأشياء، إنك تتقمصين دور السيدة بلينكنسوب مرة أخرى. مشكلتك هي أنه ما من أحد يستطيع أن يكبح حماسك. ها هي ذي قضية إن أوه إم تتكرر مجددًا. لقد سمع ديريك بالأمر وكتب لي رسالة ليخبرني به"، أومأت ديبورا عندما ذكرت اسم أخيها.

فقالت توبينس: "ديريك، ماذا يعرف؟".

"إن ديريك يتمكن دائمًا من معرفة الأشياء".

ثم التفتت ديبورا إلى أبيها وقالت: "وأنت أيضًا يا أبي. *إنك* تورط نفسك أيضًا في بعض الأمور، ظننت أنكما جئتما إلى هنا للتقاعد والعيش في هدوء، والاستمتاع بالحياة".

فقال تومي: "*كنا* ننوي ذلك، لكن شاء القدر أن يغير كل شيء".

فقالت توبينس: "بوابة المصير، كهف الكوارث، حصن الخوف...".

فقال أندروا بما ينم عن سعة الاطلاع الواعية: "فليكر"؛ إذ كان مولعًا بالشعر ويتمنى في يوم من الأيام أن يصبح شاعرًا، ومن ثم أردف وهو يردد المقطع الشعري بالكامل:

"أربع بوابات ضخمة هي بوابات مدينة دمشق...

بوابة المصير الخلفية، وبوابة الصحراء...

فيا أيتها القافلة لا تعبري من الأسفل، ولا تغني في أثناء العبور.

هل سمعتم...

ذاك الصمت حيث ماتت الطيور، ومع ذلك لا يزال هناك شيء يشدو مثل الطائر؟".

وبتعاون متفرد مناسب للموقف، طارت فجأة طيور من سطح المنزل فوق رءوسهم.

فقالت جانيت: "ما كل هذه الطيور يا جدتي؟".

فقالت توبينس: "إنها طيور السنونو التي تهاجر جنوبًا".

"هل ستعود مرة أخرى؟".

"أجل، ستعود في الصيف المقبل".

فقال أندروا بارتياح شديد: "وتمر من خلال بوابة المصير!".

فقالت توبينس: "كان هذا المنزل يسمى في الماضي عش السنونو".

فقالت ديبورا: "لكنكما لن تعيشا هنا، فقد كتب أبي وقال إنكما تبحثان عن منزل آخر".

فقالت جانيت، وهي الشخصية العنيدة بالعائلة: "لماذا؟ إنه يعجبني".

فقال تومي: "سأعطيك بعض الأسباب"، ثم أخرج ورقة من جيبه وقرأ منها بصوت عالٍ:

"السهم الأسود

ألكسندر باركنسون

أكسفورد وكامبريدج

مقعدا الحديقة ذوا الطراز الفيكتوري

جرين... هين... لو

كيه كيه

معدة ماتيلدا

قابيل وهابيل

عربة الحب الحقيقي"

فقالت توبينس: "كفى يا تومي، إنها *قائمتي*، فليس بها ما يتعلق بك".

فقالت جانيت مواصلة استطلاع الأمر: "لكن ماذا يعني كل هذا؟".

فقال أندروا الذي كان يقرأ هذا النوع من الأدب في غير الأوقات التي يهتم بها بالشعر: "تبدو كأنها قائمة لمفاتيح ألغاز من قصة بوليسية".

فقال تومي: "*إنها* قائمة لمفاتيح ألغاز، وهذا هو السبب في أننا نبحث عن منزل آخر".

فقالت جانيت: "لكنني أحب المكان هنا، إنه منزل بديع".

فقالت روزالي: "إنه منزل لطيف"، ثم أضافت وهي تستعيد ذكريات الشاي الذي احتسته منذ قليل: "بسكويت الشيكولاتة".

فقال أندروا متحدثًا كما لو أنه قيصر روسي مستبد: "إنه يروقني".

قالت جانيت: "لماذا لا يعجبكما المنزل يا جدتي؟".

فقالت توبينس بحماسة مفاجئة وغير متوقعة: "إنه يعجبني، أريد أن أقضي بقية حياتي به".

فقال أندروا: "بوابة المصير، إنه اسم مثير".

فقالت توبينس: "كان هذا المنزل يسمى عش السنونو، يمكننا أن نسميه هكذا مرة أخرى..."

فقال أندرو: "يمكنكما أن تؤلفا قصة من وحي هذه القائمة، أو حتى كتابًا..."

فقالت ديبورا: "إن بها الكثير من الأسماء المعقدة جدًا".

"من الذي سيقرأ كتابًا كهذا؟".

فقال تومي: "ستندهشين لو عرفتِ ما يقرؤه الناس، ويستمتعون به!".

نظر تومي وتوبينس إلى بعضهما.

فقال أندروا: "هل يمكنني أن أشتري بعض الطلاء غدًا؟ أم أن ألبرت سيشتريه ويساعدني على كتابة الاسم الجديد للمنزل فوق البوابة".

فقالت جانيت: "ومن ثم ستعرف طيور السنونو أنها تستطيع أن تعود مرة أخرى في الصيف المقبل".

ثم نظرت إلى والدتها.

فقالت ديبورا: "ليست فكرة سيئة على الإطلاق".

فأحنى تومي رأسه لابنته، التي كانت ترى دائمًا أن معاملتها كأميرة حق مكتسب لها، وقال: "*كما تحبين يا أميرتي*".

الفصل ١٧

الكلمات الأخيرة: عشاء مع السيد روبنسون

نظرت توبينس للمجتمعين وقالت: "يا له من عشاء جميل!".

كان الجمع قد انتقل من حجرة العشاء إلى المكتبة ليجلسوا معًا حول طاولة القهوة.

وكان السيد روبنسون، الذي يتميز ببشرته الصفراء وضخامة حجمه التي تفوق ما كانت قد تصورته توبينس، يبتسم وهو يجلس وأمامه وعاء قهوة كبير وجميل يعود إلى عصر جورج الثاني، وبجواره السيد كريسبن الذي كانوا ينادونه حينها باسم هورشام. أما الكولونيل بيكاواي فكان يجلس بجوار تومي، الذي كان قد عرض عليه في تردد واحدة من سجائره.

فقال الكولونيل بيكاواي في دهشة: "*لا أدخن مطلقًا بعد تناول العشاء*".

فقالت السيدة كولدن، التي أحست توبينس ببعض الحذر تجاهها: "حقًا يا كولونيل بيكاواي؟ يا له من أمر مثير جدًا

للاهتمام"، ثم التفتت إلى توبينس وقالت: "إن كلبك مهذب جدًا يا سيدة توبينس!".

فأطل هانيبال من الطاولة التي كان يرقد أسفلها مسندًا رأسه فوق قدم توبينس، بتعبيرات وجهه البريئة المضللة ثم حرك ذيله بلطف.

فقال السيد روبنسون وهو ينظر إلى توبينس بود: "لقد فهمت أنه كلب شرس جدًا".

فقال السيد كريسبن - المعروف بـ هورشام: "ينبغي أن تراه حينما يتحفز لأحدهم".

فقالت توبينس مفسرة: "إنه يتحلى بالسلوكيات اللازمة عندما يذهب في دعوة على العشاء، فهو يحب ذلك كثيرًا؛ إذ يشعر بأنه حقًا كلب ذو مكانة يعيش وسط مجتمع راقٍ"، ثم التفتت إلى السيد روبنسون وقالت: "كان لطفًا كبيرًا منك أن توجه له الدعوة وتعد له صحنًا مليئًا بلحم الكبد، فهو يحبه كثيرا".

فقال السيد روبنسون: "الكلاب جميعها تحب لحم الكبد"، ثم نظر إلى كريسبن - هورشام وقال: "أعرف أنني إذا زرت السيدة توبينس والسيد تومي في *منزلهما*، فربما سأقطع إربًا".

فقال السيد كريسبن: "إن هانيبال يتعامل مع مهامه بجدية شديدة، فهو كلب حراسة ماهر، ولا ينسى عمله مطلقًا".

فقال السيد روبنسون: "أنت تفهم مشاعره بالطبع، بما أنك ضابط أمن".

ثم غمز بعينيه.

وأردف: "لقد قمتما أنت وزوجك يا سيدة توبينس بعمل رائع جدًا، ونحن مدينون لكما، فلقد أخبرني الكولونيل بيكاوي *بأنكما* كنتما المبادرين في حل لغز القضية".

فقالت توبينس في ارتباك: "هذا حدث تلقائيًا، كان لديَّ... فضول لأن أعرف الأمر، وأردت اكتشاف... بعض الأشياء..."

"أجل، أفهم ذلك، والآن، ربما يراودك فضول طبيعي ومماثل نحو معرفة حقيقة الأمر؟".

شعرت توبينس بمزيد من الارتباك، وأصبحت كلماتها غير مترابطة.

فقالت: "أوه... أوه بالطبع... أعني... أفهم أن كل هذه الأمور تكتنفها السرية...أعني أن المسألة برمتها سر... وأننا لا نستطيع أن نطرح الأسئلة... لأنه ليس بوسعك أن تخبرنا بأي شيء، فأنا أتفهم ذلك تمامًا".

"على العكس، بل أنا الذي أريد أن أطرح عليكما سؤالًا. وسأكون سعيدًا بشدة، إذا كنتما ستجيبان عليه بإعطائي المعلومات المطلوبة".

فحدقت إليه توبينس بعينين مفتوحتين.

وقالت: "لا يمكن أن أصدق..."

فقاطعها قائلًا: "لديك قائمة تحوي بعض المعلومات، هكذا أخبرني زوجك، لكنه لم يفصح لي عن فحواها، وهي الملكية

السرية *الخاصة بك*، لكنني أعلم أيضًا ما يكون المرء عليه حين يتملك منه فضول المعرفة".

فغمز بعينيه مرة أخرى، فأدركت توبينس فجأة أن السيد روبنسون يروقها كثيرًا.

صمتت توبينس لوهلة، ثم سعلت وتلمست حقيبتها المسائية من الداخل.

وقالت: "إنها قائمة سخيفة جدًا، بل أكثر من سخيفة، إنها غير منطقية".

أجاب السيد روبنسون بشكل غير متوقع: "غير منطقي، غير منطقي، إن العالم بأكمله *غير منطقي*" - هكذا قال هانس زاكس وهو يجلس أسفل شجرته ذات العمر المديد في أوبرا ديه *مسترسينجر*، إنها الأوبرا المفضلة لديَّ، وقد كان على حق!".

ثم أخذ الورقة التي أعطته إياها.

فقالت توبينس: "لا أمانع أن تقرأها بصوت عالٍ".

فتفحصها السيد روبنسون، ثم أعطاها لـ كريسبن.

وقال: "إن صوتك أوضح مني".

فأخذ السيد كريسبن الورقة وقرأها بطريقة مقبولة ونطق جيد:

"السهم الأسود

ألكسندر باركنسون

ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية

مقعدا أكسفورد وكامبريدج ذوا الطراز الفيكتوري

جرين... هين... لو

كيه كيه

معدة ماتيلدا

قابيل وهابيل

عربة الحب الحقيقي"

توقف كريسبن عن القراءة ونظر إلى السيد روبنسون، الذي التفت إلى توبينس.

وقال: "عزيزتي، دعيني أهنئك، لا بد أنك تتمتعين بعقل استثنائي، فمن الرائع جدًا أن تصلي إلى اكتشافاتك الأخيرة من خلال هذه القائمة من المفاتيح".

فقالت توبينس: "لقد ساهم تومي أيضًا في هذا الأمر".

فقال تومي: "لأنك ألححت عليَّ".

فقال الكولونيل بيكاواي في استحسان: "لقد أجرى أبحاثًا جيدة جدًا".

"كان تاريخ التعداد مفتاحًا مهمًا جدًا".

فقال السيد روبنسون: "إنكما زوجان موهوبان"، ثم نظر إلى توبينس مرة أخرى وقال مبتسمًا: "رغم كونك لا تظهرين

فضولًا طائشا، إلا أنني لا أزال أرى أنك تودين حقًا معرفة الأمر؟".

فهتفت توبينس: "أوه، هل حقًا ستخبرنا بشيء؟ يا له من أمر رائع!".

فقال السيد روبنسون: "بدأت بعض الأحداث، كما تكهنتما، مع آل باركنسون، في الماضي البعيد، كانت جدة جدتي من العائلة، وقد عرفت منها بعض الأشياء...

"كانت الفتاة التي تعرف بـ ماري جوردان تعمل لصالحنا من خلال علاقات أقامتها مع ضباط سلاح البحرية؛ وكانت والدتها أسترالية، ومن ثم كانت ماري تتحدث الألمانية بطلاقة.

"وكما قد تعرفين، وكما يعرف زوجك بالطبع، فهناك بعض المستندات ستعلن قريبًا للرأي العام.

"إن التوجه السياسي الحالي يرى أن السرية التي تفرض على بعض القضايا، وهو ما يكون ضروريًا في بعض الأوقات، يجب ألا تستمر إلى الأبد؛ فهناك أمور في هذه السجلات يجب أن تعلن للعامة كجزء واضح من تاريخ دولتنا.

" ومن المقرر أن يتم نشر ثلاثة أو أربعة مجلدات خلال العامين المقبلين مرفق بها أدلة موثقة.

"وهذا سيشمل بالطبع ما جرى في منزل عش السنونو (وهو الاسم الذي كان يحمله منزلكما الحالي في ذاك الوقت).

"كانت هناك تسريبات للقضية، فعادة ما تنتشر التسريبات في أوقات الحرب، أو في وقت سابق لحرب محتملة.

"فكان هناك سياسيون ذوو مهابة ومكانة مرموقة ويحظون بثقة الجميع، وكان هناك بعض الصحفيين الكبار الذين يتمتعون بنفوذ كبير يستخدمونه في غير حكمة، وكان هناك رجال قبل الحرب العالمية الأولى يتآمرون على بلدهم. وبعد تلك الحرب كان هناك شباب الخريجين المفعمين بالحماسة الذين كانوا ينضمون كأعضاء ناشطين إلى الحزب الشيوعي دون أن يعرف أحد بهذه الحقيقة. والأخطر من ذلك، الفاشية التي جاءت مع برنامج تقدمي كامل يهدف إلى الاتحاد مع هتلر، الذي يتظاهر بأنه محب للسلام ويسعى لإنهاء سريع للحرب.

"إلى نهاية تلك الأمور التي تجري خلف الكواليس، فقد حدث ذلك من قبل في الماضي، ولا شك أنه سيحدث دائمًا: إن الطابور الخامس النشط والخطر يدار من قبل هؤلاء الذين يؤمنون به، والذين يسعون إلى المكاسب المالية، وهؤلاء الذين يهدفون إلى نفوذ يحصلون عليه في المستقبل. سيكون بعض من هذا ممتعًا في قراءته. فدائمًا ما تنطق الجملة نفسها بحسن نية: العجوز بي؟ خائن؟ هراء، إنه جدير بالثقة! آخر رجل في العالم يمكن أن يتهم بالخيانة!

"إنها خدعة الثقة الكاملة، وهي نفس القصة القديمة دائما.

"سواء أكان ذلك في عالم التجارة، أو في العمل الأمني، أو في الحياة السياسية، فدائمًا ما يكون الخائن شخصًا يبدو عليه الإخلاص، ولا يترك لك مجالًا للشك به، بل تجد نفسك تحبه وتثق به، فيصبح فوق مستوى الشبهات. "إنه آخر رجل في

العالم يمكن أن يتهم بالخيانة"، وما إلى ذلك. فهو يكون بارعًا في وظيفته كأنه أشبه بمحتال عبقري يبيع لك سبيكة ذهبية مزيفة أمام فندق ريتز.

"إن القرية التي تقيمين فيها يا سيدة توبينس كانت مقرًا لجماعة معينة قبل الحرب العالمية الأولى، وقد كانت قرية لطيفة يعيش بها أناس لطفاء يخدمون بلادهم من خلال أعمال حربية مختلفة؛ فكان بها ميناء بحري جيد، وضابط بحري وسيم سليل عائلة محترمة، حيث يعمل الأب أدميرالًا، وكان هناك طبيب جيد يحبه مرضاه كثيرًا، ويعهدون إليه بمشاكلهم، ولم يكن أحد يعلم أنه متخصص في الحرب الكيميائية، وبالتحديد في الغازات السامة.

"ولاحقًا، قبل الحرب العالمية الثانية، كان السيد كين، يعيش في كوخ جميل من القش بجوار الميناء، وكان لديه توجه سياسي محدد، لكنه كان يقول إنه لا يتعلق بالفاشية، وإنه يريد السلام قبل كل شيء لإنقاذ العالم، وتوسع هذا التوجه سريعًا وضم أتباعًا في عدة دول مختلفة.

"ليست هذه هي الأشياء التي تريدين معرفتها يا سيدة توبينس، لكن يجب أن تدركي أولًا خلفية الموضوع، وهي خلفية مخطط لها بدقة، حينئذ أرسلت ماري جوردان لتكتشف ما يدور.

"لقد ولدت قبل عصري، وقد أعجبت بالعمل الذي أدته لنا عندما قرأت تاريخها، وودت لو أنني استطعت مقابلتها، فمن الواضح أنها كانت شخصية مميزة".

"كان ماري هو اسمها الحقيقي لكنها كانت تعرف دائمًا بـ مولي، لقد أدت عملًا جيدًا، وكان موتها في سن صغيرة فاجعة كبيرة".

رفعت توبينس نظرها إلى الحائط حيث كانت هناك صورة معلقة تبدو لسبب أو لآخر مألوفة إليها، فقد كانت رسمًا تخطيطيًا لرأس صبي.

"هل هذا...بالطبع..."

فقال السيد روبنسون: "أجل، هذه هي صورة ألكسندر باركنسون، كان يبلغ حينها أحد عشر عامًا، وكان حفيدًا لإحدى عماتي، وعن طريقه ذهبت مولي إلى منزل آل باركنسون كي تعمل مربية، وهو ما مثل لها وضعية آمنة يمكن من خلالها أن تراقب الموقف، فلم يكن يتخيل المرء..." صمت لوهلة ثم أردف: "ما حدث من تبعات لذلك".

فقالت توبينس: "لم تكن ماري من آل باركنسون، أليس كذلك؟".

"نعم يا عزيزتي، ما أعرفه هو أن آل باركنسون لم يتورطوا في أي شيء من ذلك، لكن كان هناك أناس آخرون، كالضيوف والأصدقاء، يمكثون في المنزل في ليلة الحادثة. وكان تومي هو من اكتشف أن التعداد قد أجري في تلك الليلة. ومن ثم كان لا بد أن تسجل أسماء جميع من مكثوا في المنزل داخل سجلات التعداد، إضافة إلى ساكنيه. كان أحد هذه الأسماء لافتًا للانتباه، وهي ابنة طبيب القرية الذي أخبرتكما عنه، حيث جاءت لزيارة والدها كالمعتاد وطلبت من آل باركنسون أن

تمكث معهم في تلك الليلة، إذ كانت قد جلبت معها صديقتين. لم يكن هناك غبار على هاتين الصديقتين، لكن اكتشف لاحقًا أن والدها متورط حتى أخمص قدميه في كل الذي كان يدور في هذه المنطقة. أما بالنسبة لابنته فكانت تساعد آل باركنسون على الاعتناء بالحديقة قبل بضعة أسابيع من الحادث، وكانت مسئولة عن زراعة أوراق قفاز الثعلب والسبانخ بالقرب من بعضهما، وكانت هي التي اقتطفت الأوراق معًا وجلبتها إلى المطبخ في ذلك اليوم المشئوم، وقد قيل إن الوعكة التي أصابت من تناولوا هذه الأوراق حدثت بسبب أحد تلك الأخطاء التي تحدث أحيانًا نتيجة لسوء الحظ، إذ قال الطبيب إنه صادف مثل هذه الحادثة من قبل، فأدت الشهادة التي أدلى بها في التحقيق إلى تقييد الحادثة على أنها قضاء وقدر، ولم يلتفت أحد إلى كأس العصير التي انزلقت من الطاولة وتهشمت في الليلة ذاتها التي ماتت بها ماري جوردان.

"ولعلك تهتمين يا سيدة توبينس بأن تعلمي أن التاريخ ربما يعيد نفسه، فقد تعرضت لإطلاق النار من شخص يختبئ وسط الحشائش، وبعدها حاولت السيدة التي تسمي نفسها السيدة مولينز أن تضع لك السم في قهوتك؛ فقد علمت أنها حفيدة أو من أبناء عمومة المجرم الحقيقي، ألا وهو الطبيب، كما أنها كانت قبل الحرب العالمية الثانية من أتباع جوناثان كين، ومن خلال ذلك عرف كريسبن أمرها، وكذلك كلبك شك في أمرها وعلى أثره اتخذ إجراءات فورية، ونحن نعرف الآن أنها هي التي ضربت إيزاك العجوز على رأسه.

"يجب علينا حاليًا أن نضع في الاعتبار شخصية أكثر شرًا، ألا وهي شخصية الطبيب اللطيف الذي كان محبوبًا من الجميع في القرية، لكن الأدلة أثبتت أنه المسئول عن موت ماري جوردان، رغم أن أحدًا لم يكن ليصدق ذلك حينها؛ فكانت له اهتمامات علمية واسعة، وكان خبيرًا في السموم، ورائدًا في علم الجراثيم، لكن الأمر استغرق ستين عامًا حتى تتكشف الحقائق للجميع، أما حينها فلم يشك في الأمر أحد إلا ألكسندر باركنسون".

فقالت توبينس ببطء: "*ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية*"، ثم سألت: "هل كان الطبيب هو من اكتشف ما كانت تفعله ماري؟".

"كلا، لم يشك الطبيب في أمرها، لكن أحدهم استطاع أن يكشف حقيقتها، فحتى ذلك الحين كانت ناجحة تمامًا؛ إذ إن الضابط البحري عمل معها طبقًا للخطة، والمعلومات التي سلمتها له كانت حقيقية، لكنه لم يكن يعرف أنها غير ذات قيمة، رغم أنها بدت له مهمة جدًا. أما الرسومات والأسرار المتعلقة بسلاح البحرية فكانت تسلمها على نحو واف في أيام عطلاتها التي تذهب فيها إلى لندن؛ إذ كانت تمتثل للتعليمات التي تتعلق بمكان وزمان المقابلة، وهو أحيانًا حديقة الملكة ماري في ريجينت بارك، حسب ما أظن، أو تمثال بيتر بان في حديقة كنسنجتون. وقد حصلنا على معلومات كثيرة من تلك المقابلات ومن الموظفين الصغار في بعض السفارات المعنية.

"لكن كل ذلك وقع في الماضي يا سيدة توبينس، وقع منذ زمن بعيد".

سعل الكولونيل بيكاواي وقال فجأة: "لكن التاريخ يعيد نفسه يا سيدة توبينس، والجميع يعلمون ذلك إن آجلاً أم عاجلاً. فهناك نواة أعيدت تشكيلها حديثًا في هولوكوي؛ فهناك أشخاص يحيون هذه الأمور ثانية، وربما هذا هو السبب في عودة السيدة مولينز. كما أنهم يستخدمون ثانية بعض المخابئ، ويجرون مقابلات سرية، وكذلك عاد المال ليكون ذا أهمية، ولكي نعرف من أين يأتي وفيما ينفق، استدعينا السيد روبنسون، وبعد ذلك أتى صديقنا العزيز تومي وبدأ يعطيني بعض المعلومات المثيرة للاهتمام جدًّا، والتي تطابقت مع شكوكنا، فهناك مشهد للخلفية يجرى تحضيره تحسبًا للأمر، ومستقبل يعد لكي يتحكم فيه ويديره شخصية سياسية معينة في هذه الدولة. إنها شخصية ذات سمعة معينة ويزداد مريدوها وأتباعها كل يوم. إن خدعة الثقة تعيد نفسها مرة أخرى، فهو رجل يتمتع بنزاهة عالية، ومحب للسلام، ولا يعتنق الفاشية! بل يعتنق مذهبًا أشبه بها، ويسعى إلى السلام من أجل الجميع، ويعد بالمكافآت المالية للمتعاونين".

فقالت توبينس بعينين مفتوحتين: "هل تقصد أن الأمر لا يزال جاريًا؟".

"حسنًا، نحن نعرف الآن كل ما نريد ونحتاج إلى معرفته، وجزء من الفضل في ذلك يرجع إلى ما فعلتماه من إجراء عملية جراحية للحصان الهزاز..."

فهتفت توبينس: "ماتيلدا! إنني سعيدة! لا أستطيع أن أصدق ذلك، إنها معدة ماتيلدا!".

فقال الكولونيل بيكاواي: "إن الخيول أشياء مدهشة. لا يمكن للمرء أن يعرف ما ستفعله، أو ما لا ستفعله، وذلك منذ حصان طروادة الخشبي".

فقالت توبينس: "أعتقد أن عربة الحب الحقيقي قد ساعدت أيضًا في الأمر؛ لكن، إذا كان الأمر لا يزال مستمرًا، مع أطفال..."

فقال السيد كريسبن: "لست بحاجة لأن تقلقي، فقد تم تطهير هذا الجزء من إنجلترا، وتم التخلص من عش الدبابير. فالمكان أصبح مناسبًا للعيش به بأمان مرة أخرى؛ فنحن نظن أنهم نقلوا العمليات إلى حي بيري سانت إدموندس، ونحن سنظل نحرسكما، لذا لا داعي للقلق على الإطلاق".

تنهدت توبينس وقالت: "أشكرك أنك أخبرتني بذلك، فإن ابنتي ديبورا تأتي من حين لآخر لتمكث معنا هي وأطفالها الثلاثة..."

فقال السيد روبنسون: "لا داعي للقلق. بالمناسبة، عقب قضية إن أوه إم، ألم تكفلي الطفلة التي كانت مرتبطة بالقضية، تلك الطفلة التي كان بحوزتها كتب أناشيد الأطفال، جوسي جاندر؟".

فقالت توبينس: "بيتي، أجل، لقد تفوقت في دراستها بالجامعة، وهي حاليًا تعيش في إفريقيا لإجراء بعض الأبحاث

عن حياة الناس هناك، فالكثير من الشباب مولعون بهذا الأمر، إنها سعيدة بذلك".

تنحنح السيد روبنسون ونهض قائلاً: "أود الاحتفال بالسيد تومي والسيدة توبينس تقديرًا للخدمات التي قدماها لوطنهما".

فشرب الجميع احتفاءً بهذا الأمر.

فقال السيد روبنسون: "وإذا جاز لي الأمر، فسأحتفل أيضًا بـ هانيبال".

فقالت توبينس وهي تربت رأسه: "هانيبال، إننا نحتفل بك كفارس يتوج بميدالية، كنت أقرأ قبل أيام رواية *الكونت هانيبال* للمؤلف ستانلي ويمان".

فقال السيد روبنسون: "أتذكر أنني قرأتها وأنا صبي صغير".

""من يلمس أخي يلمس تافاني"- إذا كان هذا الاقتباس صحيحًا، أليس كذلك يا بيكاواي؟ هانيبال، هل تسمح لي بأن أربت كتفك؟".

تقدم هانيبال نحوه، فربت السيد روبنسون على كتفه، فهز هانيبال ذيله.

فقالت توبينس: "سأطلق عليك لقب الكونت، الكونت هانيبال، أليس لقبًا جميلًا؟ لا بد أن تفخر بنفسك!".

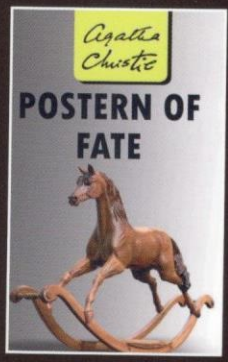

بوابة المصير

أصبح كل من تومي وتوبينس بيريسفورد للتو مالكين فخورين لمنزل قديم في إحدى القرى الإنجليزية. وإلى جانب هذا العقار، ورثا بعض الأشياء عديمة القيمة، والتي تتضمن مجموعة من الكتب القديمة. وفي أثناء قيام توبينس بتصفح نسخة من كتاب *السهم الأسود*، صادفت سلسلة من السطور الموضوعة عشوائيًا، فيما يبدو، تحت بعض الحروف.

ولكن، عندما كتبت الحروف، شكلت رسالة مزعجة تقول: *ماري جوردان لم تمت بصورة طبيعية*. وبعد مرور ستين عامًا على جريمتهم الأولى، لايزال أعداء ماري جوردان مستعدين لارتكاب جرائم القتل...

"إن الماضي والحاضر يتشابكان بشكل مثير للإعجاب...هذه الرواية أحد الأعمال الفنية الإبداعية".

صحيفة أوبزرفر

بوابة المصير

إعلان عن جريمة
أوراق لعب على الطاولة
القتل السهل
خداع المرايا
الجواد الأشهب
لغز القطار الأزرق
الأفيال تستطيع أن تتذكر
الشاهد الصامت
الستار
بعد الجنازة

أجاثا كريستي هي المؤلفة التي حققت كتبها أعلى مبيعات على مر التاريخ، ولم يتفوق عليها في حجم المبيعات سوى ويليام شكسبير. بيع من كتبها أكثر من مليار نسخة باللغة الإنجليزية ومليار نسخة أخرى بمائة لغة مختلفة. توفيت في عام 1976.

ISBN 628-1072-08-813-2
6 281072 088132
282206463

النسخة الإلكترونية
قارئ جرير
JARIR READER

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore